للحُب شعائرٌ خاصّة

رواية

منال محمد سالم

الكتـــــــــــاب: للحب شعائر خاصة

المـؤلـــــــف: منال محمد سالم

تصميم الغـــلاف: محمد دربالة

المراجعة اللغوية: إبداع

الطبعة الأولي: فبراير 2019

رقـم الإيـــداع: 22702 / 2018

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 207 - 3

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

dreidibrahim@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 10 ش هدى شعـــراوي، وســـط البـــلد، القاهـــرة

هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

ibda3bookstore@gmail.com

للحُب شعائرٌ خاصّة

رواية

منال محمد سالم

إبداع

الإهداء

إلى عائلتي كلها؛ إلى أمي الحبيبة وأبي الغالي،

إلى زوجي الأقرب إلى قلبي،

إلى أخوي العزيزين وزوجتيهما الكريمتين، إلى الصغار «أروى»، «ياسين»، «يزيد»، والرضيع «آمن»، إلى الأقرباء والأحباب، والأصدقاء، والرفيقات، والزميلات في العمل كل شخص على حدا.

إلى تلك النبضة التي رزقني الله بها واستشعرتها في رحمي.

إلى القراء الأفاضل الذين دعموني في دربي الطويل ومنحوني جزءًا من وقتهم لأغدو ما عليه الآن.

وأخيرًا إلى الصرح الأدبي «إبداع» ومديره المحترم د. «عيد إبراهيم».

عند الوقت المتفق عليه مساءً كان الجميع يستعد للتنافس، حيث ركض الصبية –الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة عشر والسابعة عشر- خلف بعضهم البعض قاصدين ترعة تلك القرية القاصية، فالقفز في مياهها هو الدليل العملي على إثبات الرجولة المبكرة، صعد أغلبهم ذلك الجسر القديم ليتخذوا وضعية الاستعداد، وكان من بينهم أحد الصبية المتحمسين لهذه التجربة المثيرة، نزع «أحمد» جلبابه القديم عن جسده ليظهر صدره العاري وبقي فقط بسـرواله الداخلي، تضاعفت حماسته بدرجة ملحوظة مع أول قفزة ناجحة لأحدهم، نالت إعجابه فصفق مهللاً بصياح مرتفع اختلط مع صياح الفتية، التفت بوجهه نحو أخيه الأكبر «حسن» فرآه ممتقع الوجه، هز الأخير رأسه معترضًا ونظرات الخوف تملأ حدقتيه هاتفًا:

-بلاش

طمأنه قائلاً بثقةٍ وهو يتأهب في وقفته:

-متقلقش عليا!

قبض «حسن» على ذراعه متابعًا برجاءٍ أشد:

-أمك موصياني عليك، إنت هاتعمل زي العيال دول، بناقص منه الهم ده

أبعد يده عنه مردداً بإصرار وقد عبست ملامحه:

-ماينفعش يا «عبده»، أنا راجل، عاوزني أطلع عيل قصادهم؟

ضاقت عيناه محذرًا بلهجة شديدة:

-ولما التيار يسحبك ساعتها هاتبقى راجل؟

رد بابتسامة باهتة مظهرًا شجاعة زائفة:

-يبقى نصيبي جه كده!

-اسمعني يا «أحمد» ....

ضغط على شفتيه مقاطعًا بجدية:

-معدتش ينفع!

عاود التحديق أمامه وهو يسحب نفسًا عميقًا ليحفز به خلايا جسده ليستعد لتلك القفزة الخطرة، ربما هو الأصغر عمرًا لكنه الأكثر جرأة وتمردًا، تراجع خطوة للخلف لينطلق بعدها في اتجاه حافة الجسر المحطمة، ثم وثب منها نحو الترعة معتقدًا أن المياه بها ضحلة وسيسبح فيها بسهولة كمن سبقه، بل وسينجح في إثبات رجولته التي ظهرت عليه مبكرًا، لكن حدث الأمر سريعًا، امتزج صراخ أخيه مع صوت الارتطام القوي بصفحة المياه الهائجة ليتحول كل شيء بعدها للإظلام.

***

انتبه «أحمد» لبوق الشاحنة الصادح بقوة فأفاق من شروده البعيد في ذكريات لم تفارقه يومًا ليُحدق بعينين متوترتين في الطريق أمامه، اعتدل في جلسته خلف المقود مستمعًا إلى توبيخ زوجته «هيلين» التي بدت مزعوجة من مجازفته الطائشة، أشارت بكفها متابعة بلغتها اليونانية:

-من فضلك انتبه للطريق!

اعتذر منها قائلاً بنفس اللغة:

-حسنًا، لن يحدث مجددًا!

عاود القيادة بشكلٍ أفضل على الطريق الجبلي الذي كان وعرًا ويحتاج لحرص شديد أثناء التحرك عليه، فهو مليء بالكثير من الانحناءات والتعرجات التي تزيد من صعوبة التحكم بالسيارة، لم يضع «أحمد» في حسبانه سوء الأحوال الجوية وهطول الأمطار بكثافة، اعتقد أنها حالة مؤقتة وأن السماء ستصفو بعد برهة، لكن خابت توقعاته وباتت حتى القيادة بتأنٍّ عليه غير آمنة بالمرة، رددت «هيلين» بخوفٍ:

-كان علينا المكوث بالمنزل!

التوى ثغره بابتسامة باهتة وهو يدير رأسه نحوها ليطالعها بنظراته الحنون، رد قائلاً بلطفٍ كمحاولة بائسةٍ منه لطمأنتها رغم ذلك الخوف المتسرب إليه:

-اهدئي، أوشكنا على الوصول!

-أتمنى أن تكون الصغيرة بخير.

-لا تقلقي، والدتك متعلقة بابنتنا كثيرًا.

-ولكن هي.....

تساقطت الصخور بصورة فجائية فصرخت «هيلين» بهلعٍ وقد اتسعت مقلتاها في رعب جلي ومشيرة بسبابتها:

-»أحمد»، انظر أمامك!

حدق أمامه مفزوعًا من تلك الكتل الضخمة التي سدت الطريق أمامه، اضطر أن ينحرف بالسيارة وهو يضغط على المكابح ليتفاداها لكنها انزلقت به ودارت حول نفسها عدة مرات ليفقد كليًا التحكم فيها، انجرفت في ثوانٍ معدودة نحو سفح الجبل لتهوي نحو الأسفل، تشبث «أحمد» جيدًا بالمقود متذكرًا مشاهدًا عديدة ولكنها متداخلة من حياته السابقة؛ بكاء أمه، وداع أبيه، فراق الأحبة، قسوة الغربة، وأخيرًا الرحيل.

الفصل الأول

اتكأ على عكازه الخشبي وهو يسير بخطواته المتباطئة نحو مقعده الذي توسط كبار رجال عائلات القرية في المَضْيفة المُلحقة بمنزله الكبير، انخفضت الأصوات نوعًا ما مع اقترابه من مجلسه المعتاد احترامًا لشخصه الوقور، فمثله من الرجال الأشداء من ذوي القوة والسلطة يفرضون تلقائيًا بحضورهم هيبةً تجبر الجميع على الانصياع لهم، كور الشيخ يده ليسعل سعالاً حرجًا وهو يستدير بجسده ليواجه الجميع، ضم طرفي عباءته -ذات اللون البني الداكن- معًا كي لا تسقط عن كتفيه، ثم رفع يده القابضة على رأس العكاز قليلاً عن الأرضية كنوعٍ من الترحيب لمن أتى للمجلس العرفي؛ والذي اشتهر في بعض المناطق بكونه بديلاً عن المحاكم القضائية، وما يصدر خلاله من أحكام هي كحكم القضاء بل وأشد قوة وإلزامًا، ومن يلجأ للقضاء بعد ذلك اعتراضًا على حكمه يتلقى عقوبة رادعة، مرر الحاج «رجب» نظراته القوية على أوجه المحدقين به وهو يستطرد حديثه قائلاً بصوته الأجش:

-السلام عليكم!

ردوا عليه التحية معًا رغم اختلاف نبراتهم ليجلس بعدها في مقعده، رحب به عمدة القرية ومن جلسوا على جانبيه، فرك ذقنه المهذبة بحركة ثابتة مراقبًا بهدوء بائنٍ على تعابيره الجادة نظرات المتشاحنين في مجلسه؛ والذين ارتفعت أصواتهم كتعبيرٍ عن سخطهم وتذمرهم، لم يقاطع جدالهم المحتدم، فالأعصاب اليوم على أشدها، الكل مترقب لما سينطق به من حكم نافذ في مجلسه العرفي لقضية اختصم فيها اثنان من كبار العائلات بالقرية،

خاصةً أنها تمس الزوجة، ويُدَّعى عليها تورطها في علاقة آثمة مع أحدهم، لم يرتضِ والد الزوجة بتلك التهمة المجحفة وأراد الاقتصاص من زوجها ورد اعتبارها أمام الجميع، التفت الحاج «رجب» برأسه للجانب ليمعن النظر في وجه «حافظ» –خادمه الأمين، ورجله الأول- الذي صاح عاليًا:

-اهدوا يا رجالة، خلوا الحاج «رجب» يتكلم!

بادله نظرات جادة وهو يبتسم له، في حين هتف أحدهم من الخلف بحماسٍ:

-اتفضل يا شيخنا!

رد عليه الحاج «رجب» بصوته الخشن مبديًا انزعاجه من تصرفهم وقد ضاقت نظراته المستنكرة:

-مش لما تحترموا وجودي الأول؟!

اعتذر منه الجميع، فاستند بكفيه على رأس عكازه، انتصب في جلسته مستهلاً حديثه:

-بسم الله وعلى بركته نبدأ، كلكم عارفين إن احنا عاملين المجلس ده عشان نجيب حق المظلومين مهما كان مين اللي ظالمه سواء كان راجل أو حُرمة، ولحد النهاردة الكل كان راضي بحكم المجلس، صح ولا أني غلطان؟

رد بعضهم بصوتٍ مرتفع:

-مظبوط يا حاج «رجب»!

رفع كفه قليلاً ليضرب به الآخر متابعًا بنفس الجدية:

-طيب، نيجي لمشكلة دار «سعيد» مع دار «راضي» واللي .....

عند تلك النقطة تحديدًا انفجر أحدهم غاضبًا بطريقة ألهبت المجلس واستفزت معظم من فيه حينما هدر منفعلاً:

-استحالة تفضل بنت الـ..... على ذمتي...

رد عليه «راضي» محتجًا بهياجٍ، وقد اشتعلت نظراته بالحنق:

-احفظ أدبك يا «سعيد»، بِتي أشرف من الشرف!

حذره «حافظ» قائلاً بحدة:

-لم لسانك شوية يا «سعيد»، احترم قعدة الكُبرات اللي هنا

تجاهله موجهًا حديثه للحاج «رجب» متابعًا بنبرته المشحونة بالغضب:

-يا شيخنا دي ولية فاجرة، عرفت عليا واحد ولبستني العِمة وأنا غايب.

هدر «راضي» معترضًا بشراسة انعكست في نبرته ونظراته:

-وربنا ما هاسكت عن حقها، لازم تجيبلي حقي منه يا حاج «رجب»!

ضرب الأخير بعكازه بقوة على الأرضية الصلبة وهو يصيح بنبرة خشنة تحمل التحذير:

-خلصتوا ولا أقوم أمشي؟!

كظم «راضي» غضبه مضطرًا وهو يرد:

-اعذرني يا حاج «رجب»، ما انت شايف بنفسك الـ.....

قاطعه بقوة صارمة وقد قست نظراته:

-إنت قولت اللي عندك، وأني سمعت منك بالظبط زي ما سمعت من «سعيد»، وجه وقت الحكم!

اضطر «راضي» أن يبتلع كلماته في جوفه رغمًا عنه وهو يعاود الجلوس على المقعد، اعتقد «سعيد» من طريقته في الحديث أن الحكم سيكون في صالحه، لذلك هلل متحمسًا وقد التوى ثغره بابتسامة مستفزة:

-قول يا شيخنا!

التفت الحاج «رجب» برأسه نحوه مكملاً بنفس القوة:

-»سعيد» إنت غلطان في حق بت الحاج «راضي».

ارتسمت علامات الصدمة على تعابير وجه الأخير غير متوقع لما قاله، بينما هتف «راضي» بفرحة المنتصر:

-الله أكبر يا شيخنا، ينصر دينك يا حاج!

امتلأت القاعة بأصوات مختلطة ما بين المؤيد والمعارض للحكم، لكن ارتفع صوت «سعيد» المتسائل بعدم فهم وقد احتقنت عيناه والتهب وجهه:

-معناته إيه الكلام ده؟

رد موضحًا بجدية ونظراته تحمل الاتهام له:

-يعني إنت افتريت على مراتك.

هب واقفًا من مكانه ليثور من جديد معترضًا بصياح مبرر:

-وربنا ده ظلم!

لم يستطع التحكم في انفعالاته التي تضاعفت نتيجة تدفق الدماء المحتقنة غضبًا في عروقه فأكمل بتهورٍ دون اكتراث لتبعات ما يتفوه به من حماقات:

-هما قرطسوك يا حاج «رجب»؟ قول كده بقى إنك.....

قاطعه العمدة صارخًا بحدة على تطاوله المتجاوز:

-إنت اتجننت، بتكلم شيخنا كده إزاي؟

وأضاف «حافظ» محتجًا على وقاحته الفظة:

-جرى إيه يا «سعيد»، إنت نسيت نفسك؟ ده الحاج «رجب»..

ضرب الحاج «رجب» الأرضية الصلبة بعكازه وهو ينهض واقفًا من مقعده ليرد بصرامةٍ:

-ولا كلمة يا «سعيد»، وقلة أدبك دي وطولة لسانك هتتحاسب عليها!

صاح «راضي» بخشونة جلية وهو يشير بسبابته نحوه:

-أنا عاوز بتي تطلق منه، مش هاخليها على ذمة واحد مصانش عرضها

رد العمدة مؤكدًا:

-وماله، حقك يا حاج «راضي»

استمر الأخير في تعديد مساوئ زوج ابنته مدعيًا استغلاله لما حدث ليساومه ماديًا، استشاطت أعين «سعيد» وحدق بسخط في أوجه المتطلعين إليه فقد بدا في موقف لا يُحسد عليه، انقلبت الطاولة على رأسه وتحول في طرفة عين من الضحية إلى الجاني، ضرب كفًا بالآخر مرددًا بنبرة منكسرة بعد أن خسر قضيته:

-حسبنا الله ونعم الوكيل، في الآخر طلعت أنا قفص الجوافة!

ظل يغمغم بكلمات ناقمة وهو يسير مبتعدًا عن المجلس فصاح أحدهم يناديه:

-استنى يا «سعيد».

لكزه في كتفه قائلاً بنبرة مهزومة:

-ما خلاص، المولد انفض والليلة خلصت، خلوني أغور في داهية.

استمرت الهمهمات دائرة بين أغلب المتواجدين حتى قطعها صوت الحاج «رجب» الصائح:

-نيجي بقى لموضوع أرض الجهة القبلية بتاعة بيت ولاد «أبوزيد» و.....

توقف عن إتمام جملته حينما رأى تلك العجوز بعباءتها السوداء وحجابها المُغبر ببقايا الطحين تلج للداخل، بالطبع تحولت كل الأعين نحوها متفرسة وجهها باهتمام كبير، حافظت «نعمت» على خطواتها الثابتة وهي تخطو من جديد لتلك الحضرة المهيبة، فبالرغم من مرور السنين إلا أن ما دار بها قبل أعوام ظل محفورًا في ذاكرة الجميع ليُعاد المشهد نفسه من جديد، فما حدث هنا لم يكن بالهين، شعرت وكأن المضيفة تدور بها معيدة عقارب الساعة للوراء ولسنوات قد مضت.

***

ارتجف بدنه وارتعشت أطرافه وهو يتسلل إلى داخل منزله مختبئًا خلف أخيه الأكبر والذي دعا الله في نفسه أن يكون الجميع نائمًا كي لا يتم توبيخهما ككل مرةٍ يخرجان فيها دون علم القاطنين به، اصطكت أسنان «أحمد» بقوة بسبب تلك البرودة المسيطرة عليه، مسح بيده المرتجفة قطرات الماء عن خصلات شعره متسائلاً بصوتٍ خفيض:

-أبوك صاحي؟

أجابه «حسن» هامسًا:

-لسه، خش على جوا قبل ما أمك تشوفنا.

أومأ برأسه مستجيبًا لنصيحته دون نقاش، فقد كان بحاجة ماسة لتبديل ثيابه المبتلة قبل أن يُصاب بالبرد، انتفض في مكانه مذعورًا حينما رأى طيفها يظهر له من ظلمة غرفته، كتم شهقته الفزعة بصعوبة، تنفس الصعداء حينما اتضحت له معالم وجهها، دنا من أخته الكبرى ليهمس لها بعتاب وهو يكز على أسنانه:

-ينفع كده يا «هانم»؟

رمقته بنظراتها الحادة وهي ترد متسائلة:

-كنت فين لحد السعادي يا «أحمد»؟ مش خايف أمك تصحى وتعرف إنك مكونتش هنا و...

قاطعها ببرود وهو يقترب من خزانة ملابسه القديمة:

-ما تعرف، أنا معونتش عيل صغير عشان تخافوا عليه.

فتح الضلفة ليسحب أول ما طالته يده من جلباب نظيف، أدار رأسه في اتجاهها متابعًا بحدة طفيفة وهو يرفع حاجبه للأعلى باستنكار كبير:

-ولا إنتي عاجبك مقاطيع البلد يفضلوا ينادوني زي زمان يا «ابن نعمت»؟!

تفهمت «هانم» موقفه الذكوري الرافض كليًا لمناداته دومًا بذلك اللقب الذي ظل مُلازمًا له لفترة طويلة بسبب الاهتمام الزائد من والدتهم نحوه خاصة في وجود الفتية، تنهدت قائلة باستياء:

-ماشي، إنت عندك حق، بس بردك خد بالك على نفسك.

-متقلقيش، أنا بقيت راجل يا ست البنات.

ربتت على صدره هاتفة بإعجاب:

-طبعًا ياخويا!

-ركك بس يجيلك صاحب النصيب وأنا بنفسي هـ.....

لم تصغِ إلى باقي جملته، يكفيها فقط كلماته الأولى لتفهم أن تلك المسألة قد صارت بالنسبة لها حلمًا صعب المنال، ابتسمت له رغم نظرات الحزن المسيطرة عليها، اغرورقت عيناها بالعبرات فهي شبه متأكدة من عدم حدوثه، خاصة بعد تلك الحروق التي نالت من جسدها وأنقصت من أنوثتها كثيرًا فبدت كالمسوخ من الداخل، رغمًا عنها تحركت يدها لتضم فتحة صدر قميصها المنزلي لتغطي آثاره البغيضة، أخفض «أحمد» أعينه ليحدق في كفها المرتعش شاعرًا بوخزة في صدره، فقد تسبب هو في تلك الحادثة الأليمة بطريقة مباشرة حينما كان صغيرًا وركل كرته في اتجاهها وهي تحمل وعاء الطعام الساخن لتتقاذف محتوياته الحارقة على جسدها فألهبته وتسببت في تشويهها، ونظرًا لعدم رعايتها آنذاك تحول الأمر معها إلى كارثة ستظل تاركة أثرها ما حييت، ابتلع غصة عالقة في حلقه وهو يدنو منها، أحنى رأسه على كفها ليقبله قائلاً بندم:

-كان غصب عني يا «هانم»، أنا مش هاسامح نفسي أبدًا على اللي عملته فيكي.

انسابت عبراتها من طرفيها تأثرًا بتلك الواقعة، مسحت بأطراف أناملها دمعاتها وهي ترد بابتسامة منكسرة:

-ده مقدر ومكتوب!

وضع «أحمد» يده على وجنة أخته متعهدًا لها:

-إن شاء الله هاعوضك عن ده و....

قاطعته بنبرتها المختنقة وهي تحاول الحفاظ على تلك البسمة الباهتة:

-ماتشغلش بالك، المهم عندي تكون بخير!

انتبه كلاهما إلى صوت والدتهما الموبخ بحدةٍ:

-كنت فين يا ابن بطني؟

حرك «أحمد» عينيه نحوها فرأها تقف عند عتبة الغرفة ترمقه بنظراتها المحتدة، رد عليها بنبرة تعكس صدمته من وجودها:

-أماه!

ولجت إلى الداخل مسلطة نظراتها المشتعلة غضبًا من تصرفاته الهوجاء وهي تتابع بتعنيفٍ قاسٍ:

-فاكرني نايمة على وداني ومش هاعرف كنت غطسان فين؟

أسرع أخاه الأكبر بالدخول إلى الغرفة ليمنع حدوث مشادة بينهما قائلاً:

-يا أماه ده كان.....

قاطعته بنبرة متشنجة وهي تدير رأسها في اتجاهه:

-بقى دي وصيتي ليك يا «حسن»؟

رد باستسلام يائس مستخدمًا يده في الإشارة:

-هاعمل بس إيه في دماغه الحجر دي، أنا غلبت معاه!

أضافت «نعمت» بضيق بائن في نبرتها وهي تعاود التطلع لابنها الأصغر:

-أبوك لو صحى وعرف هيقلب الدنيا!

اقترب «أحمد» منها مُنحيًا على كفها ليقبله، اعتدل في وقفته قائلاً بتفاخرٍ:

-يامه ماتخافيش عليا، إنتي مخلفة راجل من صُلب راجل.

ردت عليه بعاطفة أمومية صادقة وقد تحولت نظراتها للدفء:

-بس أنا قلبي بياكلني عليك لما تغيب وتبعد عني.

-أنا معنتش العيل الصغير بتاع زمان.

-يحميك لشبابك يا ضنايا، ده.....

قطع استرسالها في الدعاء له صوت زوجها الهاتف بقوة:

-إنتي فين يا «نعمت»؟!

ارتجفت من نبرته التي رن صداها بين جدران المنزل، والتفتت برأسها للخلف لتستمع إلى صوت حشرجة صوته وهو يسعل بقوة، هتفت مرددة بارتباك طفيف:

-أيوه يا حاج «صبري».

اقترب من غرفة ابنه متسائلاً باستغراب وهو يجوب وجوه المتواجدين بها بنظراته المتفحصة:

-في إيه هنا؟

ردت «نعمت» بتلعثم شبه ملحوظ:

-ولا حاجة يا حاج «صبري»، ده أنا بصحي العيال عشان صلاة الفجر و....

أشار لها بيده لتبتلع باقي جملتها في جوفها ليقول بصيغة آمرة:

-طب تعالي ورايا.

ثم وجه حديثه إلى ابنه الأصغر متابعًا بنفس اللهجة:

-اعمل حسابك يا «أحمد» رايحين المجلس بعد العشاء.

زوى الأخير ما بين حاجبيه متسائلاً بفضولٍ:

-خير يا أبا؟

رد أباه بغموض أثار حفيظته أكثر:

-كل خير، هاتعرف هناك!

تنحنح «صبري» بخشونة واضحة، وهو يتحرك إلى خارج الغرفة، لم ينتظر «حسن» كثيرًا ليسأل والدته بلا تردد:

-إيه الموضوع يامه؟

بدت هي الأخرى حائرة مما قاله، تنهدت قائلة بإرهاق:

-أبوكم مقاليش حاجة، حاسبوا أما أروح أشوفه بدل ما يقلب عليا ويسمعني كلمتين في عضمي.

تعلقت أنظار «أحمد» بأثر والدته التي خرجت من الغرفة ليقول بعدها بعدم ارتياح:

-شكل الحكاية كبيرة!

ردت عليه «هانم» من زاوية فمها:

-يا خبر بفلوس بكرة يبقى ببلاش!

تثاءب «أحمد» قائلاً بنبرة ثقيلة:

-طب ألحق أخطفلي ساعتين قبل ما أروح الأرض.

وافقه «حسن» الرأي وتحرك هو الآخر نحو الفراش ليلقي بثقل جسده عليه،

فبعد ساعات قلائل سيتجه إلى الأرض الزراعية ليتابع ما بها من أعمال.

***

فرغ من صلاته فاعتدل في وقفته، ثم أمسك بمسبحته وجلس بأريحية على الأريكة الخشبية المجاورة للفراش مثنيًا ساقه أسفل جسده، تطلع إلى زوجته المنهمكة بطي الثياب الجافة التي جمعتها ابنتها لها ليعاود فتح مسألة زواج ابنه من ابنة عائلة «إبراهيم»، نظرت إليه «نعمت» بغموض وهي تسأله:

-وده ينفع يا حاج؟

أجابها مؤكدًا بجدية وهو يدير حبات مسبحته ببطءٍ:

-ايوه، في مصالح مع الحاج «إبراهيم»، وده هيضمن حقوقنا بزيادة.

اعترضت معللة رفضها للتعجل في تلك الزيجة:

-بس «أحمد» لسه صغير ورايح أبصر إيه كلية السياح دي، ما تكلمه عن «حسن».

تحولت نبرته للغلظة ونظراته للقوة وهو يقول:

- وماله، هو ده يمنع يعني؟ مش راجل وقادر يتجوز؟

ازدردت ريقها قائلة بابتسامة باهتة لتتجاوز غضبته الوشيكة:

-وسيد الرجالة كمان، بس...

قاطعها قائلاً بلهجة أشد:

-وبعدين»حسن» ماينفعش، ما إنتي عارفة صحته على أدها والمرض اللي هادد حيله، عيلة الحاج «إبراهيم» عاوزة واحد يملى عينهم.

-أنا أقصد إن ...

بترت عبارتها خوفًا من نظراته الصارمة نحوها، تابعت بارتباكٍ:

-يعني «أحمد» عاوز يكمل تعليمه، والجواز جايز يلبخه ومايخلهوش يعرف يركز، ابنك غاوي علام وناصح!

صمت للحظات ليفكر مليًا في تبريرها المقنع، أزاح ساقه من أسفله قائلاً بخشونة:

-خلاص نخليه يخطبها وبعد كده يتجوزوا، قرب ما يخلص.

ارتسمت ابتسامة ارتياح على ثغرها وهي ترد بامتنان:

-تعيشلنا دايمًا يا حاج «صبري»!

تنحنح بصوت مرتفع بعد أن سعل سعالاً حرجًا ليزيح تلك الحشرجة التي تغلف حنجرته، ثم أضاف بجديةٍ:

-عمومًا أنا فاتحت الحاج «إبراهيم» بيني وبينه، والراجل موافق، يعني ناقص بس نتقدملها ونعلن عن ده، وربك يقدم اللي فيه الخير..

اتجهت «نعمت» نحو ضلفة الخزانة لترص بداخلها ما انتهت من طيه وهي ترد:

-إن شاء الله يارب!

***

انطلقت أصوات الزغاريد عاليًا والمصحوبة بإطلاق بعض الأعيرة النارية من الأسلحة كتعبير عن فرحة الجميع بعد إعلان الخطبة رسميًا بين الابن الأصغر لعائلة «صبري»، وابنة الحاج «إبراهيم»، ورغم عدم اقتناع «أحمد» بتلك الزيجة غير المتكافئة من وجهة نظره إلا أنه لم يستطع الرفض، فطاعة والده

واجبة، خاصة أن للأمر علاقة بمصالح أخرى ستوطد الصلات وتعمق العلاقات بين العائلتين، رسم ابتسامة صغيرة على وجهه العابس ليخفي خلفها انزعاجه، تمنى في نفسه أن تكون العروس تماثله في الطباع والميول، لكن على عكس ما تمناه كانت «شريفة» فتاة صغيرة تجاوزت حاجز الرابعة عشر بقليل، إن جاز التعبير طفلة كبيرة، وبالتالي لم تصل إلى تطلعاته أبدًا، بدت بالنسبة له ساذجة، سطحية، صغيرة للغاية، ربما لا يكبرها في العمر كثيرًا لكن شخصيتها كانت مقروءة ككتاب مفتوح، وعلى مضض حاول أن يتجاوب مع تلك الخطبة على مدار سنوات دراسته آملاً أن يتقبلها في يوم ما، أحست «نعمت» بما يختلج صدر ابنها من قبول مشروط لذلك الارتباط، وتأكدت شكوكها مع كل محاولة منها للتقريب بينهما، كان ينزعج كثيرًا ويرفض الحديث عنها، دعت الله كثيرًا أن يتمم الأمر على خير، فهي على دراية بصفاته التي تميل للتمرد والخروج على المتبع من الأعراف والتقاليد، وقبوله بتلك الزيجة إرضاءً لوالده فقط.

وكان للقلب رأيًا آخر حينما قابل «أحمد» مصادفة في إحدى التدريبات العملية بالفندق اليونانية «هيلين» في عامه الدراسي الأخير، تلك التي فتنته منذ أول لحظة وقعت فيها عيناه على جمالها الرائع فسلبت لبه بعينيها الخضراء وحركت بدلالها غير المبتذل شيئًا بداخله لم يشعر به من قبل نحو أي أنثى، كانت الأخيرة بحاجة لمن يساعدها في تعلم اللغة العربية من أجل دراستها البحثية، فلم يضع تلك الفرصة الذهبية وعرض خدماته عليها، ومع الوقت توطدت صداقتهما وتربعت تدريجيًا على عرش قلبه، ليتحول الأمر بينهما إلى حب متبادل، بالطبع لم يتحمل «أحمد» أن يستمر في خطبة لن تقدم له إلا التعاسة والشقاء، أراد إنهاءها في أقرب وقت ليتمكن من الارتباط بمن تغلغلت في جوارحه وسكنت روحه، لكن قامت الدنيا ولم تعقد بمجرد إعلانه لهذا، صاح «صبري» منفعلاً وقد برزت عروقه المحقونة

غضبًا من عنقه:

-جاي دلوقتي تقولي مش عاوز أكمل الجوازة؟ ده خلاص فاضل كام شهر وتدخلوا، إنت عاوز تجرسنا في البلد وتهد اللي بنيته في سنين؟

تسلح بشجاعته مدافعًا عن حبه ليرد بهدوء رغم التشنج الطفيف البادي في نبرته:

-يابا، «شريفة» ماتنفعنيش، أنا مابحبهاش

هدر به والده بعصبية غير مبالٍ بمشاعره:

-وحد قالك حبها؟ دي مصالح يا «أحمد» وشغل وأراضي وتجارة، عاوز تسيب ده كله عشان مابتحبهاش؟!

أحنى رأسه على صدره قائلاً بامتعاض:

-مش هاعرف أكمل، غصب عني!

لم يتحمل أباه استخفافه بخطورة إنهاء الزيجة في ذلك الوقت الحرج، انقض عليه ممسكًا به بقبضتيه من ذراعيه، هزه بعنفٍ وهو يصرخ به وقد اتسعت حدقتاه غضبًا:

-قسمًا بالله لو عملت كده لا هاتكون ابني ولا أنا هاعرفك تاني، هاتتجوز بنت الحاج «إبراهيم» يعني هاتجوزها، وكلامي ده مافيش فيه رجوع!

نفض قبضتيه عنه بتمهلٍ حذر ليرد بإصرار أشد عندًا:

-مش هاقدر!

بلغ «صبري» ذورة غضبه بسبب استهانة ابنه الأصغر بتبعات ما سيحدث إن أصر على قراره الصادم، رفع ذراعه عاليًا ليهوى به على صدغه صافعًا إياه

بقوة عله يرتدع ويعود إلى صوابه، تحجرت العبرات في حدقتيٍ «أحمد» وهو يطالع والده بنظراته المحتدة، كظم غضبه في نفسه مفضلاً الذهاب الآن، أسرعت «هانم» التي كانت تتابع المشهد من على بعد تركض خلفه وهي تسأله بتلهفٍ:

-رايح فين يا «أحمد»؟

حاولت والدته اللحاق به وهي تتوسله:

-استنى يا ابني، اسمعني يا ضنايا!

كانت خطواته أسرع من كلتيهما فلم تتمكنا من الوصول إليه، صرخت «نعمت» في ابنها البكري تأمره بقلبٍ ملتاعٍ ونظراتها تحاول التعلق بوليدها المفطور حزنًا:

-إلحق أخوك يا «حسن»، ماتسبهوش يا ابني، لأحسن يعمل حاجة في نفسه

-حاضر يامه

قالها الأخير وهو يسرع في خطاه لتتبعه نظرات «نعمت» القلقة عليه، توقفت عن تحديقها في أثر ابنيها لتدير رأسها في اتجاه زوجها الذي كان يصرخ مهتاجًا:

-يادي الخراب المستعجل اللي هايحل على العيلة من ورا طيش الواد ده!

ابتلعت ريقها لتتمتم بخفوتٍ وهي تضم كفيها إلى صدرها:

-جيب العواقب سليمة يا رب

***

حدث ما كان يخشاه «صبري»، وتمسك ابنه الأصغر بقراره في إنهاء الزيجة

قبل أشهر معدودة من إتمامها غير مكترثٍ بتهديداته بالطرد والحرمان من كل شيء، لكن لا يقارن ذلك بالمصائب التي حلت على رأس عائلته جراء قراره المصيري، فقد كانت ردة فعل عائلة الحاج «إبراهيم» كارثية، حيث لجأ الأخير إلى المجلس العرفي للاقتصاص منه لما طال سمعة عائلته من أقاويل وشائعات مُغرضة لكونه قد غدر به، فقد مثل لهم قرار المجلس حينها بالعدالة الناجزة، ناهيك عن قيامه بإنهاء كافة المصالح والمعاملات التجارية بينهما، وكان الحكم آنذاك رادعًا؛ حيث ألزم المجلس عائلة «صبري» بدفع مبالغ مالية طائلة كنوعٍ من التعويض عن الضرر الذي لحق بتلك الشابة وعائلتها وكذلك لإخراسٍ الألسن عما يمكن أن يقال إفكًا في حقها، فانهارت الأعمال وحلت الكوارث على رأس رب العائلة، وما زاد الطين بلة هو هروب «أحمد» بدلاً من المواجهة ليحكم عليه بالإقصاء والطرد من القرية.

لم يتحمل «صبري» ما آل بعائلته من مصائب تحني الأظهر فخر صريع المرض لأسابيع قليلة عاجزًا عن فعل شيء قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة مفجوعًا ومتحسرًا على ضياع أغلب أملاكه وأيضًا ابنه، كذلك أصاب المرض «حسن» فبات قعيدًا للفراش، وقتها تخوف أهل القرية من المصاهرة مع عائلة «صبري»، واُعتبرت ضمنيًا مسألة الارتباط بأي فرد من عائلته كنوع من المعاداة لعائلة «إبراهيم» الذي أعلن ذلك صراحة، خشي الجميع من غضبته العارمة فنبذوا مضطرين عائلة «صبري» لتتحول حياتهم إلى شقاء وبؤس حتى مضت السنوات وخبت أحداث الماضي، لكن أنعش مجيء «نعمت» اليوم إلى المجلس عقولهم، فقد كان حضورها مصحوبًا باستعادة الذكريات خاصة حينما نطقت بقلبِ أم مفطور وعبراتها تتسابق في الانهمار على وجنتيها المجعدتين:

-»أحمد» ابني مات يا شيخ «رجب»!

***

الفصل الثاني

همهمات عالية ملأت ساحة المجلس اعتراضًا على قدومها إليه، لكن ضربة واحدة من عكاز الحاج «رجب» أسكنت الألسن في جُوفها، انتصب في جلسته يجوب بنظراته الصارمة أوجه المتذمرين، سعل بحشرجة واضحة وهو يحرك رأسه ببطء ليتأكد من التزام الجميع للصمت، توقفت حدقتاه عند وجه «نعمت» المنكسر، تفرس تعبيراتها متسائلاً بجمودٍ قاسٍ:

-وإنتي عرفتي منين؟ مش أخباره مقطوعة عندك أديلها زمن؟!

مسحت بطرف حجابها الأسود عبراتها الحزينة على فراقه، ثم أجابته بصوتها المنتحب:

-جالي تلافون من حاجة اسمها سفارة يقولولي إنه...

وجدت صعوبة في البوح بتلك الكلمة القاصمة للأظهر، ورغم ذلك تحملت لوعة قلبها على رحيله قائلة:

-ابني «أحمد» مات!

عبست تعابيره قائلاً بحزنٍ:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون

تابعت تتوسله باستعطاف شديد وبفؤاد مكلوم:

-أنا عارفة إنه غلط زمان، واتحكم عليه يطرد من هنا، بس هو خلاص بين إيدين اللي خلقه، نفسي بس يدفن جمب أبوه، مش عاوزة أكتر من كده

احتج أحدهم على طلبها البسيط صارخًا:

-ونسيتي يا «أم حسن» اللي عمله زمان في عيلة الحاج «إبراهيم»؟! ده لسه الـ .....

رفع «حافظ» يده مقاطعًا إياه بتحذيرٍ قبل أن تتسبب كلماته المحفزة في شحذ غضب المتواجدين تجاهها:

-محدش ينطق إلا لما الحاج «رجب» يقول كلمته

بينما أضاف العمدة مدعمًا إياه:

-مظبوط، هي مش سويقة هنا، الكل يلزم أدبه!

عاد الصمت يخيم من جديد على الأجواء ليقطعه الحاج «رجب» قائلاً بنبرة عقلانية بعد تفكيرٍ متأنٍ:

-مافيش بعد الموت كلام، إدفنيه هنا يا «أم حسن»

ورغم حسرتها على خسارتها التي لا تعوض إلا أن قراره الصارم أثلج صدرها الملتاع، ثم تابع بلهجة شديدة وهو يومئ برأسه:

-بس مالوش عزاء هيتاخد ولا صوان يتنصب، يدفن من سكات!

لم تجد بدًا من الاعتراض عليه، يكفيها أن يوارى جسده الثرى بالقرب منها لتعزيه وقتما تشاء داعية له بالرحمة، هب أحدهم قائمًا من جلسته ليصيح مهددًا:

-الكلام ده مش هايعجب الحاج «إبراهيم»

التفتت «نعمت» برأسها ناحيته صارخة ببكاءٍ وهي تلطم على صدغيها:

-يا ناس بأقولكم ابني مات، عاوزين بعد كده إيه؟ خلوا في قلبكم شوية

رحمة!

تحول المجلس في لحظة إلى حالة من الفوضى الكلامية، لم يستطع العمدة إخراسهم بمفرده، استلزمه مجهودًا زائدًا ممن معه لإجبار الجميع على الصمت، نهض الحاج «رجب» واقفًا من مكانه ليردد بقوة صارمة لا تخشى شيئًا:

-الحكم صدر! كله يرجع يشوف حاله، القعدة اتفضت

على إثر جملته الأخيرة تحرك الجميع والاعتراض يبدو واضحًا على أوجه أغلبهم، كان سبب ذلك مبررًا، فعائلة الحاج «إبراهيم» لا تزال ذات سطوة وقوة، ناهيك عن تحكمهم بزمام الأمور في قريتهم المتواضعة، ظلت «نعمت» باقية في مكانها تراقبهم وهو يرمقونها بنظراتهم المتنوعة، لكنها في الأخير حصلت على أبسط الحقوق كأم مكلومةٍ؛ الترحم على فلذة كبدها.

***

-ألا تعلم عائلته بوجودها؟

تساءلت موظفة القنصلية موجهة سؤالها للجدة «كاثرين» التي كانت تضم الصغيرة «دينا» في أحضانها، أخفضت عينيها لتتأمل وجهها البريء بنظرات حزينة، ففي طرفة عين فقدت الأب والأم لتبقى يتيمة لا يعيلها أحد إلا جدتها المريضة تلك، رفعت «كاثرين» رأسها لتطالع الموظفة وهي تقول بأسف:

-لا أعتقد ذلك!

نظرت لها مليًا قبل أن تضيف بروتينية معتادة في مثل تلك المواقف:

-إذًا سيتحتم عليكِ سيدة «كاثرين» أن تبلغيهم بوجودها إلا إن ...

صمتت لثانية لتتأكد من متابعتها لحديثها قبل أن تستأنفه بحذرٍ:

-كنتِ ترغبين في الحصول على وصاية الطفلة!

هزت «كاثرين» رأسها بالنفي وهي تقول بإعياء واضح في نبرتها:

-لا أستطيع، أنا امرأة مريضة ومسنة، ربما اليوم أنا معها، لكن غدًا لا أدري

ثم تنهدت مضيفة بخفوت وهي تشدد من ضمها لها:

-أريد فقط أن أطمئن عليها

ابتسمت الموظفة مجاملة لتقول بعدها برقةٍ:

-لا تقلقي سيدتي، سأحرص بنفسي على ذلك

عاودت «كاثرين» التحديق في حفيدتها الوحيدة، تلك الصغيرة التي حملت سمات والدتها الجسمانية من بشرة بيضاء وعينين خضراوتين وخصلات شعر ذهبية معقودة على شكل جديلة طويلة، لكنها لم تعرف بعد إن كانت ستحمل طباعها أم سيكون لوالدها الراحل الأثر الأكبر في شخصيتها، رمشت «دينا» بعينيها متسائلة ببراءةٍ وبلغة يونانية سليمة:

-ألن نذهب إلى أمي في السماء؟

ترقرقت العبرات في حدقتي «كاثرين» قائلة بحزنٍ:

-أوه، صغيرتي!

-أهي مع أبي؟ لقد اشتقت إليهما، لما لا نذهب الآن؟

وجدت صعوبة في تفسير الأمر لها فعقلها الصغير ربما لن يستوعب ذلك، أخرجت تنهيدة عميقة من صدرها مليئة بالأوجاع وهي تكبح عبراتها التي رفضت أن تنصاع لها.

***

كانت بحاجة لمن يتوجه معها إلى السفارة التابعة لدولة اليونان لتستلم الأوراق الخاصة بنقل الجثمان من هناك إلى موطن دفنه بعد أن تعذر عليها اصطحاب ابنها البكري «حسن» بسبب مرضه المزمن الذي أوهنه كثيرًا وقضى على زهرة شبابه قبل أن تنضج، شعرت «نعمت» بقليل من الارتياح لوجود «حافظ» معها، فتلك المسائل القانونية بحاجة إلى شخص على دراية ووعي، كانت المفاجأة الصادمة هناك وجود طفلة صغيرة تجلس بجوار إحدى المسنات، اقتربت موظفة ما من «نعمت» تسألها وهي توزع نظراتها بينها وبين «حافظ»:

-حضراتكم جايين للمرحوم «أحمد صبري»؟

أومأت «نعمت» برأسها قائلة بحسرة وهي تجفف بقايا عبراتها العالقة في أهدابها:

-أيوه، هو فين؟

ردت بهدوء متفهمة طبيعة ذلك الموقف الحزين:

-اطمني يا حاجة، احنا خلصنا كل حاجة، ناقص بس توقيعك على الأوراق واستلامك لبنته

فغرت «نعمت» شفتيها معبرة عن دهشة مصدومة اعترتها عقب سماعها لجملتها الأخيرة، زوت ما بين حاجبيها مرددة بذهول:

-بته؟ هو «أحمد» خلف؟

ردت عليها الموظفة باستغرابٍ:

-هو حضرتك متعرفيش؟

لم يختلف حال «حافظ» عنها كثيرًا، بدا هو الآخر مصدومًا مما عرفه، تلاحقت

دقات قلب «نعمت» المتلهف لقطعة من وليدها وهي تسألها:

-هي فين؟

استدارت الموظفة بجسدها قائلة بابتسامة باهتة وهي تشير بيدها نحو الطفلة الجالسة على المقعد وتهز ساقيها ببراءة:

-البنوتة اللي هناك دي!

تحركت عينا «نعمت» على الفور نحوها فربما في وجودها تعويضًا عن فقدانه، رغمًا عنها لم تستطع حبس عبراتها، بكت متأثرة وهي ترى تلك الطفلة الجميلة تبتسم لها ببراءة محببة للنفس، لطمت على صدرها بيدها محدثة نفسها:

-آه يا ابني، مُت وسبتلي ضناك!

ركز «حافظ» نظراته الغامضة على وجه الصغيرة مرددًا بين جنبات نفسه بامتعاض عابس لم يقم بإخفائه:

-يا وقعة سودة يا ولاد، إيه العمل السعادي؟ طلع مخلف بت!

حك مؤخرة رأسه متابعًا حديث نفسه الحائر:

-يا ترى رأي الشيخ «رجب» في الموضوع ده إيه؟ أومال لو عرف الحاج «إبراهيم» بده كمان، كده البلد ولعت من تاني!

***

حالة من الترقب كانت واضحة على أغلب أهل تلك القرية بعد انتشار خبر السماح لابن عائلة «صبري» المطرود بالعودة إلى مسقط رأسه والدفن بمقابر العائلة، لم يترك الحاج «إبراهيم» الأمر هكذا دون إعلان رفضه

الشديد للخروج عن العُرف المتبع في مجلسهم، كان على رأس المتواجدين بمحطة القطار ليمنع حدوث ذلك، ومن خلفه وقف ابنه «أمين» وحفيديه «شاهين» و «آمن»، تحفز «إبراهيم» في وقفته صائحًا بغلظة وهو يضرب بعكازه الأرضية:

-مابقاش الحاج «إبراهيم ذكي» لو خليت الحكاية دي تعدي كده من غير حساب، الظاهر عيلة «صبري» نسوا مين كبار البلد، ولا أني أقدر أعمل إيه

تحرك «أمين» خطوة للأمام ليقف بجواره والده، التفت برأسه نحوه مدعمًا إياه:

-احنا في ضهرك يا حاج، اللي تؤمر بيه هانعمله في التو!

صدحت صافرة القطار معلنة عن وصوله إلى المحطة، انتظروا ومن معهم بنفوس مشحونة غضبًا نزول ركابه، كانت المفاجأة هي خلوه من أي فرد من عائلة «صبري» وحتى «حافظ» الذي أرسله الحاج «رجب»، عبس وجه «إبراهيم» على الأخير وأظلمت نظراته الغاضبة، ضاقت عيناه صائحًا بلهجته الآمرة:

-شوفولي هما فين؟

امتلأ صدر الشاب الفتي – الذي لم يتجاوز عمره الثامنة عشر – بغضب منفعل تأثرًا بحالة جده المتعصبة، شحن قواه قائلاً بخشونة اتفقت مع تعابير وجهه الصارمة رغم حداثة عمره:

-حاضر يا جدي، ماتشيلش هم، أني هاجيبلك أرارهم، ولو حكمت هاجيبهم زاحفين عند رجليك!

التوى ثغر «إبراهيم» بابتسامة إعجاب بقسوة حفيده الذي كان يماثله في

طباعه الغليظة، بينما أضاف «أمين» مشيرًا بيده لابنه الأصغر:

-روح مع أخوك يا «آمن» ونفذ كلام جدك بالحرف!

تطلع الأخ الأصغر إلى والده بنظرات حادة تعكس عدم قبوله لذلك العنف المفرط والتسلط الجبري على الضعفاء، لكنه لم يستطع الرفض، فأوامر جده تعد كالحكم الواجب النفاذ، فرك طرف ذقنه قائلاً:

-ماشي يا أبا!

استدار ليحلق بأخيه بخطوات مهرولة متأكدًا من متابعة أنظار كلاً من والده وجده لهما، ناهيك عن أعين أهل القرية المحترقين شوقًا لمعرفة تطورات الموقف.

***

حدث ما رغبت فيه «نعمت» ودُفن ولدها في قبر العائلة إلى جوار والده دون وجود من يترحم عليه، فقط حفار القبور وبعض العجزة المشردين كانوا شهداءً على دفنه، ربما وجوده خفف من مُصابها قليلاً، فلو حدث العكس ورُفض طلبها لكانت الآن تبكي بالدماء حسرةً عليه، كذلك حمدت الله في نفسها أن «حافظ» كان معها ليذلل لها الكثير من العقبات، خاصة في وجود الطفلة التي اكتشفت أمرها مؤخرًا، عادت إلى منزلها ساحبة حفيدتها خلفها وهي تنوح رحيل ابنها وتمني نفسها بتعويض فقدانه بوجود تلك الطفلة، ستمنحها ما عجزت عن تقديمه لولدها.

يدعون كذبًا أن الصغار لا يدركون ما يحدث حولهم، لكن هذا خطأ شائع، فقد بدت «دينا» في حالة اندهاش مصدوم، ولما لا؟ فحالها تبدل بين عيشة وضحاها، هي تفهم القليل من اللغة العربية بسبب حديث والدها المتواصل معها بلغته الأم، لكن انتقالها لذلك المكان المختلف كليًا عما نشأت فيه

أصابها بحالة من الخوف والقلق، كل شيء متناقض مع طبيعة الحياة التي عاشتها، حتى الأجواء القروية لا تشبه ما رأته في بلدة والدتها الريفية، شعرت بالرهبة تعتريها، بخوفٍ كبير يسري في خلاياها، ففي لحظة كانت بين أحضان جدتها «كاثرين» تنعم بالدفء والحنان، والآن هي في كنف من لم تعهدهم مسبقًا، ولا تعرف طبيعة مشاعرهم نحوها، ركزت بصرها على صاحبة الصوت الحزين التي نهضت واقفة من على المقعد الخشبي فور أن رأت والدتها تلج لداخل المنزل، زوت ما بين حاجبيها وهي تصغي لها بإنصات حينما نطقت بنبرة شجية:

-خلاص يامه دفنتيه؟

أرخت «نعمت» قبضتها عن حفيدتها لتنكمش الأخيرة على نفسها وهي تراقب ردود فعل هؤلاء الغرباء، تنهدت بعدها قائلة:

-أيوه؟ راح الغالي وسابنا من غير ما يودعنا

لطمت «هانم» على صدرها وصدغيها مواصلة نواحها:

-الله يرحمك يا أخويا، كنت أحن واحد في الدنيا دي عليا، اتخطفت يا غالي قبل ما أملي عينيا منك

ضاعفت كلماتها التي ترثي رحيله مشاعر «نعمت» فانهارت هي الأخرى تبكيه صارخة:

-ليه بس يا ابني عاندت أبوك؟ كان زمانك في وسطنا ومعانا، يا حرقة قلبي على شبابك يا ضنايا، بدل ما تدفني دفنتك بإيدي

راقبتهما «دينا» بنظرات زائغة وهي ترتجف بتوتر من تعبيراتهما غير المفهومة بالنسبة لها، حركت «هانم» رأسها للجانب لتجد تلك الطفلة

الغريبة المحدقة بها، كفكفت عبراتها بظهر يدها متسائلة بصوتها المختنق:

-مين دي يامه؟

أجابتها «نعمت» بتأنٍ وكأنها قد تذكرت وجودها للتو:

-دي .. بت المرحوم

اتسعت حدقتي «هانم» في صدمة جلية وهي تقول بنبرة مهتزة غير مصدقة كلمتها المقتضبة التي تضمنت الكثير:

-»أحمد»

أومأت برأسها مؤكدة:

-ايوه، بت الغالي

شعرت «هانم» بانقباضة قوية في صدرها لمجرد معرفة تلك الحقيقة الصادمة، استغرقها الأمر عدة ثوانٍ لتستوعب واحدة من الحقائق التي تصيب تفكيرك بشلل مؤقت، ازدردت ريقها في حلقها الجاف، ثم تحركت بتثاقل نحوها دون أن تبعد عينيها المدهوشتين عن الوجه الملائكي لتلك الطفلة، ارتسم عفويًا على ثغرها الحزين ابتسامة رضا لرؤية قطعة حية من أخيها تتنفس أمامها، ترقرقت العبرات من جديد بكثافة تأثرًا بذلك، ارتعشت شفتاها وهي تسألها:

-إنتي بت أخويا؟ يعني أني أبقى عمتك؟

لم تنتظر رد الصغيرة عليها أسرعت بجذبها إلى أحضانها تعتصرها بحنان فائض وهي تكمل ببكاءٍ:

-ربنا رحيم بيا، هيعوضني بغيابه بيكي

شعرت «دينا» بقليل من الأمان في أحضانها رغم غرابة الموقف بالنسبة لها، لكن منحها اهتمامها الزائد إحساسًا بالطمأنينة، حملتها «هانم» بذراعها وهي تسألها مبتسمة:

-اسمك إيه؟

أطبقت «دينا» على شفتيها رافضة الحديث، فقط نظراتها عكست حالة الخوف الممزوجة بالاندهاش والتي بدت واضحة عليها، مسحت «هانم» بكف يدها على وجهها ثم صدرها قائلة بود:

-اللهم لك الحمد والشكر، ده عوض ربنا لينا، أني مش هاسيبك خالص يا بت أخويا

ثم التفتت برأسها نحو والدتها لتسألها بفضول لتقضي على بذرة الشك التي ساورتها للحظة:

-وعرفتوا منين يامه إنها بت المرحوم؟

أجابتها «نعمت» بإعياء:

-ده موال كبير يطول شرحه، مش وقته!

هزت رأسها بتفهم ثم عاودت النظر إلى ابنة أخيها مستأنفة حديثها الودود معها:

-أكيد إنتي جعانة، هاعملك كل اللي بتحبيه، بس قوليلي عاوزة تاكلي إيه؟

أجابتها تلك المرة «دينا» ببراءة وهي تعض على أناملها:

-مامي

شددت «هانم» من ضمتها لها قائلة بأسف:

-يا كبدي، الله يرحمهم، أني مش هابقى بس عمتك، أني أمك يا بت الغالي!

تهللت أساريرها فجأة لتكمل بسعادة حقيقية:

-تعالي أما أوريكي عمك «حسن»، ده أخو أبوكي، زيه بالظبط وأطيب بكتير

اعترضت والدتها صائحة بتجهم:

-سيبي «حسن» يرتاح، هو مش ناقص ....

قاطعتها «هانم» باستنكار وقد تحولت نظراتها للعتاب:

-يامه ده هايفرح أوي

ردت عليها «نعمت» باستياء:

-هو في فرح بعد ما الحزن عرف باب دارنا؟!

عبست تعابير وجه «هانم» مرددة بحدةٍ طفيفة:

-إن شاء الله هنفرح زي زمان، كفاية ربنا رزقنا ببت الغالي تتربى في وسطنا

ثم طبعت قبلات كثيرة على وجنة «دينا» قبل أن تنزلها على قدميها لتذهب بها إلى عمها المريض ليرى ابنة أخيه لأول مرة، تابعتهما «نعمت» بأنظار قلقة محدثة نفسها بتوجسٍ:

-يا خوفي تكون البت دي سبب المصايب زي ما عملت أمها في ابني زمان!

انتفضت في جلستها على صوت الدقات العنيفة التي كادت تخلع باب منزلها الخشبي، هوى قلبها في قدميها وهي تصغي إلى ذلك الصوت الذي تألفه جيدًا صارخًا من الخارج بتهديد مخيف:

-مش هايعدي اللي عملتوه بالساهل، مش أنا اللي يتكسر بكلامي الأرض

ارتجفت أطرافها وهي تتلقى تلك الكلمات المتوعدة من الحاج «إبراهيم»، بالطبع نما إلى مسامعه ما قرره المجلس العرفي وما فعلته هي بعد ذلك، والآن حانت لحظة المواجهة التي كانت تتوقعها لكنها لم تتخيل أنها ستأتي بتلك السرعة بعد سويعات معدودة من مواراة جثمان وليدها الثرى، تأكدت «هانم» من إبقاء الصغيرة مع أخيها الراقد بالداخل لتهرول نحو أمها تسألها بجزعٍ:

-في إيه يامه؟

ردت عليها الأخيرة بصرامة وهي تجاهد لإخفاء خوفها المتشعب بداخلها:

-خشي جوا

تساءلت «هانم» بذعر:

-هما مش ناويين يسوبنا في حالنا؟ ماكفهومش اللي عملوه فينا؟

ثم تعلقت بذراع والدتها تتوسلها:

-ماتفتحيش الباب يامه، دول ....

دفعتها «نعمت» بقسوة وهي تنهرها:

-محدش بيهرب من قدره، اداري جوا!

استجمعت شجاعتها متابعة سيرها نحو الباب، تنفست بعمق وهي تفتحه لتجد صاحب الوجه الصارم الذي يحمل شرًا يفتك بالأبدان الصحيحة واقفًا قبالتها ومتحفزًا لإحراق الأرض ومن عليها، رسمت تعابير منكسرة على وجهها متسائلة بحذرٍ:

-خير يا حاج «إبراهيم»؟

صاح بها بعنف بدا واضحًا في نظراته إليها:

-هو اللي زيكم يعرف الخير أبدًا

عبست تعابيرها ثم رفعت طرف حجابها لتكفكف به عبراتها قائلة بانكسار:

-ابني مات يا حاج، انسى اللي حصل منه زمان، هو راح عند اللي خلقه و....

قاطعها هادرًا بنبرة أجفلت بدنها:

-مش هايحصل، ولا عمري هانسى ولا هسامح، بتي غالية عندي وضافرها يساوي مليون من عينتكم، ومش هايكفيني دمكم كلكم!

صرخ «شاهين» من ورائه مهددًا بعدائية:

-إديني الأمر يا جدي وأني أخلصلك عليهم

في نفس التوقيت، بدت «دينا» خائفة للغاية وهي تصغي إلى تلك الصرخات المحتدمة بالخارج، لم يستطع عمها «حسن» تهدئة روعتها، فقد نهش المرض جسده فأصبحت حركته قليلة، بل تكاد تكون محدودة، وبخطوات متأنية خطت الصغيرة نحو الخارج لترى ما الذي يحدث، في تلك الأثناء جمدت «نعمت» أنظارها المرتاعة على حفيد الحاج «إبراهيم» الطائش، استشعرت الخطر من نبرته المهددة، خشيت كثيرًا مما يمكن أن يفعله في لحظة غضبته الهوجاء، رد عليه «أمين» بخشونة:

-وراك رجالة يابا، أؤمرنا بس وأصغر عيل في العيلة يـ ....

زاغت أبصارها فلم تصغِ إلى باقي تهديداته العدائية الموجهة نحو عائلتها البائسة، ظلت «هانم» من خلفها تلطم على صدغيها بخوف مرتعد وهي تدعو الله أن يمرر الأمر على خير، أشهر الحاج «إبراهيم» سلاحه الناري في وجه «نعمت» فتراجعت الأخيرة للخلف وهي تشهق بهلع كبير، ضمتها ابنتها

إليها تتوسله بعويل:

-نبوس إيدك يا حاج، احنا مالناش ذنب في حاجة

أنقذهما من تأزم الموقف وصول العمدة إلى المنزل والذي صاح عاليًا:

-حاج «إبراهيم»

التفت الأخير بتعبيراته الشرسة نحوه قائلاً بحنق:

-محدش يدخل في اللي هاعمله

أمسك بذراعه القابض على السلاح رافعًا إياه للأعلى ثم رد عليه معاتبًا عله يتراجع عن نيته المخيفة:

-مايصحش كده يا حاج، إنت عارف الأصول، دول ولايا، هي دي أخرتها نهجم على حريم؟

لم ينتبه الجميع إلى الصغيرة التي وقفت عند عتبة الغرفة شاخصة لأبصارها مع رؤيتها لفوهة السلاح، صرخت عفويًا وببراءة فلفتت الأنظار نحوها، تجمدت أعين المتواجدين عليها، بالطبع لم يعرف أيًا من عائلة «إبراهيم» بهويتها، خاصة وأن ملامحها الأوربية كانت مثيرة للفضول، وقبل أن يطرح أحدهم الأسئلة كانت «هانم» الأسرع في الركض نحوها لتضمها إلى صدرها مخبئة إياها من بطشهم الأهوج في أحضانها، تراجعت بها نحو الخلف دون أن تفلتها ومركزة عينيها المرتاعة على وجه الحاج «إبراهيم» هامسة:

-متخافيش!

تساءل العمدة باندهاش وهو يشير بيده الممسكة بعكازه نحوها:

-مين البت دي؟

تبادلت «نعمت» نظرات مرتبكة مع ابنتها قبل أن تدير رأسها في اتجاه الحاج «إبراهيم» – ذو الوجه المتشنج – لتقول بتلعثم وهي مترقبة لردة فعله المجهولة:

-دي .. بت ابني .. «أحمد»

***

الفصل الثالث

وكأن على رؤوسهم الطير فلم يتحركوا قيد أنملة لثوانٍ معدودة بسبب الصدمة التي اعترتهم من معرفة تلك الحقيقة المفاجئة، أفاق منها «إبراهيم» أولاً لتزداد تعابيره شراسة ونظراته عدائية نحو الطفلة التي لا ذنب لها سوى أن أبيها أحب أمها وتخلى عن ابنته في وقت حرج مسببًا لها التعاسة والحزن، قست نظرات حفيده «شاهين» نحوها بالرغم من عدم رؤيته لها بوضوح، لكن حمل قلبه الضغينة نحو كل من له صلة بعائلة «صبري»، فهو يعلم جيدًا أن عمته عانت الأمرين من جراء تلك الزيجة، اختبأت «دينا» في أحضان «هانم» فلم تنظر سوى بطرف عينها إلى أطياف الأوجه الغاضبة والمحدقة بها، صاح الحاج «رجب» الذي حضر على عجالة ليمسك بزمام الأمور قبل أن تخرج عن السيطرة قائلاً:

-استنى يا حاج «إبراهيم»، الكلام معايا مش مع الحريم

لحق به «حافظ» مضيفًا هو الآخر بصوته اللاهث:

-بينا على المجلس، أني جهزت الأعدة و...

قاطعه «إبراهيم» محتجًا بنبرته الغاضبة ومشيرًا بسلاحه الناري مهددًا:

-مافيش كلام يا شيخ «رجب»، إنت معملتش حساب ليا

توجس خيفة أن تسوء الأمور فاستعطفه بحنكة عقلانية:

-كله هيتحل بالهداوة، استهدى بس بالله واستعيذ من الشيطان الرجيم وأني هاشوف طلباتك

على الجانب الآخر، وبداخل غرفته، حاول «حسن» التحرك من على فراشه

ليدافع عن نساء عائلته أمام شراسة هؤلاء الرجال، بكى متأثرًا لعجزه، لكنه استجمع ما تبقى من قوته المستهلكة ليدفع جسده دفعًا نحو مقدمة الفراش حتى يتمكن من النهوض، لم يتحمل جسده المتيبس تلك الحركات العنيفة التي أنهكته على الفور فاختل توازنه وهو يحاول الوقوف على قدميه وطُرح أرضًا بعنف ليحدث ارتطامه صوتًا قويًا أفزع من بالخارج، صرخت «هانم» لا إراديًا وهي تدير رأسها للخلف:

-»حسن»

هرولت نحو غرفته ساحبه ابنة أخيها معها فوجدته يفترش الأرضية بجسده ويئن بحشرجة مخيفة، تخلت عنها لتجثو على ركبتيها أمامه وهي تبكي خائفة:

-رد عليا يا «حسن»

اتسعت حدقتاه بدرجة مفزعة وكأنه يرى شيئًا ما أمامه، وقفت «دينا» قبالته تطالعه بخوف، لم تفهم ما الذي أصابه لكنها ارتجفت من حركة جسده المتشنجة، وانزوت في جانب الغرفة ونظراتها المرتعدة لم تفارق وجهه المريب، انضمت «نعمت» إلى ابنتها لاطمة على صدرها ومستغيثة بمن ينجدها، فقد كان ابنها البكري ينازع الموت، كان «حافظ» أول المتواجدين بالغرفة فانحنى جاثيًا على ركبتيه ليتمكن من رفعه، لحق به العمدة والحاج «رجب» ليقوما بمساعدته، ولج بعدهم الحاج «إبراهيم» إلى داخل الغرفة ليتابع ما يحدث، ورغم حنقه نحو عائلة «صبري» إلا أن بدنه ارتعد من مهابة الموت، وقعت أنظاره القاسية على الصغيرة، لم يرغب أن تشاهد ما قد تؤول إليه الأمور، فصاح بصوته الخشن والآمر:

-»شاهين»، خد البت دي برا!

ارتعدت «دينا» من إشارته نحوها، وتضاعف خوفها من لمحها لذلك الشاب بملامحه المتجهمة ونظراته الشرسة مقبلاً عليها، عضت على أناملها خوفًا، وانكمشت أكثر على نفسها آملة أن تبتعد عنه، صرخت بفزع حينما قبض على ذراعها، لم تستطع مقاومة جره لها بعيدًا عن الجميع، كانت منساقة كالبهائم خلفه وقبضته تعتصر رسغها الضعيف، ثم إذ به يُلقي بها خارج الغرفة منفذًا بانصياع تام أوامر جده وغير مكترث لتبعات تلك الدفعة العنيفة، انكفأت «دينا» على وجهها وجُرحت ركبتها، بكت متألمة بنحيب خافت، شعرت بيدٍ حنون تربت على كتفها فرفعت وجهها الباكي نحو ذاك الذي كان يطالعها بأسف وهو يقول بخفوت:

-متزعليش، أخويا دايمًا غبي!

لم تفهم بالضبط ما يقصده لكن نظراته نحوها كانت مليئة بالإشفاق والعطف، مد «آمن» يده إليها ليعاونها على النهوض، ساعدها في نفض ثوبها مما علق به من غبار الطحين، ثم أمسك بها من كفها وسحبها برفق إلى خارج المنزل وبقي بمفرده إلى جوارها دون أن ينطق بكلمة محدقًا بشرود أمامه، ومع ذلك ظلت «دينا» تحملق مليًا في ملامح وجهه الهادئة، التفت ناحيتها مدعيًا الابتسام ثم أخرج من جيبه قطعة حلوى ناولها لها قائلاً بابتسامة باهتة لكنها مصطنعة:

-خدي دي

نظرت له ببلاهة فأمسك بكفها دون أن ينتظر ردها ثم وضعها في راحة يدها، لم تعرف بماذا تجيبه الصغيرة فاكتفت بالتوقف عن البكاء والتحديق فيه وهي تتناول الحلوى التي هونت عليها قليلاً ما مرت به.

***

انتهى اليوم بفاجعة أخرى جديدة حلت بعائلة «صبري» حيث توفي الابن الأكبر لهم بعد أن انقضى عمره ودُفن مساءً في نفس اليوم مع أخيه الذي سبقه إلى التراب، اضطر الحاج «إبراهيم» أن يتراجع مؤقتًا عن انتقامه من تلك العائلة بسبب مصابهم، أُقيم في الأرض الخلاء المجاورة لمنزلهم سرادقًا صغيرًا تلقت فيه «نعمت» العزاء في ابنيها من أهل القرية، كان الفضول حول هوية الطفلة هو الأمر السائد بين النساء الجالسات بالمنزل، أشبع رغبتهن في معرفتها عويل «هانم» المصحوب بالنواح:

-راحوا أهل الدار مع بعض وسابونا ولايا، يا ترى مين هايربي بتك من بعدك يا «أحمد»، هانعمل ايه من بعد ما فوتونا!

ردت عليها إحدى النساء تنهرها بعتابٍ مصطنع وهي تكفكف عبراتها:

-كفاية ياختي قطعتي في قلبي!

واصلت لطمها المفجوع على صدغيها وهي تكمل ببكاء حارق:

-مين بس هايحس بالنار اللي فينا، يا حسرة قلبنا على الشباب اللي راح

اتخذت «دينا» الصمت رفيقًا لها واكتفت بمراقبة تلك الأوجه العابسة المتطلعة إليها بنظراتٍ لم تفهمها والفضول مستعر بداخلها لتعرف بالضبط ما الذي تمر به ولماذا الجميع هكذا بين بكاء وصراخ، فقط اللون الأسود هو الغالب على الأجواء منذ أتت إلى هنا، انتهى العزاء بعد برهة لتقول «نعمت» لآخر امرأة قامت بذلك الواجب الحتمي وهي تودعها:

-لينا رب اسمه الكريم، ادعيلنا ياختي!

ردت عليها المرأة بنبرة مواسية:

-بأدعيلك والله من قلبي وربنا اللي عالم

-متشكرة

تنهدت بعدها بإرهاق وهي تغلق باب المنزل لتسير بخطواتٍ متعبة نحو الأريكة الخشبية ملقية بثقل جسدها المنهك عليه، أشارت بكفها لابنتها تأمرها:

-قومي اعملي لقمة للبت دي!

حدقت «هانم» بمقلتيها المنتفختين من البكاء المرير نحو «دينا» التي كانت تقاوم النعاس بوضوح، لطمت على صدرها معاتبة نفسها لغفلتها عنها:

-يا كبدي، ده أني نسيتك خالص

هبت واقفة من جلستها متجهة نحوها ثم طوقت كتفيها بذراعها وسحبتها معها إلى الداخل لتطعمها من الطعام الذي أحضرته نساء القرية، لم يتوقف عقل «نعمت» عن التفكير فيما ستؤول إليه الأمور بعد أن تهدأ الأوضاع قليلاً، فرجلٌ مثل «إبراهيم» لن يتوانى عن حقه وإن طال الزمان، ونواياه كانت واضحة للجميع، خشيت في قرارة نفسها أن يتحول الانتقام إلى حفيدتها الوحيدة، من تبقى لها من الأحباب، ازدردت ريقها محدثة نفسها بخوف:

-ربنا يستر والبت دي ماتتخدش في الرجلين

مطت فمها متابعة حديث نفسها الأمارة بالسوء:

-يا خوفي ليطلع قدمها زي أمها .. شؤم علينا!

***

-مش هاسكت عن حقي يا شيخ «رجب»

قالها الحاج «إبراهيم» بعصبية واضحة وهو يضرب بعكازه - ذو الرأس الفضية - الأرضية الصلبة في منزل الأخير معترضًا على تصرفه المتجاوز للأحكام

العرفية مع عائلة «صبري»، حاول الحاج «رجب» تهدئته وامتصاص انفعالاته قائلاً بهدوء عقلاني قبل أن تزداد ثورته ويواجه حالة من الفوضى خاصة في حضور أفراد عائلته:

-صاحب الحق خد حقه خلاص يا حاج «إبراهيم»

هدر به بقوة وقد قست تعبيراته الحادة:

-الكلام ده مايكلش معايا

تنفس «رجب» بعمق قبل أن يقول:

-ده المثل بيقول إكرام الميت دفنه و....

قاطعه الحاج «إبراهيم» صارخًا ومتعمدًا إهانته:

-وهو اللي عمله في بتي قليل؟ الظاهر إنك كبرت وخرفت!

رد عليه الأخير معاتبًا بقسوة:

-مايصحش الغلط ده، عيب لما يطلع منك إنت يا حاج «إبراهيم»، لأ وكمان في بيتي!

تدخل «أمين» سريعًا ليخفف من حدة الأمور بينهما قائلاً بارتباك طفيف:

-اعذر أبويا يا شيخ «رجب»، هو بس مضايق من اللي حاصل

ابتلع ريقه ثم تابع بجدية:

-لو سكتنا يبقى احنا كده بنجرأ أهل البلد علينا، وهنبص نلاقي كل واحد هنا بيعمل اللي عاوزه ومش هايفرق معاه حكم كبرات البلد

كان حديثه منطقيًا إلى حد ما، فالمشكلات لن تحل بالانفعال والتشدد، عليهم الوصول إلى حل ما يرضي جميع الأطراف وفي نفس الوقت يحفظ

هيبة عائلة «إبراهيم» ويصون كرامتها، حل الصمت على الحاضرين للحظات حتى قطعه العمدة قائلاً بحماس:

-طب أنا عندي اقتراح حلو

رد عليه الحاج «إبراهيم» معترضًا وهو يشير بكف يده:

-مش هاقبل بأي حاجة يا عمدة

لوح الأخير بيده قائلاً بغرور واثق:

-خد مني الكلام ولو معجبكش ارميه للمالح

لوى الحاج «إبراهيم» ثغره هاتفًا بامتعاض:

-هات اللي عندك!

مال العمدة بجسده للأمام نحو الحاج «إبراهيم»، ثم أخفض نبرته متعمدًا ليتأكد من حوزته على اهتمامه:

-إيه رأيك لو جوزنا بت المرحوم لواحد من أحفادك «شاهين» أو «آمن»؟!

عبست ملامحه وهو يسأله بارتياب:

-بت مين؟

رد بحذرٍ وهو يراقب ردة فعله:

-بت «أحمد صبري»

هب الحاج «إبراهيم» واقفًا من جلسته غير المريحة ليعنفه بصوته الغاضب:

-إنت اتجننت يا عمدة، إيه التخاريف دي؟!

وقف العمدة خلفه قائلاً بهدوء:

-اسمع بس للأخر

لوح له الحاج «إبراهيم» بذراعه مستنكرًا تفكيره في تلك المسألة:

-بلاش هبل، وأنا اللي مفكرك هاتقول حاجة عليها الطلة، أنا ماشي!

رد عليه مبررًا:

-يا حاج «إبراهيم» اهدى كده واعقل الموضوع في راسك، إنت هاتضرب عصفورين بحجر بالموضوع ده

لم يمنحه الفرصة للبوح بما يريد بل ترك المكان مطلقًا كلمات ساخطة ولاعنة لكل شيء، لحق به الحاج «رجب» ليهدئه وليضمن عدم تعرضه لهؤلاء النسوة، ظل ابنه «أمين» باقيًا ليعرف بالضبط ما الذي يقصده العمدة بحديثه المثير للريبة، فقد حثه فضوله على كشف ما يخبئه العمدة في جعبته، وضع يده على كتفه طالبًا منه:

-فهمني أنا الحكاية يا عمدة

التفت الأخير نحوه قائلاً بتريثٍ:

-دلوقتي الحاج «إبراهيم» لو فضل مصمم على العداوة مع الحريم الناس مش هاتسكت وهاتبقى عيبة في حقه، واللي اتخرس زمان جايز يعترض دلوقتي ويقف معاهم!

خرج «شاهين» عن صمته الجبري ليقول مهددًا بخشونة عدائية:

-طب حد بس يستجري يقول كلمة عن جدي وأني أجيب أجله

نظر له العمدة محذرًا:

-هي مش فتونة يا «شاهين»، احنا هنلم الموضوع

انزعج الفتى من كبحه لغضبه هكذا، فلو تركوا له الأمر لأحرق المنزل بمن فيه ليشبع تلك الرغبات الانتقامية في نفسه، تابع على مضض حديث العمدة إلى والده وتركزت حواسه معه عندما قال بمكرٍ:

-عاوزين تاخدوا بتاركم من حريم «صبري» كمان وماله، بس بالأصول، انهي العداوة قصاد الناس وخد حقك براحتك في الدرى

حك «أمين» مؤخرة عنقه قائلاً:

-مش فاهمك

رد موضحًا بنبرة أقرب للؤم:

-هما دلوقتي ولايا لوحدهم، مالهومش راجل يدير الباقي من ورثهم، إنتو بقى هتعرفوا تكوشوا عليه بمعرفتكم لو اتجوزت البت دي من واحد من ولادك!

سأله «أمين» مستفهمًا:

-واشمعنى البت دي بالذات؟ ماهو عمتها لسه ماتجوزتش

تقوس فمه بابتسامة مراوغة وهو يجيبه:

-الكل عارف إنها نُص مَرَة، مُسخة، مين اللي هايرضى بيها؟ ده غير إن الكل مقاطعهم من زمان، وبفرض حد طلبها هايكون من معرفتنا بردك، حد من رجالتك اللي مايعصلكش أمر خالص!

-أها

-والولية الكبيرة جايز تموت بحسرتها على ولادها، يتبقى بس البت الصغيرة ودي زي العجينة الطرية تشكلوها زي ما إنتو عاوزين إنت شاء الله تعملوها

خدامة عندكم وتبردوا نار الست «شريفة»، ومحدش هايمنع ابنك اللي هايتجوزها إنه يتجوز تاني، ما الشرع قايل مثنى وثلاث ورباع، ها إيه رأيك؟

تعمد الإشارة لـ «شريفة» ضمن حديثه ليضمن تحقيق غرضه من إثارة نزعة الثأر فيهم، بدت خطته الشيطانية مقنعة إلى حد ما لـ «شاهين» فقد كان محبًا لعمته كثيرًا ومولعًا بالانتقام القاسي من أعدائه، ناهيك عن ميوله الغرائزية الزائدة، لكن طرأ في عقله سؤال ما فقاله وكأنه يفكر بصوت مسموع:

-بس افرض الولية «نعمت» مرضتش، كده الليلة باظت و...

قاطعه العمدة مؤكدًا عن ثقة تفوق الخيال:

-هي تقدر! وبعدين ما الشيخ «رجب» موجود، هايقولها إن ده الحل المناسب عشان ننهي العداوة بين العيلتين، وهي ما هتصدق

حك «شاهين» طرف ذقنه مديرًا ما قاله في عقله، بينما ارتفع حاجب «أمين» للأعلى مبديًا إعجابه بخطته الماكرة، ربت على كتفه قائلاً بعبثٍ:

-يخربيت دماغك، بس هاتستفيد من ده إيه يا عمدة؟

أطرق رأسه قائلاً ببراءة مصطنعة:

-أنا بأعمل ده كله لوجه الله

لكزه «أمين» في ذراعه هامسًا له:

-عليا، قول يا عمدة، أني سمعك

اتسعت ابتسامته الصفراء متمتمًا بتنهيدة ارتياح:

-لو مكونتش بس تحلف!

تابع الحفيد الأصغر «آمن» ما يدور من صفقات مُريبة في صمت ودون أن يبدي أي تعليق، فقط عبر عن حاله نظراته الناقمة على ما يحدث من اتفاقات غير شرعية وتحديد مصائر اليتامى لأجل فرض سطوة العائلة على الجميع وخاصة الفقراء والمستضعفين، نهض من مكانه متعللاً برغبته في اللحاق بجده لكن من داخله كان رافضًا بشكل قطعي لمثل تلك الأمور.

***

وافق الحاج «إبراهيم» على ذلك العرض المشروط واضعًا مصالحه الخاصة نُصب عينيه لكن تبقى له مسألة هامة، ألا وهي مفاتحة ابنته «شريفة» في ذلك الأمر، بدا الأمر عويصًا في البداية، لكن لم يكن أمامه خيارًا بديلاً، وما إن أخبرها به حتى ثارت ثائرتها وخرجت عن شعورها رافضة بكل السبل قبول أي صلة بعائلة «صبري»، تنحنح قائلاً بخشونة رغم هدوء نبرته عله يقنعها:

-أنا مرضتش أعمل حاجة من غير ما أشورك

عبست ملامح «شريفة» القاسية بشدة، ثم ردت صائحة بانفعال مبرر:

-لأ يا أبا، مش بعد اللي عمله ابنهم فيا عاوزني أوافق أجيب بت الـ ..... تعيش وسطنا وتتساوى الروس

رد عليها موضحًا:

-لا عاش ولا كان، دي خدامتك يا بتي!

حاول أخاها «أمين» أن يلين رأسها المتيبس فأضاف بجدية:

-يا «شريفة» انسي، الموضوع فيه مصالح تانية لينا، احنا اللي هانطلع كسبانين منها

رد والده مؤكدًا بمكرٍ:

-وبعدين البت هتكون تحت رجليكي، ده احنا عاملين الليلة دي كلها عشانك!

لم يؤثر فيها حديثهما، فقد كان الحقد يملأ صدرها ناحية خطيبها السابق، لم تنسَ يومًا ما فعله بها، وتضاعف كرهها له مع مرور الوقت حتى بات الانتقام منه ثأرًا حتميًا، صاحت بتشنج وهي تشير بيدها:

-والله لو إدتوني حتى سكينة أدبحها، أني مش هانسى إن أبوها سابني عشان حتة واحدة مش من توبنا، خوجاية لا أصل ولا فصل، ودلوقتي تقولي بته تخطي برجلها هنا، ده القوالب نامت والأنصاص قامت!

استاء «أمين» من عنادها الذي لا يُجدي نفعًا ويتعارض مع مصالحه فهتف مستنكرًا:

-خلاص بقى يا «شريفة»، قولنالك هنجيبهالك تعملي مابدالك فيها ومحدش فينا هيراجعك حتى «شاهين» اللي هيتجوزها!

زجره الحاج «إبراهيم» قائلاً وهو يرمقه بنظرات حادة صارمة ليتوقف عن إثارة غضبها:

-سيب أختك تفكر يا «أمين» على مهلها وتعقلها، هي بس عشان مضايقة من اللي حصل!

كتفت ساعديها أمام صدرها هاتفة بإصرارٍ:

-مش هاغير رأيي

أشاح «أمين» بيده صائحًا بنفاذ صبر وقد بدت تعابيره مزعوجة على الأخير:

-يووه، مخها قفل مصوجر، أنا جبت أخري معاكي يا «شريفة»، الحجر لان وإنتي دماغك لأ، لا عاوزة تسمعي ولا حتى تفهمي!

ضرب الحاج «إبراهيم» بعكازه الأرضية ليكف ابنه عن الجدال معها، فإن ورثت «شريفة» العند فذلك منه، أشار بعينيه آمرًا:

-بينا نشوف مصالحنا وفضك من السيرة دي دلوقتي

امتعض وجهه قائلاً بفتور:

-ماشي يا حاج!

تركاها الاثنان تغلي في مكانها على موقد مشتعل، ظلت «شريفة» تجوب صالة المنزل الكبير ذهابًا وإيابًا وهي تغمغم بكلمات منفعلة تعبر عن سخطها وحنقها، ألا يكفيها أنها تزوجت بغير رضا فقط لتسكت ألسنة الجميع؟ راقبها «شاهين» بهدوء وهو يكمل تناول عود القصب الذي بحوزته ومختلسًا في بعض الأحيان النظرات نحو جسد الخادمة المحنية لتنظف الأرضية، تدارك نفسه قبل أن يُكشف أمره ثم بصق بقايا عود القصب على الأرضية مستفزًا الخادمة التي أنهكت قواها في تنظيفها قبل أن يقترب من عمته قائلاً بصوته الأجش:

-عمتي

انفجرت فيه صائحة بعصبية ومستخدمة يديها في الإشارة:

-شايف أبوك يا «شاهين»، محدش حاسس بالنار اللي جوايا، بالغل اللي بياكل فيا من العيلة دي، نسوا خلاص فضايح زمان!

حك مؤخرة عنقه قائلاً ببرود:

-والله أني عارف ده كله!

كورت قبضة يدها مكملة شكواها بانفعال وهي تكز على أسنانها بشراسةٍ:

-ياما كان نفسي أحرق قلب «أحمد» زي ما حرق قلبي زمان، أخنقه بإيدي دي وأشوفه مذلول راكع تحت رجلي، بس الموت خده مني

راقبها «شاهين» بهدوء حتى أخرجت ما تكنه في صدرها من مشاعر كره وحنق، وما إن سكنت قليلاً حتى بادر متسائلاً:

-مش إنتي بتحبيني يا عمتي؟

أجابته عفويًا رافعة حاجبها للأعلى:

-هي دي عاوزة سؤال، ده إنت أغلى من عيالي نفسهم

نظر لها بغموض وهو يكمل بنبرة أخفت الكثير من نوايا غير بريئة:

-يبقى اسمعي كلامي وشوفي ابن أخوكي هايعمل ايه وهيبرد نارك ازاي

أثار فضولها بطريقته التي استفزت خلايا عقلها لتسأله بلا تفكير:

-بتفكر في إيه يا ابن «أمين»؟!

***

لم يمضِ الكثير من الوقت على محاولة عائلة «صبري» الاعتياد على وجود تلك الصغيرة بينهم حتى طُرح موضوع المصاهرة من أجل المصالحة، تفاجأت «نعمت» بذلك العرض المريب من العمدة الذي تولى بنفسه مفاتحتها فيه ليتأكد من الحصول على موافقتها بعد مرور ما يزيد عن شهر منذ دفن ولديها، لم تجد بدًا من الاعتراض أو الرفض، بل إنها أبدت ترحيبًا ودودًا بذلك لتصدمه هو شخصيًا، انتظرت «هانم» انصرافه حتى أتت إلى والدتها تعاتبها:

-ليه يامه وافقتي؟

ردت باستياء وهي تضرب كفها بالآخر:

-عندك حل تاني؟

زمت شفتيها قائلة:

-لأ، بس اشمعنى هي يامه؟ دي لسه عيلة ماطلعتش من البيضة ولا تعرف تعمل حاجة

لوحت بيدها قائلة بجمود قاسٍ اكتسبته من قساوة الحياة:

-نصيبها كده، وبعدين احنا مش أد عيلة «إبراهيم»، عاوزاني أقول للعمدة لأ يقوموا يعادونا تاني، أنا مصدقت إن الغم إنزاح، كفاية اللي راح، هنخسر إيه تاني؟

شعرت «هانم» بالقهر والظلم نحوها فدافعت عنها مبررة:

-بس كده حرام، ذنبها إيه بت «أحمد» تترمى في النار معاهم، فكرك «شريفة» هاتسيبها، دي ماهتصدق تنتقم منها!

ردت «نعمت» بتنهيدة متعبة:

-ذنبها إن أبوها حطنا كلنا في المغرز ده من زمان

لطمت «هانم» على رأسها بكفيها وهي تتابع متحسرة:

-حرام علينا اللي هانعمله فيها يامه، دي أمانة بين إيدينا دلوقتي، آخر حاجة من ريحة المرحوم، والله ما هيسامحنا على اللي هنعمله فيها

رمقتها «نعمت» بنظرات مطولة تحمل الكثير لكنها استمرت على جمودها القاسي وهي تقول:

-بطلي تعددي، احنا مش هانعيشلها، النهاردة موجودين معاها، بس بكرة لأ، خلينا نأمن مستقبلها ونضمن اللي يحميها من بعدنا

-تفتكري هيعملوا كده؟

-ربك أعلم بالغيب، بس الحكاية دي عشان تحصل قدامها ولا 8 سنين، يعني يا عالم إيه اللي ممكن يحصل فيهم

-بس دول ....

قاطعتها بحدة طفيفة وقد عبست تعابيرها المرهقة:

-يا «هانم» أني خايفة عليها وجايز أكتر منك، وأديكي شايفة الزمن عمل فينا إيه، أني مش دايمة ليكي ولا ليها، ده الصالح للكل!

لفت «هانم» ذراعها حول كتفي والدتها، ثم انحنت عليها تقبل رأسها قائلة بنبرة شبه متأثرة:

-ربنا يديكي طولة العمر يامه، بس فكري في كلامي كويس

-ده آخر ما عندي، ومش هارجع في اتفاقنا!

نظرت «هانم» لها بإحباط، ثم نهضت من جوارها تاركة إياها تفكر مليًا في ذلك المستقبل الغامض الذي يخبئه القدر لحفيدتها، ربما ابنتها محقة في جزئية بعينها؛ عداوة «شريفة» لها، لكنها تخشى على الصغيرة من شراسة عائلة «إبراهيم» وقسوتهم اللامحدودة إن رحلت وتركتها تواجههم بمفردها، فكونها زوجة لأحد أحفاد العائلة سيمنحها على الأقل قدرًا من الحماية والأمان.

***

الفصل الرابع

عاد كل شيء إلى طبيعته في منزل عائلة «صبري»، وبدأت الزيارات الودية من الجيران إلى قاطنيه بعد انتشار أخبار المصالحة والمصاهرة، ورغم الصعوبة التي وجدتها «دينا» في البداية للتأقلم مع ذلك المجتمع القروي إلا أن عمتها ساعدتها كثيرًا لتتكيف مع طبيعة الحياة فيه، كذلك كان عسيرًا عليها التحدث بطلاقة وبطريقة مفهومة كمعظم من حولها، فدفع ذلك جدتها لإلحاقها – مؤقتًا – بكُتاب القرية مع الأطفال الصغار لتعديل ما أسمته باعوجاج لسانها خلال الفترة الصباحية، ومع الوقت بدأت تعتاد على الأجواء المحيطة بها، واندمجت بشكل ما في الروتين اليومي لحياة جدتها وعمتها بالرغم من تلك الملامح الأجنبية التي ظلت السمة المميزة لها عن الأخرين.

وذات يوم، وقبيل وقت العشاء، وبينما كانت «دينا» تلهو مع الصغار بجوار المنزل استدعتها عمتها مهللة بفرحٍ انعكس على تعابير وجهها أيضًا:

-تعالي يا «دينا» عاوزاكي توديلي الفطير ده عند خالتك «أم محمود»

ردت الصغيرة بصوت لاهث وهي تزيح خصلاتها المنشقة عن جديلتها والملتصقة بجبينها المتعرق للخلف:

-حاضر

كانت الأعراف المتبعة في الأعراس هناك أن يتشارك الجميع الفرحة بأشكالٍ مختلفة؛ مثل إعداد الطعام، تجهيز العروس، توضيب متعلقاتها في منزل الزوجية وغيرها من صور التعاون الودي، لهذا ساعدت «هانم» والدتها في تجهيز الفطائر الشهية والمعجنات الطازجة لتقديمها لوالدة العروس تعبيرًا

عن سعادتهما بتزويجها، تابعت عمتها مؤكدة:

-توديه وتيجي على طول، متتأخريش يا «دينا»!

تناولت الصغيرة المِشَنَّة الموضوع بها الفطائر بحذرٍ شديد، وانحنت عليها «هانم» تقبلها أعلى رأسها بودٍ مكملة تعليماتها:

-امشي طوالي جمب الطريق الزراعي وإنتي راجعة، وخلي بالك من نفسك!

ردت مبتسمة ببراءة محببة:

-ماشي!

ثم بدأت السير بخطوات بطيئة نسبيًا نحو منزل الجارة الذي بدا بالنسبة لها بعيدًا، أوصلت المطلوب إلى صاحبته وتلقت منها بعض الحلوى كنوع من الامتنان على تعبها، ثم أوصتها قائلة:

-ماتنسيش تبلغي سِتك وعمتك سلامي، وقوليلهم مردودة نهار فرتحهم بيكي يا حلوة

أومأت برأسها موافقة وهي تلوك تلك القطعة الشهية في فمها، ودعتها الجارة «أم محمود» لتستدير «دينا» عائدة من حيث أتت وهي تدندن بمرحٍ وغير مدركة لما ينتظرها من مفاجآت صادمة ستغير حياتها عند الطريق الزراعي.

***

لم يكن ليفوت أي فرصة تسنح له للتمتع مع الخادمات إشباعًا لغرائزه الجائعة دومًا، وخاصة مع الساذجات منهن ممن امتلكن جسدًا مغريًا ومقومات أنثوية لم يكتشفن بعد فوائدها في سلب عقول الرجال، كان يحبذ أن يختبر معهن رجولته المبكرة، وبحنكة اعتادها تمكن «شاهين» من اقتياد ضحيته

الجديدة إلى تلك المنطقة النائية بين عيدان القصب الطويلة التي تتوسط الطريق الزراعي موهمًا إياها بوعود الزواج والحب، كانت الخادمة ترتجف وهي تخبئ وجهها بطرف حجابها الداكن، تلفتت حولها مراقبة المكان رغم الظلام الذي يسوده ثم همست بذعر:

-أني خايفة يا سي «شاهين»

التفت ناحيتها يرمقها بنظرة صارمة معتبرًا الأمر فيه إهانة لشخصه واستهانة بسطوته وقوته، رد قائلاً بجدية:

-إنتي معاكي راجل ولا فكراني عيل طري!

ابتلعت ريقها خشية غضبته الوشيكة التي لاحت في الأفق، بررت خوفها هامسة بتلعثمٍ:

-مش القصد، بس لأحسن حد يشوفنا ولا ...

قاطعها مؤكدًا:

-يا بت متخافيش، محدش يعرف الحتة دي

ثم أخفض نظراته الماكرة متأملاً بجرأة جسدها المغطى بثوبها المشجر ومتخيلاً إياها بدونه، اقترب منها ليطوقها بذراعيه من خصرها فباتت محاصرة منه، لم تبدِ أي مقاومة، واستندت بكفيها على صدره لتتدلل عليه مؤججة ما يعتريه من رغبات جامحة، مال على رأسها هامسًا بعبثٍ:

-إيه الحلاوة دي يا بت!

ردت مبتسمة بخجل بعد أن تورد وجهها:

-يووه يا سي «شاهين»، هو أني أد المقام

اختطف قبلة سريعة من على شفتيها ثم شدد من ضمه لها ليقول بعدها بنبرة ذات مغزى:

-هو في بعد كده

أطلقت الخادمة ضحكة رقيعة ألهبت مشاعره المشتعلة مسبقًا، لم ينتظر أكثر من ذلك بل شرع في ممارسة ما يجيده دون إمهالها الفرصة لتتجاوب معه مستمتعًا بتلك التأوهات الصادرة منها وغير عابئ بما حوله، كان في عالم خاص به، يتلذذ بكل إحساس يشعره برجولته وقوته المفرطة، لم يشعر بالخطوات المقتربة منهما بسبب انهماكه في الحصول على مبتغاه، لكن كانت الخادمة أكثر وعيًا منه فجفل جسدها فجأة وتوقفت عن متابعة ذلك اللهو الماجن حينما التقطت أذنيها تلك الأصوات الخافتة، ارتعشت هامسة بهلع:

-في حد هنا يا سي «شاهين»

ارتفع عنها مدققًا النظر في الظلام وقد برقت عيناه بوميض مخيف، ثم رد بوجه مزعوج:

-مافيش يا بت، دي تهيؤات

عاود تقبيلها بشراهة لكنها لم تستطع مبادلته المشاعر الحسية، بل همست بخوفٍ:

-أني متأكدة إن في حد هنا

تجهمت تعابيره بالكامل من تنغيصها لتلك المتعة التي انتظرها، نظر لها شزرًا وهو يقول:

-عكرتي مزاجي يا فقر!

همست مؤكدة وهي تسحب ثوبها على جسدها المتعري لتغطيه:

-يا سي «شاهين» والله في حد هنا، يا لهوي يامه، أني هاتفضح و....

أشار لها بيده لتصمت فابتلعت باقي جملتها في جوفها، أصغى جيدًا لتلك الدندنة الخافتة متيقنًا تلك المرة من صحة شكوكها، اعتدل في وقفته مرتديًا على عجالة سرواله ثم اختطف جلبابه بيده وأكمل ارتدائه وهو يسير على أطراف أصابعه مقتربًا من مصدر الصوت تاركًا خلفه الخادمة تلعن حظها والفضائح التي ستنهش من سمعتها قبل عائلتها إن اكتشف أحد ما وجودها معه، كانت المفاجأة حينما أطل «شاهين» برأسه بين عيدان القصب ليجد تلك الصغيرة قبالته، صرخت «دينا» بفزع حينما رأت عينين محدقتين بها وسط الظلام، ركض «شاهين» ناحيتها مكممًا فمها قبل أن تفضح أمره بصراخها المتواصل.

استطاعت أن تعرفه من وجهه القاسي على الرغم من رؤيتها له لمرة واحدة، لكنها لم تنسَ نظراته القاسية الشرسة التي أرعبتها في تلك الليلة، لم تكن ملامحها أيضًا غريبة عليه، تلك التعابير الأجنبية بدت مألوفة له، هو بالفعل رأها مسبقًا في منزل عائلة «صبري»، نعم إنها الصغيرة التي سيتزوج بها عندما تبلغ، يا لمصادفات القدر العجيبة! استدار برأسه للخلف ليلمح الخادمة وهي تركض وسط عيدان القصب هاربة من المكان برمته، تنفس الصعداء لكونه قد أصبح في مأمن من أي تهديد أو فضيحة وشيكة، فكر سريعًا في طريقة تمكنه من التصرف في ذلك الموقف بل وقلب الأمور لصالحه بما يخدمه أولاً ويحقق الانتقام لعمته الغاضبة ثانيًا، أرخى يده عن فمها لكنه لم يبعد قبضته الأخرى عن كتفها فبقيت أسيرته، أراد أن يبدو مقنعًا إن رأه أحد ما مصادفة معها، رمقها بنظرة حادة وهو يسألها بخشونةٍ:

-بتعملي هنا إيه يا بت؟

سرى الخوف في كامل جسدها الهزيل من صوته المرعب، كما ترقرقت الدمعات في حدقتيها من إحساس الألم نتيجة ضغطته القوية على كتفها، أجابته بنبرة أقرب للبكاء:

-أنا .. كنت راجعة البيت و...

لم يمهلها الفرصة لإكمال ردها بل جذبها قسرًا ومجرجرًا إياها خلفه نحو منزلها وكأنها فعلت ما يشينها، اكتملت الخطة في رأسه، لما لا يسبب لها فضيحة تجعل عائلتها في موقف حرج؟ تقوس فمه بابتسامة شيطانية لكنه أخفاها سريعًا قبل أن يلاحظها أي أحد، وما إن اقترب من منزلها حتى هدر «شاهين» عاليًا متعمدًا لفت الأنظار نحوهما:

-يا «أم حسن»، تعالي شوفي جايب بتكم منين

بدأ العدد القليل من المارة في التوقف عن السير والتجمع بالقرب من المنزل ليتابعوا بفضول ما يدور، لم تفهم «دينا» سبب صراخه المريب، لكن إحساس الخوف الذي اعتراها كان كفيلاً بإيقاف دقات قلبها، خرجت «نعمت» من المنزل وعلى وجهها علامات الفزع جلية، تساءلت بتلعثم وهي مركزة نظرها على وجه حفيدتها:

-في إيه؟ مالها البت؟

استخدم قواه بالكامل ليدفعها بشراسة نحو جدتها فطُرحت «دينا» أرضًا عند قدميها، تألمت من قوة الدفعة وبكت متأثرة، هرولت عمتها نحوها تضمها إليها وهي تتساءل بعدم فهم:

-هي عملت إيه؟

أضافت «نعمت» متسائلة بخوف وهي تجاهد للبقاء ثابتة أمامه:

-في إيه يا ابني؟

أشار «شاهين» بسبابته نحو «دينا» يُجيبها بنبرته الخشنة:

-أني جبت البت دي من وسط الغيطان

رفعت «هانم» رأسها نحوه تسأله بعدم فهم:

-ودي فيها إيه؟ ما أني بعتها تودي ...

قاطعها بنبرة موحية بشيء يلبك الأبدان:

-مافيهاش حاجة لو كانت لوحدها

شهقت «نعمت» لمجرد التلميح بذلك، لكنه ضاعف من خوفها عندما صرح كاذبًا:

-بس أني شوفتها ماشية مع واحد وداخلين سوا وسط القصب، والله أعلم لو مكونتش لحقتها كان إيه اللي هايحصل!

لم تفهم «دينا» مقصده الذي تعذر عليها تفسيره، لكن شهقات عمتها وصراخها أشعرتها أنه ليس بالأمر المحمود، لطمت «نعمت» بعنف على صدرها مستنكرة ادعائه الباطل عليها:

-يا نصيبتي! إيه الكلام اللي بتقوله ده يا سي «شاهين»؟ ده افترى!

رد بقسوة وهو يشير بسبابته نحو «دينا»:

-لولا إني عاقل وعارف إنها هبلة كنت دبحتها هناك، ومالهاش دية عند عيلتنا

زادت «نعمت» من لطمها على صدغيها وصدرها ورأسها مرددة:

-يا خرابي ياني، أني بتي مالهاش لا في التور ولا في الطحين، ازاي هـــــ.....

قاطعها بشراسة وقد تركز بصره على «دينا»:

-بتكم عندكم، والكلام دلوقتي مع الحاج «إبراهيم ذكي» نفسه

خرجت من صدر «نعمت» شهقة أشد فزعًا عن ذي قبل، لم تتمالك نفسها بعد ما قاله، بل انقضت على حفيدتها تضرب بعنف ما تطاله يديها من جسدها الهزيل وهي تعنفها:

-عملتي إيه يا بت!

لم تفلح «هانم» في صد الضربات عنها، ولم تنجح في إقناع والدتها بالتوقف ريثما تفهمان حقيقة الأمر أولاً، كانت «نعمت» في حالة غضب أعمى، فكالت لحفيدتها من اللكمات واللطمات والصفعات ما جعل الصغيرة تصرخ مستغيثة بمن ينجدها من بطشها العنيف.

***

-إيه رأيك يا عمتي؟

تساءل «شاهين» بتلك الجملة مترقبًا ردة فعل عمته بحماسٍ انعكس بوضوح في نظراته نحوها بعد أن سرد لها ما فعله مع حفيدة عائلة «صبري»، أبدت «شريفة» إعجابًا شديدًا بتفكيره الجهنمي الذي أشبع القليل من نهمها للانتقام منهم، وضعت كلتا يديها على كتفيه قائلة بامتنانٍ كبير:

-إنت ابني اللي مخلفتهوش

اتسعت ابتسامته الشيطانية قائلاً بتفاخرٍ:

-شوفي عاوزة تعملي إيه تاني وأني معاكي

توهجت نظراتها بلمعان مخيف وهي ترد عليه:

-ده أني هاعمل وأسوي، وأجيب دماغهم الأرض كمان!

حرك رأسه بإيماءة قليلة مرددًا:

-وماله، المهم نارك تبرد

كركرت ضاحكة وهي تصفق بيديها متخيلة أوجه نساء العائلة وجميع أهل القرية لمجرد الاعتقاد بأن تلك الصغيرة اقترفت السوء، استدارت نحو «شاهين» تشكره:

-تعيش يا ابن أخويا، إنت اللي ناصفني في البيت ده!

لم يدرك كلاهما أن هناك من استمع مصادفة إلى حديثهما، احتقن وجه «آمن» بدمائه الثائرة محتجًا على افتراء أخيه الباطل على طفلة لا تفقه شيئًا لمجرد النيل من سمعة العائلة وإذلالهم، انتظر على أعصاب متلفة ابتعاد عمته ليذهب إلى أخيه ليعنفه قائلاً:

-إنت ازاي تعمل كده؟

رد ببرود وكأنه لم يرتكب جريمة نكراء:

-مالك ومال الحكاوي دي يا «آمن»، ركز في دراستك أحسن

واجهه الأخير مضيفًا بكلمات موحية:

-فكرك أنا مش فاهم إنت بتعمل إيه عند الغيطان؟

تفحص «شاهين» وجه أخيه قائلاً بسخرية وهو يغمز له:

-الله! ده إنت كبرت أهوو وبقى ليك في المسائل، قولي وأنا أخدمك

اشمئز «آمن» من تلميحه البذيء قائلاً:

-بلاش قرف

تجاهله «شاهين» مكملاً سيره فأسرع أخاه خلفه يستوقفه منفعلاً:

-رايح فين أنا مخلصتش كلام

حك «شاهين» طرف أنفه بإصبعه ثم فرك ذقنه متسائلاً بفتور:

-عاوز إيه تاني؟

أجابه محذرًا وهو مركز بصره الحاد عليه:

-لمصلحتك تروح عند عيلة «صبري» وتقول الحقيقة، أنا عارف إنك عملت الفيلم ده كله عشان تغطي على بلاويك

رد عليه متحديًا:

-ولو ماروحتش؟ هاتعمل إيه؟

أجابه دون ترددٍ:

-هاقول لأبوك ولجدي «إبراهيم»

لكزه «شاهين» في كتفه قائلاً باستخفاف:

-بجد؟ لأ خوفت الصراحة!

أطلق بعد جملته تلك ضحكة متهكمة مستفزًا إياه قبل أن يضيف بتباهٍ أصابه بالنفور:

-طب ما أروح أقولهم بنفسي يا أخويا، أني راجل ومافيش حاجة تعيبني، ولو غلطت إيه يعني، هايقولوا عني طايش وبكرة أتجوز وأعقل

استشاط غضبًا من استهانته بالأفعال المشينة التي يرتكبها، سأله بانفعال أكبر وقد احتقنت حدقتاه:

-وبنات الناس؟

تثاءب قائلاً بجمودٍ:

-أنا مغصبتش حُرمة على حاجة، كلهم بيجوا معايا برضاهم، وأني بأبسطهم وأشوف كيفهم

كان لديه المبرر لكل فعل طائش يقترفه مما جعله يستثار غضبًا من استهتاره، صاح بعصبية وكأنه قد كُلف بمهمة الدفاع عن تلك البريئة:

-والبت دي ذنبها إيه؟ عملتلك إيه عشان تفتري عليها؟

أجابه بشراسة أجفلته:

-عشان أبوها ظلم عمتك زمان لو كنت نسيت

ثم طوق عنقه بكفه مستأنفًا حديثه المخيف:

-وقتها إنت كنت صغير، فجايز ماتفتكرش حاجة، بس أنا فاكر كل اللي حصل كويس، ومش هانسى هيبتنا اللي ضاعت، ولا القهرة اللي كانت فيها عمتك «شريفة» وكسرة نفسها وهي عروسة!

أدرك «آمن» من كلماته التي تطوي شرًا مستطيرًا أن تلك الصغيرة ستتكبد معاناة لا نهاية لها إن شاءت الأقدار وتزوجت بالفعل من أخيه، أرخى «شاهين» يده عنه قائلاً بعبوس:

-روح يا «آمن» شوف مصلحتك بعيد عني، وبلاش إنت بالذات تنصحني!

عجز أخاه عن الرد عليه، بل شعر بالاختناق لمجرد التفكير في مصير تلك اليتيمة البائسة مع شخصية كأخيه، فقد كان واضحًا على الأخير نية مُبيَّتة للانتقام من عائلتها في شخصها تحديدًا وبلا ندم، نظر له «شاهين» باستهانة

ثم تركه في مكانه مدندنًا بصافرة مستفزة، تابعه «آمن» بيأس جلي ظهر في نظراته إليه، أدرك في تلك اللحظة أيضًا أنه غير قادرٍ على البوح بما سمعه حتى، سيبقى كغيره شاهدًا على ظلم بيّن ومتخذًا الصمت رفيقًا له، لعن تلك السلبية التي سيطرت عليه - وكذلك افتقاره إلى الشجاعة - فانصرف مستاءً من خذلانه أمام نفسه.

***

قضت ليلها وعظامها تئن صارخة من الألم الشديد بعد أن تلقت ضربًا عنيفًا لم تعتده أبدًا في حياتها، حتى عندما كانت تخطئ لم يكن والداها يعنفاها بتلك الطريقة القاسية، كذلك كانت جدتها «كاثرين» توجهها للصواب برقة ولطف، لكنها إلى الآن لم تفهم لماذا تعاقب بتلك الحدة والشراسة، غفت «دينا» من التعب ومن كثرة البكاء، رفضت جدتها إطعامها وأبت السماح لعمتها بالنوم معها كما عودتها ككل مساء، شعرت آنذاك بالمعنى الحقيقي للوحدة واليتم، خشيت «نعمت» من مجيء الصباح، فبالنسبة لها سيحمل المزيد من الفضائح والمصائب، بقيت طوال الليل مستيقظة، ومع شروق الشمس كان الخوف قد تملك منها، أنبئها حدسها أن كارثة وشيكة ستطرق باب بيتها في أي لحظة، ظلت شاردة أغلب الوقت مترقبة زيارة حتمية من الحاج «إبراهيم»، عاتبتها «هانم» على ظلمها لحفيدتها، لم تكترث بها، بقي تفكيرها منصبًا على أمر واحد، وظل لسانها يردده بلا توقفٍ:

-جابتلنا العار

صاحت فيها تسألها بصوتٍ مختنق بعد أن فاض بها الكيل:

-ليه كل ده يامه؟ هي أذنبت في إيه؟ دي بت الغالي، هنصدق عليها كلامه ده؟

لطمت «نعمت» على فخذيها مكملة ندبها المتحسر:

-على آخر الزمن هيتحط راسنا في الطين، يا ريتني كنت مت ولا عشت أشوف واحدة من عيلتنا بـ ....

قاطعتها بتوسلٍ:

-متكمليش يامه، «دينا» مش كده!

-قطم رقبتها على صدرها، أنا هادبحها بت الـ ..... !

كانت على وشك الرد عليها حينما دق باب المنزل فانقبض قلبها مع دقاته، التفتت «نعمت» برأسها كالملسوعة نحوه متمتمة بخوفٍ:

-القضا المستعجل جه، قومي شوفي مين!

تحركت «هانم» بخطوات متعثرة نحو الباب لتفتحه، اعترى وجهها دهشة مريبة حينما رأت «شريفة» أمام عتبته وبصحبتها عدد من النساء، لم تكن الأخيرة قد وطأت منزلهم منذ سنوات، بدت مصدومة وهي تطالع وجهها الذي اكتست تعابيره بنظرات مريبة، خرج صوتها مهتزًا وهي ترحب بها:

-»شريفة»، يا مرحب بيكي، اتفضلي!

صححت لها قائلة باستعلاءٍ:

-اسمي الست «شريفة» ولا نسيتي أني مين؟

ابتلعت «هانم» ريقها قائلة بحرج وهي تمرر أنظارها على أوجه من معها بالخلف:

-متأخذنيش يا شـ ... قصدي يا ست «شريفة»

بمجرد التلفظ باسمها تأكدت «نعمت» من مخاوفها، بأنها قد جاءت اليوم

لإنهاء الخطبة والمصالحة وكل شيء، عجزت قدماها عن حملها فترنحت في مشيتها نحوها، جابت «شريفة» المنزل بنظرات مشمئزة متأففة منه متعمدة إشعار من حولها بأن قاطنيه من الحقراء، وبكل ترفع وإباء أدارت رأسها نحو «نعمت» لتقول بنبرة جافة مليئة بالغموض:

-أني جاية النهاردة واسطة خير

نظرت لها «نعمت» ببلاهة حائرة وهي تسألها:

-واسطة؟

تحسست «هانم» قلبها المتلاحقة دقاته وهي تُتابع بنظراتها القلقة تعابير وجه «شريفة»، استأنفت الأخيرة حديثها موضحة:

-لو كان على ابن أخويا، فالجوازة بالنسباله انتهت بعد ما فضيحة بت الـ .. المرحوم بقت على كل لسان

امتعض وجه «نعمت» من تلميحاتها المسيئة، لكنها حافظت على هدوء أعصابها أمامها، فالتفوه بالحماقات والانفعال لن يؤتي بنتائج طيبة، ردت مجاملة:

-كتر خيرك يا ست «شريفة»، طول عمرك بنت أصول وصاحبة حق

تابعت «شريفة» مضيفة وهي تجلس على الأريكة واضعة ساقها فوق الأخرى:

-بس أني ميرضنيش الظلم

كانت «نعمت» كالغريق المتعلق بقشة ستنجيه من غرق محتوم، تأهبت حواسها لسماع ما أضافته لاحقًا:

-أني قولت في نفسي دي بردك بت صغيرة متعرفش حاجة، وجايز «شاهين»

فهم غلط، فأني بنفسي جاية أصلح اللي حصل، وأتأكد من ....

بترت عبارتها عمدًا لتثير الفضول في نفسها، وبالفعل نجحت في ذلك ببراعة، سألتها «نعمت» بتهلفٍ:

-من إيه يا ست «شريفة»؟

جمدت نظراتها القاسية على وجهها وهي تجيبها بابتسامة مراوغة:

-من الختم الرباني

شخصت أبصارها بذهول وهي ترد مصدومة:

-إيه؟

ألجمت المفاجأة لسان «هانم» وعقدته من هولها، التفتت ناظرة إلى والدتها بصدمة لا تقل عنها، في حين أكملت «شريفة» ببرود وكأن ما تطلبه أمرًا عاديًا:

-ومعايا الشهود، نسوان حبايبنا يطمنوا معايا ويتأكدوا من سمعة بتكم عشان نقدر نحط صوابعنا في عين أي حد يقول غير كده، بردك دي سمعة عيلة الحاج «إبراهيم ذكي»، وإنتي ميرضكيش حد يقول عننا كلمة!

إذًا هي تريد استباحة جسد الطفلة بحجة واهية لتشعرها بالمهانة والذل، لم تستطع «هانم» الصمت على ذلك فهتفت محتجة وقد هاجت الدماء في عروقها:

-بس ده افترى

هبت «شريفة» واقفة من جلستها ترمقها بنظرات دونية، ثم ردت بنبرة لا تعرف للنقاش مفهومًا وهي تتقدم في خطواتها نحو باب المنزل:

-ده اللي عندي، إلا إذا كنتم ممانعين وكلام ابن أخويا مظبوط والبت .....

قاطعتها «نعمت» بصرامة أجبرتها على التجمد في مكانها:

-معنديش مانع يا ست «شريفة»!

استدارت برأسها في اتجاهها فتقدمت الأخيرة نحوها بخطواتٍ ثابتة، نظرت بتحدٍ في عينيها الشرستين ثم أكملت بنبرة خلت من الحياة:

-اعملي اللي إنتي عاوزاه، احنا مش خايفين من حاجة، محدش مس شرف بت المرحوم!

***

الفصل الخامس

لم تتوقف عبراتها الدافئة عن الانهمار منذ أن تلقت تلك الضربات القاسية من جدتها، لكن تحجرت دمعاتها في مقلتيها الزرقاوتين عندما اقتحمت غرفتها تلك الغريبة عنها صاحبة الوجه الصارم –والمخيف- دون إنذار مسبق، انكمشت «دينا» في فراشها وهي مستمرة في تحديقها المرتعد منها، هي لم تعرف هويتها بعد، لكنها قرأت في نظراتها نحوها شيئًا مرعبًا، ارتاعت أكثر مع اقترابها منها وانتابتها قشعريرة قوية مع رؤية من أتوا بصحبتها وكأنهم مكلفين بمهمة بعينها، بحثت عمن يبث لها إحساس الأمان من عائلتها فلم تجد إلا البرود والجمود، بينما على الجانب الآخر سلطت «شريفة» عينيها الحانقتين على وجه الصغيرة تفترسها بنظراتها العدائية، همست لنفسها بنبرة مغلولة:

-بقى دي بتك يا «أحمد»، شبه المخفية أمها!

عبست تعابيرها أكثر وهي تكمل حديث نفسها الحانق:

-أيوه أمها اللي سبتني وجرستني وسط الخلق عشانها؟! أني بت الحسب والنسب!

زادت نظراتها إظلامًا وقد باتت على بُعد خطوة واحدة منها، رمقتها بنظرة حادة مخيفة مكملة لنفسها بوعيد:

-مش هارحمك يا بت الخواجاية!

ثم أشارت بصرامة بأصابع يدها للمرأتين اللاتين أتيتا بصحبتها للاقتراب

وتقييد حركة الصغيرة، صرخت «دينا» بفزع وتلوت في الفراش محاولة التحرر منهما، كانت مقاومتها معدومة مع قوة وشراسة كلتيهما، لم تفهم لماذا تنتزع إحداهما ثوبها عنها وتكشف عن جسدها المخفي، مدت يدها الضئيلة محاولة إبقاء ثيابها عليها لكنها فشلت وأُعيد تقييدها بقوة أكبر لتشعر بعجزها، ارتعشت مُواصلة صراخها المذعور من تلمس المرأة الأخرى للمناطق الخفية من جسدها مستبيحة ما ليس لها بجرأة خطيرة، بح صوتها من كثرة الصراخ اليائس ولا استجابة لمن حولها، انتبهت لصوت جدتها المتسائل بكلمات غامضة لم يستطع عقلها الصغير فهمها بعد أن فرغت المرأة مما تفعله بها:

-ها اطمنتي على الأمانة؟

استدارت «شريفة برأسها نصف استدارة لترمق «نعمت» بنظرة متعالية قبل أن ترد ببرودٍ:

-ايوه .. بس ...

تعمدت التوقف عن الحديث لتثير فضول الأخيرة التي سألتها بتلهفٍ قلق:

-بس إيه؟

دنت منها لتضيف بخبثٍ دون أن يرف لها جفن:

-عاوزين نِعفُوا البت!

فغرت «نعمت» شفتيها مشدوهة من عبارتها الصادمة، بينما سألتها «هانم» مستفهمة وهي تركض في اتجاه الفراش لتضم ابنة أخيها إلى صدرها:

-قصدك إيه؟

أجابتها «شريفة» بنفس الجمود القاسي:

-نطاهر البت، مش دي عوايدنا بردك ولا نسيتوا!

ابتلعت «نعمت» ريقها ونظرت إلى ابنتها بحيرة جلية، هزت «هانم» رأسها مستنكرة ذلك الشر الكامن في تلك المرأة، وشددت من ضمها إلى «دينا»، لم يكن أمام «نعمت» متسعًا للتفكير أو المماطلة، فردت حاسمة أمرها:

-وماله، وكله في مصلحة بت المرحوم!

وخزة عنيفة ضربت صدر «هانم» بعد قرارها الأخير، فالصغيرة لم تفق بعد من تلك التجربة المهينة لتخوض تجربة أخرى أكثر قسوة بحجة الشرف وصون العرض، أشفقت عليها كثيرًا، لكن لم يكن بيدها أي حيلة، فجل ما ستفعله هو أن تمهد لها الأمر وتكون إلى جوارها تهون المسألة عليها، كانت الصدمة الأشد حينما هتفت «شريفة» قائلة:

-دلوقتي هنعمل كده!

شهقت «هانم» في عدم تصديق وقد جحظت عيناها:

-دلوقتي؟ حرام كده، خلوها بعدين و....

قاطعتها «شريفة» بابتسامة شرسة:

-هي كلمة واحدة، دلوقتي هنطاهر البت!

ارتجفت «هانم» بخوفٍ مع إصرارها على تنفيذ ما عقدت العزم عليه، نظرت بهلع للصغيرة التي تحتضنها متسائلة في نفسها عن أي ذنب اقترفته لتعامل بذلك اللؤم الشرس مع امرأة جاحدة القلب خبيثة الطباع، أبعدتها «نعمت» عنها لتترك من جديد حفيدتها في قبضة من لا يرحم، ظلت نظرات الصغيرة تستغيث بها لتضاعف من تأنيب ضميرها، تركتها مضطرة، فهي لن تتحمل المشهد القادم، ما لم يغب عن عقل تلك الطفلة البائسة هو ذلك اللمعان

المنعكس على نصل المشرط الصغير الذي برز أمام عينيها الزرقاوتين، توهمت أنه وحشًا يبرز لها أنيابه فجفل جسدها وارتعدت فرائصها، أغمضت جفنيها بقوةٍ ثم صرخت قدر ما تستطيع، لكن بدا صوتها سيمفونية تطرب الآذان لـ «شريفة» التي تلذذت برؤيتها تعاني، قاومت «دينا» حتى الرمق الأخير، لكنها لم تكن المتحكمة في زمام أمرها، فتلك المرأة الغريبة أصرت على اقتحام عالمها الخاص وشرعت في إكمال ما أتت لأجله، انحبس صوتها مع إحساسها بألم مبرح يصيب أسفل جسدها لتظلم الدنيا كليًا بعدها، غابت عن الوعي من أثر الصدمة المهلكة التي لن تمحى من عقلها مهما مر الزمن عليها، أتمت المرأة مهمتها قائلة بتفاخر:

-خلاص يا ست «شريفة»، عروستنا تمام!

أومأت الأخيرة برأسها بإيماءة خفيفة كتعبير عن رضاها عما فعلت ثم عاودت الاقتراب من الفراش مجددًا لتميل بعدها على أذن «دينا» هامسة لها:

-إنتي لسه ماشوفتيش حاجة مني، أنا هاقطع من لحمك نسايل وأرميه لكلاب السكك يا بت الخواجاية!

***

استندت بمرفقها على ساقها المثنية تفكر مليًا والحزن يكسو تعابيرها المجعدة فيما يخبئه القدر لحفيدتها التي وقعت بين براثن عائلة «إبراهيم» رغم هدوء الأجواء حاليًا، ربما حاولت إصلاح سوء الفهم وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بالخضوع قسرًا لأوامر «شريفة» لكنها لا تزال تخشى تبعات المجهول، أخرجت «نعمت» زفيرًا ثقيلاً مهمومًا من صدرها وهي تنظر إلى ابنتها التي جلست إلى جوارها، كانت الأخيرة مستاءة للغاية من تصرف أمها المتسرع، خاصة أن نتائجه انعكست بالسلب على الصغيرة؛ فقد أصيبت بالحمى

وامتنعت عن الكلام وكأنها تعاقبهما لقسوتهما معها، تساءلت «نعمت» بخفوت:

-البت عاملة إيه؟

تنهدت «هانم» قائلة بامتعاض ملحوظ:

-السخونية نزلت شوية، بس لو فضلت كده هوديها لضاكتور الوحدة يشوفها، هي أديلها كام يوم على الحال ده، وأني بصراحة مش هاحط إيدي على خدي واستنى لما تضيع مننا، ماشي يامه؟

ردت عليها والدتها بنبرة تضم في طياتها الانكسار رغم جهدها لإخفائه:

-حطيلها بس كمادات المياه، وتقلي في لبسها وغطي صدرها بجرايد عشان تعرق فتطلع السخونية مع العرق وتخف شوية، ولو ده محصلش نبقى نشوفلها الضاكتور

أومأت «هانم» برأسها قائلة بتأكيد:

-ما أني عملت كده، بس قلبي حارقني عليها بعد الـ .....

فهمت أمها ما ترمي إليه فقاطعتها سريعًا بضيق:

-خلاص بقى، نصيبها كده، متزوديش همي يا «هانم»

رفعت الأخيرة كفيها للسماء مرددة بحرقةٍ:

-منك لله يا «شريفة» يا بت «فتحية»، ربنا يبتليكي باللي يعكنن عليكي ويمرر أيامك كلها!

زفرت «نعمت» مجددًا بصوت مسموع قبل أن ترد بتخوفٍ:

-يا ريتها بس تيجي على أد كده

وضعت «هانم» يدها على منتصف خصرها صائحة باستنكارٍ وقد ارتفع حاجبها للأعلى:

-ليه يعني؟ مكفهاش اللي عملته فيها، إيه عاوزاها تموت عشان ترتاح؟!

لكزتها «نعمت» في جانبها قائلة:

-قفلي على سيرتها بقى، كده كده كنا هنطاهر البت، يالا هانقول إيه غير ربنا يرحمنا برحمته

تمتمت ابنتها بكلمات خافتة مبهمة معبرة عن سخطها، فلو كان الأمر بيدها لما تركتها لها، لكنها اضطرت أن تنصاع لجبروتها، انتهبت من جديد إلى صوت والدتها القائل:

-بأقولك إيه ماتخدي البت معاكي حنة البت «عزة» لما تروق، أهي تلعب مع العيال هناك وتشوف وشوش تانية جايز ربنا يفك عقدتها

وكأن في اقتراحها البسيط السلوى لتلك الصغيرة المنتهكة براءتها، تهللت أسارير ابنتها قائلة بحماس:

-والله فكرة، أني هاعمل كده وقتها

حذرتها «نعمت» بلهجة شديدة وقد قست تعابيرها:

-بس خدي بالك منها، عينيكي عليها، مش ناقصين فضايح تاني ولا ....

ردت مقاطعة بحسمٍ:

-اللي حصل كان افترى، بس أني خلاص اتعلمت الدرس ومش هاسيب بت الغالي تغيب عني لثانية، وأهي توبة من دي النوبة!

رفعت «هانم» رأسها في اتجاه الباب حينما سمعت الدقات القوية عليه،

نهضت من مكانها متوجهة ناحيته لتجد عند عتبته أحد أتباع الحاج «إبراهيم» من ذوي الأجسام العريضة، سألته بجدية وقد انتابها القلق من حضوره:

-خير؟ في حاجة جدت؟

رد عليها الرجل بنبرته الخشنة:

-الحاج «إبراهيم» باعت قفص الحِوان (الطيور) ده

تأملت القفص الخشبي المليء بالطيور الحية والذي يحمله على كتفه باستغراب، طال تحديقها المدهوش حتى انتزعها منه صوته المتسائل:

-أحطه فين يا ست؟

تنحت «هانم» للجانب لتقول بحرجٍ قليل:

-اسنده في أي حتة

تساءلت «نعمت» من خلفها باهتمام:

-مين يا «هانم»؟

أجابتها قائلة وهي تضبط حجاب رأسها:

-ده واحد تبع الحاج «إبراهيم» بيقول باعتلنا قفص حِوان يامه

مصمصت والدتها شفتيها متسائلة باندهاش:

-وده بمناسبة إيه؟

تنحنح الرجل قائلاً بخشونة وهو يتجه إلى خارج المنزل:

-أي حاجة نقصاكم بلوغنا على طول، الحاج مكلفني أخد بالي منكم

ردت عليه «هانم» بابتسامة صغيرة:

-تُشكر يا ...

فرك الرجل مؤخرة عنقه قائلاً:

-محسوبكم «جاد»

ثم لوح بذراعه متابعًا:

-سلامو عليكم

ردت عليه:

-وعليكم السلام يا ريس «جاد»

أغلقت الباب خلفه لتعود إلى والدتها التي تفقدت قفص الطيور وابتسامة ساخرة تعلو ثغرها، ثم استطردت قائلة:

-ده الشعرة من جلد الخنزير مكسب!

ردت عليها أمها قائلة:

-حِوان وقبلها فاكهة وخضار، شكلهم رضوا عننا يا بت

انزعجت «هانم» من تعليقها الأخير فهتفت باستنكار:

-ماحناش محرومين من حاجة يامه، ده بس من كسفتهم بعد اللي عملوه مع بت الغالي

-خلاص، حكاية وراحت لحالها، فضينا منها!

-ماشي يامه

أشارت لها «نعمت» بيدها متابعة أوامرها:

-خدي القفص ده جوا بدل ما الرايح والجاي يتعتر فيه

حركت رأسها قائلة بامتثال وهي تنحني لتحمله:

-طيب

***

أطلقت إحدى النساء زغرودة عالية وهي تسكب المشروب في الأكواب المعدنية قبل أن تقوم بتوزيعهم على الحاضرات بمنزل قريبتها، فالكل مجتمع اليوم في حناء عروس القرية للقيام بالواجب المعتاد في تلك المواقف السارة، اقتربت إحداهن من الحشد المنشغل بالغناء والتصفيق وهي تتغنج بدلال متباهٍ بجسدها الممتلئ لتصيح عاليًا:

-الطباخ خلص الأكل، هنوزع على الرجالة الأول وبعد كده الحريم، محدش يمشي قبل ما ياكل، خير ربنا كتير ويكفي من الحبايب ألوف

ردت عليها إحداهن بحماسٍ:

-يدوم العز يا رب!

في تلك الأثناء ولجت «هانم» إلى داخل المنزل وهي تسحب خلفها ابنة أخيها التي لفتت الأنظار إليها في لحظات، تحاشت «دينا» التحديق في نظرات النساء التي كانت تتفحصها وكأنها كائن فضائي قد حط لتوه، ارتعد جسدها متوهمة أنها ستعاني من ذلك الألم الموجع من جديد مع هؤلاء الغرباء، خاصة صاحبة الوجه المخيف الصارم، تضاعفت رجفتها وتشبثت بثوب عمتها ملتصقة بها أكثر بطريقة مبالغ فيها، انحنت عليها «هانم» لتطمئنها هامسة بودٍ:

-متخافيش يا «دينا»، احنا في حنة حبيبتنا «عزة»، هتاكلي زفر وهتلعبي مع

العيال هنا

هزت رأسها رافضة دون أن تنبس بكلمة متمسكة بثوبها بقوة، رسمت عمتها ابتسامة ودودة على ثغرها قائلة:

-يا بت مش هاسيبك، إنتي هاتكوني قدام عيني!

أصرت «دينا» على رفضها العنيد وزادت من تعلقها بها، اعتدلت «هانم» في وقفتها متلفتة حولها بيأس، مازالت الصغيرة متأثرة بما حدث رغم مرور عدة أيام، لم تكن لتضغط عليها وتجبرها على فعل ما لا تريد، حافظت على نفس الابتسامة الهادئة المرسومة على وجهها، ثم مسحت على رأسها برفق وهي تقول:

-خلاص بلاش، خليكي أعدة معايا!

حاوطتها من كتفيها وهي تسير بها بين الجالسات منتقية إحدى الزوايا الخلفية لتجلس عند ذلك المكان الشاغر واضعة إياها على حجرها، ظلت تهدهدها برفق حتى بدأ النعاس يتسرب إلى الصغيرة وهي في أحضانها، شردت «هانم» تفكر في حديث طبيب الوحدة الذي لجأت له خلسة لتستفهم منه عن طبيعة حال ابنة أخيها، عاتبها الأخير لجهلها وتسرعها في فعل ذلك متجاهلة النتائج السلبية التي يمكن أن تؤثر بالسلب على نفسية الصغيرة، شعرت بتأنيب الضمير وبالذنب نحوها، تمنت في نفسها لو كانت قد أكملت تعليمها في الصغر، وقتها لاستطاعت أن تفرق بين الصالح والضار، أخفضت نظراتها لتتأمل وجه «دينا» الملائكي، والذي احتوى على سمات بسيطة من ملامح أخيها الراحل، تذكرت مواقفه معها ومزاحه الدائم ليهون عليها أحزانها، همست برجاءٍ كبير وهي تمسد على رأس الصغيرة:

-ربنا يجعل حظك أحسن مني

أفاقت من شرودها عندما مالت عليها إحدى نساء القرية تسألها بفضول:

-هي البت مالها مسهمة كده وكانة في نفسها؟

شحب لون وجهها قليلاً معتقدة أنها ربما قرأت ما تفكر فيه، استعادت ثباتها لتجيبها «هانم» بحزنٍ ملموس في صوتها:

-أصلها كانت بعافية شوية

مصمصت المرأة شفتيها قائلة بإشفاق:

-ربنا يشفيهالك يا حبيبتي

ثم أخفضت من نبرتها لتسألها بلؤم:

-ألا الكلام اللي داير في البلد عن المحروسة بصحيح؟

انزوى ما بين حاجبيها وهي تسألها بحذرٍ:

-كلام إيه؟

أجابتها مشيرة بعينيها:

-إنها كانت مع واحد ناحية الـ .....

فهمت «هانم» ما ترمي إليه دون الحاجة لقول المزيد فردت مقاطعة جملتها قبل أن تكملها بعصبية ملحوظة:

-قطع لسان أي حد يجيب سيرة بت أخويا بحرف!

رسمت المرأة بسمة سخيفة على ثغرها وهي تقول مجاملة:

-أنا قولت كده بردك، بت المرحوم «أحمد» طاهرة وشريفة، العيبة ماتطلعش منكم، ده إنتو تشرفوا أي حد

ردت عليها «هانم» بنفس النبرة المنفعلة:

-قفلي على السيرة دي أحسنلك

أومأت برأسها قائلة بخنوعٍ:

-حاضر ياختي، بس البت وشها بيقول إنها محسودة

زاد انعقاد ما بين حاجبيها مرددة:

-محسودة؟!

هزت المرأة رأسها مؤكدة بثقة:

-أيوه، ياختي بيقولك العين فلقت الحجر، والبت ماشاء الله عليها تقول للقمر قوم وأني أقعد مطرحك!

صمتت «هانم» تفكر للحظات فيما قالته فتابعت المرأة مضيفة بلؤمٍ:

-إنتي مش واخدة بالك ولا إيه؟ ده الحريم هنا عينيهم واسعة ومدورة، وجايز تكون واحدة منهم عاملة للبت عمل

لطمت على صدرها قائلة بفزعٍ:

-يا نصيبتي، هي ناقصة!

برقت أعين المرأة متابعة حديثها بنفس الثقة:

-بصي أني أعرف واحدة ليها في الحاجات دي

سألتها «هانم» باهتمام أكبر وهي تزيد من ضمها لابنة أخيها:

-حاجات إيه؟

أجابتها بتخوفٍ مصطنع:

-الأعمال والكلام ده اللهم احفظنا!

انتفض جسدها من مجرد ذكرها لذلك، شحب وجهها قليلاً وهي ترد:

-يا ساتر يا رب

وضعت المرأة يدها على فخذ «هانم» مستأنفة حديثها بلؤمٍ:

-بصي هانتكلم في ده بعدين لأحسن النساوين هنا تاخد بالها، ما إنتي أدرى محدش بيسيب حد في حاله

وافقتها الرأي قائلة بامتنان:

-وماله ياختي، ربنا يباركلك يا رب

-أني أحب أخدم، وإنتي غالية عندي

-تُشكري، ده العشم برضوه

أشاحت المرأة بوجهها لتصفق لتلك الفتاة التي تولت مهمة الرقص ثم أطلقت زغرودة مدعمة قبل أن تعاود ثرثرتها مع «هانم» لتقول:

-صحيح مادرتيش بمرات «سعيد» واللي عملته

نجحت في إثارة فضولها فقطبت جبينها متسائلة:

-مالها؟ مش هي اتطلقت منه وكل واحد راح لحاله؟

أجابتها بغموض مثير للريبة:

-أه، بس الظاهر الكلام اللي اتقال عنها صحيح

-إزاي؟

-كلام في سرك كانت ماشية على حل شعرها وملبسة العِمة لجوزها وعارفة

عليه واحد تاني

لطمت «هانم» من جديد على صدرها قائلة:

-يادي الفضيحة! طب وإنتي عرفتي منين؟ مش جايز ده كدب و....

قاطعتها مستنكرة التلميح باحتمالية عدم صدق أقاويلها:

-هو أني جايباه من عندي، ده كلام أهل البلد، هما ياختي شافوها كذا مرة رايحة جاية مع واحد غريب، ولما الكلام كتر عليها واحد من جماعة «راضي» قال إنه جاي يُطلبها

تحدثت «هانم» من زاوية فمها متسائلة:

-وهي لسه في العدة؟ يا خراشي!

ردت بتهكمٍ:

-أه ياختي، وحاجات تانية ربنا يستر على ولايانا منها

اكتفت «هانم» مما سمعته قائلة:

-ربنا يكفينا شر الحرام

أضافت المرأة باستنكار:

-أني من يوم ما عرفت إن «سعيد» اشتكاها والفار لعب في عيبي، أصله غلبان وطيب وفي حاله، والبت دي قادرة وجبروت، الله يبعد شرها عنا!

ردت عليها «هانم» محاولة إنهاء الحديث في تلك الجزئية التي تمس الأعراض:

-مالناش دعوة، ربنا يعوضه خير!

لم تكتفِ المرأة بذلك وكأنها تولت مهمة نشر أخبار العَوَام، فجعبتها مازالت

مليئة بعشرات الحكايات التي تخص أهل القرية ممن يصل إلى مسامعها شئونهم الخاصة، لكزت من جديد ذراع «هانم» قائلة بحماسٍ:

-بالحق، البت بت «أبو عبده» نجحت وهتخش ثانوي

أسعدها ذلك الخبر نوعًا ما فردت متسائلة:

-يا حلاوة، وأبوها رضى؟

أجابتها قائلة:

-أيوه، هيدخلها المدرسة الداخلي اللي في البر الشرقي

حازت عبارتها الأخيرة على اهتمامها فتابعت تساؤلاتها قائلة:

-ودي كويسة؟

ردت عليها:

-بيقولوا مصاريفها شيء وشويات، بس هو مش همه، دي الغالية بتاعته، وهو عاوزها تبقى ضاكتورة أد الدنيا

داعبت «هانم» صدرها بكف يدها هاتفة بنبرة متمنية وقد لمعت مقلتاها:

-يا ماشاء الله، عقبال ما أشوف بت المرحوم زيها

ردت عليها المرأة مؤكدة:

-يا رب ياختي، هي أقل منها!

واصلت المرأة مدحها في ذلك الصرح التعليمي لتضاعف من فضول «هانم» نحو تلك المسألة، وبالفعل انشغل بالها بالتفكير فيها جديًا، وتدريجيًا استحوذ الأمر على كامل اهتمامها، استرسلت معها في الحوار لتعرف المزيد

من التفاصيل عن طبيعة تلك المؤسسة فربما في ذلك استفادة خفية لابنة أخيها، خاصة أنها كانت تطمح في إبعادها – ولو مؤقتًا – عن ذلك الشر الكامن في أفراد عائلة «إبراهيم» والذين يتربصون للنيل منها، لكن بقيت هناك عقبة مهمة من المحتمل أن تحول دون إتمامها؛ والدتها، فالأخيرة ذات رأس متيبس لن تقتنع بسهولة، ومع ذلك ستتحايل عليها وستتكبد أي معاناة لتضمن التحاقها بها مذللة لها أي صعاب يمكن أن تواجهها.

***

-إنت متأكد يا عمدة؟

تساءل الحاج «إبراهيم» بتلك العبارة وهو ينظر بطرف عينه إلى الجالس بجواره في مضيفته بعد أن أبلغه بذلك الخبر الحصري عن احتمالية وقوع قطعة من أراضي عائلة «أبوزيد» ضمن الأراضي المخصصة لإقامة المباني السكنية مما سيضاعف من سعرها كثيرًا، رد عليه العمدة مؤكدًا بثقة تامة:

-أني جايب الخبر من حبايبي في مجلس المدينة

نفث «إبراهيم» دخان نارجيلته الذي أرهق رئتيه من كثرة التدخين قائلاً:

-أما لو كان الكلام ده بصحيح

رد عليه العمدة مضيفًا:

-ولاد «أبوزيد» مايقعوش إلا واقفين

فرك الأخير طرف ذقنه قائلاً:

-معاك حق، هيطلعوا بعكمة كبيرة من الحكاية دي لو عرفوا بيها

أخفض العمدة من نبرته مقترحًا بغموضٍ:

-طب ما إيه رأيك تخش معاهم شريك؟

رد عليه الأخير مستفهمًا:

-إزاي يا عمدة؟

أجابه ببساطة:

-بالنَسَب يا حاج، جوز حفيدك «شاهين» لبت «محمد» البكرية، والجواز هيسهلك المصالح كلها، الأرض والفلوس والعز..

تشنجت تعابيره قائلاً بحدة:

-هو أنا ناقص غنى يا عمدة، جواز إيه ده اللي اتكل عليه!

عند تلك العبارة انضم «آمن» إليهما متسائلاً بفضول وقد حازت كلمة «الزواج» على اهتمامه:

-جواز مين؟

أشار له جده بعينيه ليجلس بجواره آمرًا بخشونة:

-تعالى جاري يا «آمن»

انحنى حفيده أولاً برأسه على كتفه يقبله باحترام كبير قبل أن يجلس متسائلاً:

-خير يا جدي؟

أجابه «إبراهيم» بصوته المتحشرج من أثر التدخين:

-بنفكر نجوز أخوك «شاهين» من عيلة «أبوزيد»

عبست ملامح «آمن» نوعًا ما مغمغمًا بخفوت:

-أل يعني كان ناقص

سأله العمدة بحيرة بعد أن تعذر عليه فهم ما يقول بوضوح:

-عَلِي صوتك يا ابني عشان أسمعك، متأخذنيش سمعي على أدي

رد عليه بعدم مبالاة وهو يشيح بوجهه للجانب:

-اعملوا اللي إنتو عاوزينوه، أنا ماليش رأي

حدج الحاج «إبراهيم» حفيده بنظرة صارمة مستنكرًا ردة فعله الفاترة لكنه لم يعنفه أمام الغريب كي لا ينقص من قدره، تابع لدقائق حديثه مع العمدة حتى نهض الأخير من جلسته قائلاً بإرهاق:

-طيب أستأذن أني يا حاج، لسه ورايا مصالح أد كده في البلد!

رد عليه بجمود:

-ماشي يا عمدة!

لوح له الأخير بيده مضيفًا:

-سلامو عليكم!

-وعليكم السلام والرحمة!

راقبه الحاج «إبراهيم» حتى انصرف ليبدأ في معاتبة حفيده الذي تجاهله هاتفًا:

-بقى يا واد أني بأكبرك وبأشورك في أمر أخوك قدام العمدة تقوم تتصرف زي العيال

سحب «آمن» نفسًا عميقًا حبسه في صدره لثوانٍ قبل أن يحرره، بدت الكلمات خانقة بالنسبة له، فكيف يفسر لجده سبب ضيقه من أخيه، وأفعاله الطائشة التي يندى لها الجبين، حاول أن يستجمع جأشه ليوضح مقصده قائلاً

بنبرة مزعوجة:

-بص يا جدي، بصراحة أنا مش عاجبني تصرفات أخويا، بيتصرف من دماغه ومش عامل اعتبار لحد ولا فارق معاه إن كان بيغلط ولا لأ

رد عليه الحاج «إبراهيم» مبتسمًا:

-بكرة يعقل، أني في شبابي كنت زيه، ويمكن أكتر

ثم جمد أنظاره عليه مكملاً بتلميحٍ ما:

-يا ريتك إنت تتنحرر شوية

فغر «آمن» شفتيه مدهوشًا:

-أنا؟

تابع موضحًا:

-أيوه، أحوالك مش عجباني، دايمًا واخد جنب وساكت في نفسك زي الحريم، إنت راجل ياض مش مَرَة، اتعلم من أخوك وافرد ضهرك ماتبقاش متني!

حملت كلماته القاسية إهانة صريحة لشخصه واستهانة كبيرة بشخصيته المتناقضة مع أخيه، هو رافض لتصرفاته المتجاوزة، لكن ذلك لا يعني أنه لا يمتلك شخصية مستقلة ومختلفة، هز رأسه مستنكرًا انحصار تفكير جده ومحدوديته في أمور بعينها يراها من منظور ضيق، تلك التي يعدها سمات الرجولة والخشونة، كان مقتنعًا بدرجة كبيرة أنه لن يغير ما يفكر فيه مهما حاول أن يفعل العكس، لذلك رد بتهكم:

-ماشي يا جدي، هابقى أعمل زيه!

-أني مش عاوزك تزعل، بس استرجل شوية، إنت دماغك حلوة وجايز أذكى

من أخوك، بس مش زيه في وقفته وسط الرجالة، إنت من عيلة «إبراهيم ذكي» أوعى تنسى ده!

نظر له «آمن» مليًا مكتفيًا بالاحتفاظ برفضه لنفسه، ثم استدار برأسه نحو صاحبة الصوت الأنثوي التي هتفت باستحياءٍ:

-حاج «إبراهيم»

رد عليها جده مبديًا استغرابه من مجيئها إلى مضيفته في هذا الوقت تحديدًا:

-»هانم»، خير؟ ناقصكوا حاجة؟ أمك كويسة والبت؟

-الحمدلله، كلنا في نعمة

-أومال في إيه؟

تركزت عينا «آمن» عليها معتدلاً أكثر في جلسته المسترخية ليتابع باهتمام سبب حضورها، فلم يغب عن باله لبعض الوقت ابنة أخيها التي عانت من مكيدة أخيه الشيطانية، شعر بتسارع دقات قلبه معتقدًا أنها أصيبت بالسوء خاصة عندما ردت بغموض مثير للريبة وهي تنظر بحذرٍ إليه:

-أني كنت عاوزاك في مسألة كده تخص بت أخويا

أشار لها الحاج «إبراهيم» بإصبعيه هاتفًا بصرامة آمرة:

-اتكلمي، مافيش حد غريب هنا

وزعت أنظارها المرتبكة بين الاثنين وهي تقول بتردد جلي:

-أني .. بأستسمحك إن .. كان ينفع .. يعني.. قصدي.. إنت ...

تضاعف الفضول بداخل «آمن» من طريقتها المربكة التي ضاعفت الخوف

فيه على تلك اليتيمة، في حين مل الحاج «إبراهيم» من تلعثمها ومضيعتها لوقته فهدر بها:

-اتكلمي دوغري يا ولية

جاهدت «هانم» لتحافظ على ثباتها أمامه، فمصير ابنة أخيها يعتمد على شجاعتها، إن خافت أو تراجعت فلن تحقق ما تصبو إليه، ازدردت ريقها قائلة بتوترٍ:

-أني كنت عاوزة أودي بت أخويا المدرسة اللي في البر الشرقي

قطب الحاج «إبراهيم» جبينه متسائلاً:

-أنهو مدرسة؟

أجابته بلا تردد:

-الداخلي اللي هناك، بتاعة البنات!

لم يعقب عليها للحظات مما أوهمها أنه ربما سيوافق على طلبها، تحمست قليلاً مادحة إياه:

-أني قولت قبل ما أعمل كده أخد الإذن منك الأول يا حاج، ما إنت كبيرنا دلوقتي والرأي رأيك والشورة شورتك، المدرسة كويسة، وبنات البلد بيروحوها، وأخرهم بت «أبو عبده»!

ظلت ملامحه جامدة دون أي تغيير فاعتقدت أنه ربما سيلين مع إصرارها، تنهدت مضيفة:

-وحرام البت تفضل كده من غير علام

رد عليها بسخط وقد بدت تعابيره صارمة للغاية:

-وهما اللي اتعلموا استفادوا إيه؟ وبعدين هي أخرتها الجواز، بناقص من موضوع العلام ده

أصيبت «هانم» بإحباط كبير وشعرت بالهزيمة تسيطر عليها، لم تصمد أمام صرامته غير القابلة للنقاش وهي التي كانت تتعهد لنفسها أنها ستفعل المستحيل لأجل الصغيرة، لكن مع أول رفض انسحبت واستسلمت لقراره، ردت بنبرة منكسرة وقد كسا الحزن ملامحها البائسة:

-ماشي يا حاج «إبراهيم»، اللي تشوفه

أحس «آمن» بالمشاعر الحزينة التي تخللتها، فهتف بلا وعيٍ:

-تسمحلي أقول رأيي يا جدي

رفع جده حاجبه للأعلى متعجبًا من تدخله المفاجئ في الأمر واهتمامه الغريب به، ومع ذلك منحه الفرصة قائلاً:

-قول يا «آمن»

للحظة شعر أنه طوق النجاة بالنسبة لها، وأن الفرصة قد جاءت إليه ليعوضها ولو بالقليل عما فعله أخيه بها، لذا عقد العزم على ألا يضيعها، سيحاول بشتى الطرق إقناع جده، بدت الحماسة واضحة عليه، حاول أن يضبط انفعالاته كي لا يثير شكوكه، أخرج زفيرًا طويلاً من صدره مرتبًا أفكاره في رأسه أولاً قبل أن يطلق العنان للسانه ليعبر عنه قائلاً:

-خليها تروح، هي لسه عيلة، مش هاتجوز أخويا دلوقتي، قدماها بتاع سبع تمن سنين لحد ما ده يحصل، والمدرسة دي كويسة للي زيها، ده غير إنك يا جدي حاطط ترتيبات تانية لـ «شاهين»، صح ولا أنا غلطان؟!

شعرت «هانم» ببريق الأمل يلوح في الأفق من جديد، فهتفت بامتنان:

-يكرمك ربنا يا ابن الأصول

توقف الحاج «إبراهيم» عن تدخين نارجيلته مصغيًا باهتمام لطريقة حفيده في الإقناع، أحس بالفخر لكونه قد خرج أخيرًا عن سكونه المخزي ليبوح برأيه ويدافع عنه، بل تعجب من امتلاكه لطلاقة اللسان، بدا وكأنه يراه للمرة الأولى، أراد أن يشعره بافتخاره به فانتصب في جلسته قائلاً:

-وأني مش هارد كلمتك يا «آمن»!

تهللت أسارير «هانم» وهي لا تصدق أنه وافق بالفعل على التحاق ابنة أخيها بالمدرسة، في حين راود «آمن» إحساسًا غريبًا بالسعادة والارتياح لكونه قد نجح في إبعاد «دينا» عن مكائد عمته وأخيه بطريقة غير مباشرة، جلس باسترخاء على المقعد شاعرًا بشيء ما يملأ كيانه بالسكينة بعد أن لازمه تأنيب الضمير لليالٍ طويلة أرقت مضطجعه.

***

الفصل السادس

ملأت الوعاء البلاستيكي بالماء الدافئ قبل أن تنزع ثياب ابنة أخيها عنها لتجبرها على الجلوس فيه، ثم شرعت في غسل جسدها بالصابون، ارتعشت الصغيرة من الماء المسكوب عليها فابتسمت لها عمتها بلطفٍ محبب، لم تكن تلك المرة الأولى التي تحممها فيها «هانم» بعد أن تتبول لا إراديًا على الفراش أثناء نومها، فمنذ إجراء عملية الختان لها قسرًا والصغيرة تنتفض فزعًا في نومها صارخة بهيسترية لتصبح تلك الحالة النفسية ملازمة لها، أحضرت لها المنشفة ولفت بها جسدها قائلة:

-يالا يا «دينا» يا حبيبتي، احنا خلصنا

نهضت الصغيرة من الوعاء وبدأت عمتها في تجفيفها ثم ألبستها ثيابًا أخرى لتصطحبها بعد ذلك إلى الفراش، دثرتها جيدًا ونامت إلى جوارها لتبث لها إحساس الأمان، تنهدت «هانم» مخرجة من صدرها زفيرًا مليئًا بالضيق، تمتمت هامسة مع نفسها:

-منك لله يا «شريفة»، إنتي السبب في اللي جرالها، البت كانت جاية وردة مفتحة وشها منور، اتطفت على إيدك، حسبي الله ونعم الوكيل فيكي

مسحت على شعرها برفق وأبعدت بعض الخصلات عن جبينها لتكمل حديث نفسها:

-بكرة هاخدك لضاكتورة الوحدة تشوفك، ده إنتي غالية عندي

أحنت رأسها عليها لتقبلها بعاطفة أمومية متخيلة في عقلها أنها لو كانت

قد تزوجت لأنجبت من يماثلها في العمر، تحسست «هانم» عفويًا صدرها المليء بالندبات التي قضت على أنوثتها، ترقرقت العبرات في حدقتيها تأثرًا بذلك، نعم حلم الزواج قد صار مستحيلاً بالنسبة لها، فمن سيرتضي بها – وهي مسخ مشوه – ليتزوجها؟ ضمت فتحتي قميصها معًا لتخفي تلك العلامات المخذية مغمضة جفنيها بقوةٍ وتاركة لدمعاتها المتحسرة العنان للانسياب على وجنتيها.

***

أخفت «هانم» عن والدتها زيارتها السرية لطبيبة الوحدة وادعت وجود نقص ببعض المواد الغذائية بالمنزل، كانت الصعوبة تكمن في إقناعها بأخذ «دينا» معها للسوق، فوافقت الأخيرة على مضض بذهابها معها كنوعٍ من الترويح عنها، لكن كان الغرض الرئيسي هو الاطمئنان عليها، قامت الطبيبة بفحص الصغيرة وداعبتها ببعض الكلمات الودودة لتشعرها بالارتياح، ثم استطردت حديثها قائلة بجدية:

-مافيش حاجة خطيرة، البنوتة زي الفل

حملت «هانم» ابنة أخيها وأجلستها على حجرها متسائلة:

-أومال مالها بس؟

دونت الطبيبة بعض الملحوظات في الورقة الموضوعة أمامها ثم أجابتها بنبرة رسمية:

-أكيد الموضوع نفسي، هي اتعرضت لحاجة ضايقتها مثلاً، أو حد زعلها ولا ضربها جامد

اضطربت «هانم» من جملتها الأخيرة، وبدا صوتها متلعثمًا وهي تقول:

-يعني .. كان في ..

تفهمت الطبيبة رغبتها في عدم الحديث فتابعت بهدوءٍ:

-عمومًا أنا مش هادخل في التفاصيل، بس هاديكي شوية نصايح تعمليها معاها وإن شاء الله تكون بفايدة

هتفت «هانم» بتلهفٍ:

-قولي يا ضاكتورة وأنا هانفذ على طول

-أهم حاجة مافيش عقاب ليها مهما حصل، الاستجابة هتاخد وقت، بس هتتعالج في النهاية لما تحس البنت بالثقة بنفسها وبالتشجيع من اللي حواليها

-ماشي

-كمان بلاش تشـرب مياه قبل ما تنام بساعتين، وخليها تدخل الحمام على طول قبل ما تنام ده هيفيدها

-حاضر

-لو في أي حاجة أنا معاكي

ردت عليها «هانم» بامتنان:

-كتر خيرك يا ضاكتورة، وربنا يجعل الشفا على إيديكي

ابتسمت لها الطبيبة قائلة بودٍ:

-إن شاء الله

ثم لوحت بيدها لـ «دينا» قائلة:

-سلام يا حلوة

ودعتها «هانم» شاكرة إياها من جديد ثم سارت بسعادة نحو السوق لتشتري ما يلزمها، لكن ما لم تضعه في الحسبان هو وجود المصدر الرئيسي لكل مشكلة نفسية ستمر بها «دينا».

***

التقت نظراتها البريئة مصادفة مع أكثر الوجوه عدائية لها، جفلت «دينا» وثقلت خطواتها مع اقتراب «شاهين» منها ومن عمتها، ابتلعت «هانم» ريقها متمنية في نفسها أن يمر اليوم على خير بدون أي احتكاك معه، فوجوده في الأرجاء ينذر دومًا بالمشاكل الوشيكة، ألقت عليه التحية قائلة بحذرٍ:

-سلامو عليكم، إزيك يا ابن الأصول؟

سلط «شاهين» أعينه القاسية على وجه «دينا» وهو يرد متسائلاً بصوته الخشن:

-رايحين فين؟

أجابته «هانم» بتلقائية:

-طالعين السوق نجيب كام حاجة ناقصة

تشبثت «دينا» أكثر بيد عمتها، لم تخفِ خوفها منه، كانت ترتجف بصورة ملحوظة، تحاشت النظر نحوه رغم بقاء حدقتيه مثبتة عليها، رد على عمتها بخشونة أكبر:

-ما تشوفوا عاوزين إيه ونبعت نجيبه، إنتو ملزمين مننا!

تصنعت «هانم» الابتسام وهي تقول:

-يدوم العز يا رب، طول عمركم ولاد كرم وأصحاب واجب

كان على وشك إضافة المزيد لكن قطع حوارهما صوت أحدهم الصادح عاليًا:

-»شاهين»! يا «شاهين»!

التفت الأخير برأسه نحو مصدر الصوت فوجد أحد رفاقه يركض في اتجاهه، توقف الأخير ليلتقط أنفاسه ثم تابع قائلاً بصوته اللاهث:

-الواد ابن «النشار» غلط فيك و....

مجرد ذكر اسم ذلك البغيض أمامه أصابه بالانفعال، قاطعه «شاهين» صائحًا بغلظة:

-قال إيه ابن الـ ..... ده!

وزع رفيقه أنظاره بين «هانم» وتلك الطفلة الممسكة بيدها هاتفًا بتردد:

-آآ.. يعني ... كان ..

استشعر «شاهين» سوء الحديث عنه فاستدار نحو «هانم» ليقول لها بجمود:

-شوفوا وراكوا إيه وزي ما قولتلك أي حاجة تنقصكم تطلبوها على طول!

ردت مجاملة وهي تستعد للتحرك:

-تسلم يا سي «شاهين»

ثم أسرعت في خطواتها ساحبة «دينا» خلفها والتي اختلست نظرات أخيرة نحوه ليترسخ بداخلها إحساسًا قويًا بالنفور منه، تابع «شاهين» متسائلاً بوجوم:

-قولي في إيه؟ الواد ماله؟

أجابه رفيق بضيق كبير:

-هاقولك، بس لازم يتربى

رد عليه «شاهين» بشراسة منقطعة النظير:

-ده أنا هاسففه التراب، بس انطق وقول ابن الكلب ده غلط فيا إزاي!

***

استشاط على الأخير بمجرد أن علم من رفيقه أن ذلك الفظ المدعو «راجح النشار» قد تجاوز في الحديث بالسوء عنه مع أهل القرية بالمقهى ناعتًا إياه بألفاظ نابية، ناهيك عن تشبيهه بالنساء في خوفهن، عبث ذلك الغبي دون أن يدري برجولة «شاهين» وأصبح على شفا حفرة من الهلاك، اندفع الأخير كالمغيب متجهًا نحو المقهى مستدعيًا البعض من رفاقه المقربين ليشكلوا معه فريقًا قويًا في ذلك الشجار الحتمي، ألقى «شاهين» نظرة شمولية على الجالسين به باحثًا عن هدفه، لم يجد صعوبة في رؤيته بجسده الضخم المترهل وسماجته الباردة، اتجه نحوه ليبرز أمامه متسائلاً بغلظة:

-بلغني إنك غلطت في حقي يا ابن «النشار»

نظر له «راجح» من طرف عينه باستخفاف، ثم نفث دخان نارجيلته في وجهه قائلاً ببرود ومتعمدًا استفزازه:

-يالا ياض من هنا

احتقن وجه «شاهين» بشدة وبرزت عروقه النابضة بدمائه الفائرة بوضوح من رده الذي أثار أعصابه وحفزه على الأخير، ردد مستنكرًا وقاحته الجريئة:

-إنت بتقولي أني ياض؟

زادت تعبيرات «راجح» تجهمًا ثم رمقه بنظرة احتقارية قبل أن يرد بعدم مبالاة وكأنه نكرة:

-أيوه، ولو مش عاجبك يا ابن «هنية» نقي أوسخ كرسي واخبط دماغك فيه!

عند تلك النقطة تحديدًا بلغ «شاهين» ذروة غضبه، فقد تجرأ عليه وتطاول بالسب والإهانة علنًا دون وضع أي اعتبارات عائلية وحرمات لا يجب أن تنتهك، وهو بالطبع لن يقبل بذلك دون أن يرد على تجاوزه المسيء بالرد القاسي العنيف، ركل «شاهين» بكل شراسة الطاولة الخشبية الدائرية الموضوعة أمام «راجح» ليتبعثر ما بها على الأرضية معلنًا بذلك بدء الشجار وهو يقول:

-كده إنت غلطت فيا وملكش دية عندي!

انقض عليه ممسكًا به من تلابيبه ثم جذبه إلى خارج المقهى ليبرحه ضربًا، في حين تولى باقي رفاقه مهمة تلقين من معه درسًا قاسيًا وتحول المقهى إلى ساحة قتال، تفاجأ «راجح» بهجوم «شاهين» العنيف عليه، لم يضع في حسبانه أن يكون فريسة مستساغة يدعسها بسهولة، اعتقد أن من معه سيفتكون به وبأتباعه، حاول أن يتصدى للكماته وركلاته المتلاحقة لكنه فشل بسبب ترهلات جسده وامتلائه بالشحم مما أعاقه عن المقاومة، كانت ضربات «شاهين» موجعة ومؤلمة، فلم يستطع «راجح» تحمل قسوتها، زحف على بطنه ليبتعد عنه، لكن لم يتركه الأخير إلا وكال له ما يستحق من أعنف اللكمات في وجهه حتى نزف خيوط الدماء من بين أسنانه ومن أنفه، شهد أغلب المتواجدين بالمقهى ما يحدث دون أن يجرؤ أحدهم على التدخل، فالمضاربة بين طرفين معروف عنهما بالتنافسية والبغض، جثا «شاهين» فوق «راجح» بعد أن أوسعه ضربًا هادرًا فيه بصوته الغاضب:

-مش سايبك النهاردة إلا لما تقول أني مَرَة قصاد الناس دي كلها!

ثم سدد لكمة أعنف في وجهه ليؤلمه أكثر، خشي «راجح» أن يهلك بين يديه فرد مستسلمًا:

-أني محقوقلك يا «شاهين»، هاموت في إيدك

خنقه بيده ضاغطًا بقوة على عروقه وهو يقول:

-مش هارحمك، قول أني مَرَة يا ابن الـ ..... !

تحشرج صوت «راجح» وانحبست أنفاسه في جوفه متوسلاً من حوله أن ينجدوه:

-هاموت، الحقوني يا خلق

كز «شاهين» على أسنانه قائلاً:

-محدش هيعتقك مني

خارت قوى «راجح» واستصعب التنفس بسهولة، استعطفه برجاء كبير:

-خلاص يا «شاهين»، أني غلطت، حقك عليا، ارحمني بقى!

رد عليه بإصرار شرس مسددًا لكمة أعنف في وجهه ومتعمدًا إهانته علنًا:

-ملكش دية عندي يا مَرَة

-هاموت

هتف «راجح» بتلك الكلمة بصعوبة وهو يقاتل للبقاء على قيد الحياة، لمح «آمن» ما يحدث من على بعد فهرول راكضًا نحو أخيه ليمنعه من التمادي في الأمر، ورغم الفارق الجسدي بينهما إلا أنه تمكن من إبعاده عنه ليتمكن

«راجح» من التقاط أنفاسه، صاح «شاهين» فيه بعصبية معنفًا إياه:

-بتتدخل ليه يا «آمن»؟ إنت ملكش دعوة باللي بأعمله

رد عليه بحنق ملوحًا بذراعيه في الهواء:

-يا عم الجدع هيموت في إيدك

هتف فيه بتشنجٍ وقد احتدت نظراته:

-اللي يغلط فيا مالوش دية عندي

-يعني أسيبه يموت في إيدك وتخش السجن

-السجن للرجالة الجدعان مش الهفأ!

قالها «شاهين» وهو يحدج «راجح» بنظرات دونية مهينة، تمالك الأخير نفسه زاحفًا للخلف ليتمكن من النهوض على قدميه، أخرج أنينًا موجوعًا وهو يكافح للحفاظ على اتزانه المفقود، صاح به «آمن» مشيرًا بيده:

-لم حالك يا ابن «النشار» وامشي من هنا دلوقتي!

كانت المعركة خاسرة بكل المقاييس بالنسبة لـ «راجح»، أراد الانتقام من خصمه ورد كرامته المهدورة لكنه لم يستطع، فالبلدة بأسرها شهدت على ذله وإهانته، تمتم مع نفسه بوعيد وهو يبتعد مجرجرًا أذيال الخيبة خلفه:

-ماشي يا «شاهين»، ليك يوم!

صفق «آمن» بيديه ليصرف الرجال المتراصين على الجانبين هاتفًا بنبرة عالية:

-خلاص يا رجالة، المولد اتفض، كل واحد يروح يشوف حاله

بدأ بعدها الحشد المتجمهر في الانصراف بينما ضرب عامل المقهى كفه بالآخر متحسرًا على تحطيم أغلب مقاعد مقهاه، فمن سيسدد تكاليف إصلاح ما تم إتلافه خلال تلك المضاربة؟ اقترب أحد أتباع «شاهين» يمدحه متباهيًا:

-تسلم إيدك يا «شاهين»، خليته مايسواش بصلة، وكان زمانك خلصت عليه لولا أخوك!

رد عليه بتفاخر وهو ينفض يديه:

-ده أني لسه هروقه على الهادي

نظر «آمن» لأخيه ورفاقه باستياء واضح على ملامحه، فقد كان نابذًا للعنف بكل صوره، على عكس «شاهين» الذي كان يتفنن في إظهار مواهبه القتالية في كل فرصة تسنح له بذلك، زفر قائلاً بامتعاض:

-أنا ماشي

رد عليه بتهكم ساخر:

-وماله، روح إلحق مذاكرتك!

رمقه «آمن» بنظرة مطولة مستنكرة سخريته منه، ومع ذلك لم يعقب عليه واكتفى بإلقاء السلام لينصرف من أمامه كاتمًا في صدره ما يعتريه من مشاعر حانقة لطريقته في التعامل معه باستهزاء أمام الأخرين.

***

أكملت تضفير جديلة ابنة أخيها الذهبية بعد مزجها بشريط الستان الأبيض ناظرة لها بإعجاب كبير، شعرت «هانم» بالفخر لكونها قد نجحت في جعل تلك الصغيرة تكمل تعليمها بدلاً من إضاعة الفرصة عليها، مسدت على رأسها

بحنوٍ ثم ضبطت لها زيها المدرسي، احتضنتها بحنان أمومي كبير قائلة:

-ما شاء الله يا «دينا» ربنا يحفظك من العين

وقفت «نعمت» عند باب الغرفة تطالع حفيدتها بنظرات دقيقة متأملة هيئتها، بدت تعبيراتها مبهمة إلى حد ما، اقتربت منها متسائلة:

-البت جهزت؟

التفتت «هانم» ناحيتها لتجيبها بابتسامة عريضة:

-أيوه يامه، أني لبستها وسرحتها وشنطتها كمان جاهزة

أومأت برأسها مرددة بتحذير شديد اللهجة:

-على بركة الله، ماتسبيهاش من إيدك لحد ما توصل مدرستها، مش ناقصين يحصل زي المرة اللي فاتت

ردت عليها ابنتها بنفس الابتسامة التي لم ينتقص من قدرها شيء:

-حاضر يامه

ثم وجهت حديثها للصغيرة مضيفة بحماس:

-عقبال يا رب ما وصلك بنفسي للكلية وتبقي ضاكتورة أد الدنيا!

ردت عليها «نعمت» بضيق ملحوظ:

-كفاية رغي ويالا عشان تلحقوا وقتكم، الموقف زمانته زحمة ومليان خلق!

-ماشي يامه

قالتها «هانم» وهي تحني جسدها للأمام لتحمل حقيبة السفر الخاصة بـ «دينا»، فهي ستقيم طوال الأسبوع الدراسي في المدرسة الداخلية وستعود

إلى منزل العائلة في العطلات الأسبوعية والرسمية، ودعتها جدتها مؤكدة عليها ضرورة الحفاظ على نفسها وعدم الانخراط في الحديث مع الغرباء، لم تفهم الصغيرة معظم توصياتها لكنها كانت سعيدة للغاية لكونها ستلتحق بالمدرسة وتكون صداقات جديدة مع أقرانها، فذلك الشيء قد افتقدته كثيرًا منذ انتقالها للعيش هنا.

***

بالرغم من كونها قد اعتادت على السير فيه إلا أنها لا تزال تهاب الطريق الزراعي لما حمله من ذكرى مؤلمة سببت لها الكثير من الأوجاع، كانت «دينا» تسير عليه بحذرٍ إلى جوار عمتها، وجدت صعوبة في إخفاء خوفها المبرر وهي تستعيد في ذاكرتها مشاهدًا متداخلة مما حدث مع «شاهين» وتبعات افترائه الباطل، توترت أيضًا مع تجسد طيف «شريفة» في مخيلتها وذلك الألم العنيف الذي ضرب أسفل جسدها، أسرعت في خطواتها هاربة من تأثير ذلك المكان السلبي عليها حتى كادت تتعثر عليه، لم تفهم «هانم» ما الذي يدور في رأس الصغيرة، فاعتقدت لوهلة أنها متحمسة للذهاب إلى مدرستها لذا هتفت بعتاب طفيف:

-بالراحة يا «دينا»، هتبهدلي نفسك وهدومك!

في نفس الأثناء، كان «آمن» في طريقه إلى موقف السيارات، فقد أراد الحصول على مكان شاغر في أي وسيلة مواصلات متاحة لتنقله إلى البر الشرقي للذهاب إلى كليته، لم تكن «دينا» ناظرة إلى حيث تسير فارتطمت به دون قصد من الخلف، توقفت عن السير متسمرة في مكانها وهي تشهق مصدومة، في حين التفت هو ناحيتها، تفاجأ «آمن» بوجودها وحدق في وجهها باندهاش، كان وقع المفاجأة صادمًا للحظات، تأكد أنها بالفعل هي

بزيها المدرسي وقد سمع عمتها توبخها:

-مش تاخدي بالك يا «دينا»، لا مؤاخذة يا سي «آمن»، أصلها فرحانة إنها رايحة المدرسة وأني حذرتها ماتجريش

تهللت أساريره قائلاً بلطف:

-ماحصلش حاجة

حانت منه نظرة للصغيرة مليئة بالعطف وهو يسألها باهتمام:

-إنتي كويسة؟

ضمت «دينا» قبضتيها إلى فمها في حركة طفولية منها، ظلت محدقة فيه بصمت، بدا وجهه مألوفًا، لكنه ليس مخيفًا كـ « شاهين»، طال صمتها وتعجب «آمن» من سكوتها، توجس خيفة في نفسه أن تكون قد أصيبت بمكروه ما، وتخشى إخباره، سألها بجدية قليلة واضعًا يديه على كتفيها:

-في حاجة بتوجعك؟

هزت رأسها بالنفي مستشعرة قبضتيه عليها، أبعدهما عنها ثم مسد بكفه على رأسها برفق، رمقها بنظرات مطولة تحمل الود والألفة استشعرت بهم الأمان، ثم وجه حديثه إلى عمتها متسائلاً بابتسامة صغيرة:

-رايحين على المدرسة اللي في البر الشرقي مظبوط؟

أجابته «هانم» دون تفكير:

-أيوه

هز رأسه مضيفًا:

-طب كويس، أنا رايح هناك

وإذ به يمد يده ليلتقط حقيبة السفر التي تحوي ثيابها وكتبها قائلاً:

-عنك يا خالة

تحرجت «هانم» منه كثيرًا مرددة باعتراض:

-يا ندامتي، يادى العيبة، هو ده يصح يا سي «آمن»؟!

رد عليها بلطفٍ رغم جدية نبرته:

-يصح وزيادة، هاتيها بس!

ناولته إياه وهي تقول بحرجٍ:

-يجبر بخاطرك يا رب ويكتبلك النجاح في كل خطوة

ابتسم لها قائلاً:

-أمين يا رب، بينا عشان نلحق

لم يتوقف «آمن» عن التحديق في «دينا» من آن لآخر، بدا مستمتعًا بهمهماتها الطفولية وهو يسير إلى جوارها حاملاً حقيبتها إلى المدرسة، شعر بأنه قد أزاح ثقلاً عن صدره بالمساهمة بصورة مباشرة في إقناع جده بالموافقة على مسألة تعليمها، وأنه قد عوضها عن القليل مما أصابها من أذى، لا يعرف لماذا تملكه ذلك الإحساس بمسئوليته عنها، ولكنه كان سعيدًا بما يقدمه لها من خدمات تسعدها، وبرؤيتها تبتسم وتمرح كالصغار، للحظة تمنى في نفسه ألا تتزوج من أخيه مطلقًا، فليس من المنصف أن تجبر على الزواج منه، صرف عن ذهنه مؤقتًا التفكير في أمر سابق لأوانه، واستمتع بمراقبتها في صمت.

***

كان الزحام شديدًا في موقف السيارات؛ فالجميع إما في طريقه إلى عمله أو مدرسته أو جامعته، لم تتوقع «هانم» هذا الحشد من البشر في تلك الساعة المبكرة، مررت أنظارها على المتواجدين هاتفة بصدمة وهي تلطم على صدرها:

-يادي الحوسة، هنلاقي مكان فاضي إزاي وسط العالم دي كلها؟!

بالطبع بدا المكان أشبه بساحة قتال، الكل يتنافس للحصول على أسبقية حجز التذاكر، حتى الوصول إلى سائقي الحافلات والتفاوض معهم يحتاج إلى مجهود مضاعف وقوة جسمانية كبيرة للمرور بين الواقفين، لاحظ «آمن» الارتباك والحيرة الواضحين عليها، رد بثقة وهو يسند الحقيبة على الأرضية الترابية:

-ماتشليش هم، أنا هاتصرف

اعترضت قائلة:

-يا سي «آمن»، أني ....

لم يصغِ لها بل اخترق بجسده الزحام ليصل إلى سائق إحدى الحافلات الصغيرةَ، اعتقدت أنه سيعود خائب الرجاء خاصة أنه استغرق وقتًا هناك، ولكنه أتى إليها حاملاً الأخبار السارة، جفف عرقه المتصبب على جبينه قائلاً:

-الحمد لله حجزت مكانين ليكو

شكرته بامتنان كبير:

-كتر خيرك يا سي «آمن»، طب وإنت؟

تلفت حولته قائلاً بتنهيدة مرهقة:

-هاستنى لما تيجي عربية فاضية وتحمل

ارتسمت علامات الانزعاج على وجهها قائلة باستنكار:

-وده كلام بردك، احنا كده عطلناك

رد عليها بودٍ وهو ينظر في اتجاه «دينا»:

-مش مهم أنا، خليها هي بس تلحق مدرستها، تعالوا أما أركبكوا!

اتجه ثلاثتهم إلى الحافلة التي أوشكت على الامتلاء، وضع «آمن» الحقيبة في المقعد الموجود خلف السائق، ثم استدار ناحية «هانم» ليقول لها:

-اطلعوا يالا

ألحت عليه كثيرًا ليستقل أحد المقعدين قائلة:

-والله ما يحصل، لازم تركب معانا، أني مش هاقبل

تحرج منها قائلاً بابتسامة مهذبة:

-أنا هاتصرف، اتوكلوا على الله

هتفت بإصرار عنيد:

-وربنا أبدًا، أنا هاخد البت على حجري وإنت اقعد في الكرسي التاني

-عشان تبقوا على راحتكم

-اطلع بس يا سي «آمن»

قالتها «هانم» وهي تجلس على المقعد الداخلي واضعة ابنة أخيها على حجرها، أفسحت له في المكان ليتمكن من الجلوس باسترخاء إلى جوارها، شعر بارتخاء تعابيره وتشكلت ابتسامة سعيدة على محياه مع تطلعه إلى

وجه الصغيرة الملائكي، ربما كان والدها الراحل محقًا في الافتنان بوالدتها، فهي تملك زوجا من الأعين الساحرة، وملامح تسر الناظرين إليها، دس يده في جيبه ليخرج قطعة حلوى منها، ثم التقط كفها بيده، وضع الحلوى في راحتها وأطبق عليها بأصابعه قائلاً بصوت خفيض:

-كُليها

رمقته «دينا» بنظرات غريبة، تذكرت موقفه السابق معها حينما أعطاها نفس الحلوى ليسليها، وببراءة محببة ابتسمت له لأول مرة بابتسامة صغيرة سحرته حقًا ليتضاعف إحساسًا عجيبًا بداخله بالانجذاب نحوها، بدت المسافة بالنسبة له قصيرة رغم طول الطريق، أراد «آمن» أن يحظى بأكبر فرصة لقضاء الوقت معها، لم يعرف سبب ذلك، لكنه كان في أسعد لحظاته، لم يشعر بمرور الوقت إلا عندما هتف السائق عاليًا بصوته المتحشرج:

-ده آخر الخط، بعد كده الزراعي والعربية هتغرز!

بدأ ركاب الحافلة يترجلون منها، انتظرت «هانم» ريثما يتمكن «آمن» من النزول أولاً لتناوله «دينا» بعدها، حملها الأخير من خصرها ثم أنزلها على قدميها وهو يبتسم لها بلطفٍ، بادلته من جديد ابتسامة صغيرة وهي تلوك في فمها قطعة الحلوى، لحقت بهما «هانم» ساحبة حقيبة السفر، ثم أمعنت النظر في الطريق غير المعبد والمليء بالحصوات والبرك الطينية الصغيرة، عبست ملامحها إلى حد كبير قائلة بضجر:

-يادي الحوسة، هنمشي عليه إزاي، كده الهدوم الجديدة هتتبهدل من الطين!

حدق «آمن» في الطريق وفهم سبب انزعاجها، فكر سريعًا في حل لتلك المعضلة، أضاء عقله لفكرة ما -ربما تكون مجنونة - لكنها الحل الأنسب، التفت نحو «هانم» قائلاً بثقة:

-أنا هاتصرف

انزوى ما بين حاجبيها بقوة وهي تسأله:

-هتعمل إيه يا سي «آمن»

لم يعقب عليها في البداية بل انحنى لينزع حذائه وكذلك جواربه، تعجبت كثيرًا من أفعاله الغامضة، اعتدل في وقفته ليجيبها:

-هاشيل «دينا» وأعدي بيها للناحية التانية

ردت عليه بحرج كبير:

-يادي الكسوف، وتبهدل نفسك، لا يا سي «آمن»

وكأنها لم تنطق بحرف أو تبدي اعتراضها عليه، تحرك ناحية «دينا» ثم وقف قبالتها يسألها بلطفٍ:

-ممكن أشيلك يا حلوة؟

كانت تعبيرات الصغيرة واجمة، ومع ذلك لم تمانع في حمله لها، بل فتحت له ذراعيها، اتسعت ابتسامتها وهو يرفعها عن الأرضية الترابية ليبدأ بالسير على ذلك الطريق المتعب، التقطت «هانم» حذائه وجواربه في يد وحملت الحقيبة باليد الأخرى وسارت خلفه مرددة بامتنان:

-يكرمك ربنا يا غالي ويجازيك خير عن كل اللي بتعمله معانا، ربنا يبعد عنك ولاد الحرام ويحميك يا رب!

طوقت «دينا» عنق «آمن» بذراعيها متشبثة فيه كي لا تسقط، استغرب من تمسكها الغريب به وكأنه الملاذ بالنسبة لها، سعد كثيرًا بثقتها فيه رغم كونها لا تدرك ذلك المعنى، لكنها منحته ببراءتها سعادة لا توصف تغلغلت

بداخل كيانه، استطاع كذلك أن يشعر بدقات قلبها المتلاحقة وهي تضرب في صدره وكأنها امتزجت به فصارت جزءًا منه، لحظتها توتر مما يمكن أن يكنه لها من مشاعر غير مفهومة خشي التصديق بوجودها، وما إن وصل إلى نهاية الطريق حتى أنزلها رامقًا إياها بنظرات حانية، قطع تأمله لها صوت «هانم» القائل:

-كتر خيرك، تعبناك معانا

رد مبتسمًا:

-أنا معملتش حاجة

-كل ده ومعملتش حاجة، والله ابن أصول، يحفظك ربنا من كل شر

شكرها قائلاً بهدوء وهو يشير بيده:

-تسلمي يا خالة، المدرسة هناك أهي

التفتت ناظرة نحو المبنى الخاص بها لترد بعدها:

-أه صحيح

اقترب «آمن» من «دينا» ليقول لها:

-عاوزك تذاكري كويس وتكوني من الأوائل، وأنا هاجيبلك حاجات حلوة كتير، اتفقنا؟

أومأت برأسها كتعبير عن فهمها لما يقول، تمنى أن يسمع صوتها لكنها كانت قليلة الكلام، ردت عليه «هانم» بحماس:

-يا رب أشوفها زيك يا سي «آمن»

رفع رأسه ناحيتها ليضيف:

-هاتكون أحسن مني إن شاء الله!

ثم أكمل بعدها السير معهما بعد أن ارتدى جواربه وحذائه حتى وصل ثلاثتهم إلى باب المدرسة الرئيسي، وقبل أن تسلمها لمشرفة المكان قامت «هانم» بتوديع ابنة أخيها وهي تكبح بصعوبة عبراتها، ضمتها إلى صدرها وحاوطتها بذراعيها ماسحة على ظهرها بحنو، ثم أرجعتها للخلف لتحتضن وجهها بين راحتيها لتطالعها بنظرات مطولة، أوصتها قائلة بجدية رغم اختناق نبرتها:

-خلي بالك على نفسك يا بت الغالي، وأني على آخر الأسبوع هاجيلك، ماشي

هزت «دينا» رأسها بالإيجاب، لم تتمكن «هانم» من السيطرة على نفسها، انسابت دمعاتها وهي تحتضنها بعاطفة قوية عبرت عن تأثرها بوجودها منذ أول لحظة جاءت فيها إلى منزل العائلة، تركتها مضطرة لتمسك بها المشرفة من يدها وتتولى مهمة إيصالها لداخل المبنى حيث ستخوض مرحلة أخرى جديدة وهامة ستسهم في تكوين شخصيتها، كانت آخر نظراتها لـ «آمن» الذي لم يستطع إبعاد عينيه عنها، شعر بالاختناق وانقبض قلبه لمجرد رؤيتها تختفي خلف الأبواب الموصدة، فسر ذلك لنفسه بتأثره بألم فراق الأحبة، هكذا أوهم نفسه كابتًا وبقوة جذوة أول مشاعر مختلفة عصفت بوجدانه.

***

الفصل السابع

بغنج طبيعي ودلال غير مصطنع سارت «أسماء» بخيلاء بين والدتها وقريباتها على الطريق الزراعي، فمنذ أن علمت بخطبتها إلى حفيد الحاج «إبراهيم» وقد زاد شعورها بالأنوثة والنضج رغم سنواتها السبعة عشر، لكن في عُرف أهلها هي طابت وصارت جاهزة للزواج، توردت بشرتها بدموية خجلة حينما لمحت «شاهين» مصادفة من على بعد وهو يحدث أحد الأشخاص، رأها الأخير فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مغترة، فرك طرف ذقنه ثم صافح ذلك الشخص واتجه نحوها، ارتبكت في مشيتها وادعت انخراطها في الحديث مع من بجوارها، اختلست النظرات نحوه وأمسك هو بها أكثر من مرة وهي تحدق فيه، هتف مرحبًا بصوته الأجش:

-صباح الفل عليكم، منورين الناحية بحالها

ردت عليه إحدى النساء قائلة:

-ده نورك يا سي «شاهين»

سألهن وهو مسلط عينيه على وجه «أسماء» المشتعل بحمرته النضرة:

-على فين العزم كده؟

أجابته أخرى بضحكة متحمسة:

-رايحين نشوف لوازم العروسة، ما خلاص الفرح قرب يا عريس

حك مؤخرة رأسه مدعيًا الحرج ثم أضاف قائلاً:

-لو ناقصكوا حاجة أني .....

قاطعته والدتها مرددة بجدية:

-يباركله الحاج «محمد أبوزيد» مش مخلي على جهده جهد عشان يجيب لبته كافة شيء، هي تؤمر تُجاب على طول!

رد عليها بعبوس ملحوظ:

-وماله، الخير عندنا بزيادة، ومش رايح للغريب، ما هي بقت مننا خلاص

توترت «أسماء» من ذلك الاستعراض المادي بين العائلتين وخشيت من غضبة الأخير ظنًا منه أن والدتها تقلل من شأنه، لكنها تداركت الموقف بحنكتها قائلة بودٍ:

-يدوم العز يا رب، ماهي عروستك بردك!

ثم ربتت على صدره بكف يدها متابعة:

-فوتك بالعافية يا سيد الرجالة

رد عليها قائلاً بابتسامة باهتة:

-وعليكم السلام يا حاجة!

غطت «أسماء» نصف وجهها بطرف حجابها حياءً من عريسها المرتقب رغم محاولتها الأخيرة للنظر إليه خلسة من طرف عينها، التقط نظرتها الحذرة نحوه فشعر بانتشاء يجتاحه وهو يبادلها ابتسامة أخفى خلفها خيالات جامحة ستتحقق فور أن يغلق عليهما بابًا واحدًا.

***

لم تكن قد اعتادت بعد على حياتها في بيت جدتها حتى انتقلت «دينا»

للعيش في المدرسة الداخلية بالبر الشرقي، اختلفت أجواء الحياة هناك، كانت أكثر نظامًا وروتينية، ومع ذلك شعرت بالاحتواء والطمأنينة لوجود المشرفات حولها ممن تم توصيتهن بمعاملتها معاملة لائقة، لم تعرف أن «آمن» حفيد الحاج «إبراهيم» كان يقف وراء ذلك، فلم يدخر وسعه في توصية كل من له صلة بأحد يعمل في ذلك الصرح التعليمي بالاهتمام بها ورعايتها، وتدريجيًا تأقلمت مع زميلاتها في المدرسة وشكلت صداقات طيبة معهن، كذلك تابعت الأخصائية الاجتماعية حالتها النفسية بعد أن لاحظت صمتها الطويل، استفسرت من عمتها عن سبب ذلك فأخبرتها بإيجاز عن حالة الختان التي تعرضت لها، استنكرت الأخصائية ذلك وتعاملت بحرفية مع الصغيرة لتكسبها ثقتها بنفسها وتعزز من حالة الدعم لها، ورويدًا رويدًا بدأت «دينا» في التجاوب مع من حولها، وخلال فترة وجيزة تكيفت مع الأوضاع هناك وتجاوزت تلك الأزمة المريرة.

غمرتها سعادة كبيرة حينما علمت بقدوم عمتها لزيارتها بعد شهرين من تواجدها بالمدرسة، سبقت «دينا» خطواتها خُطا المشرفة التي اصطحبتها لتقابلها في مكتب الوكيلة، هبت «هانم» واقفة فور أن رأتها مقبلة عليها، كانت ابنة أخيها أكثر نضارة، أكثر حيوية، وأكثر إشراقًا عن ذي قبل، حتى وجهها بدا ممتلئًا، بالطبع أيقنت أن خيار انتقالها إلى هنا كان الأصوب والأصلح بالنسبة لها، انحنت للأمام قليلاً فاتحة ذراعيها لها لتحتضنها وهي تهتف:

-بت الغالي

ردت عليها «دينا» بابتسامة بريئة:

-أنطي

تعجبت «هانم» من تلفظها بتلك الكلمة الغريبة على مسامعها، نظرت لها بغرابة وهي تسألها:

-إيه دي؟

أجابت عنها المشرفة موضحة:

-يعني عمتي بس بالانجليش، احنا بنعلم الطالبات هنا لغات

أومأت برأسها متفهمة وهي تشدد من ضمها للصغيرة:

-ايوه فهمت، أما العلام حلو يا ولاد!

تساءلت «دينا» بفضول:

-أنا هاروح معاكي امتى؟

-هانت يا بتي، كلها حاجة بسيطة وتيجي الأجازة ونقعد سوا

-ماشي

سألتها بجدية وهي تطالعها بنظراتها الحنون:

-ها بتسمعي كلام أبلتك وبتذاكري كويس؟

ردت عليها بعفوية:

-أيوه

-ربنا يحميكي يا غالية يا بت الغالي

استمرت في الدردشة معها بجمل بسيطة لتطمئن أكثر على أحوالها حتى حان موعد انصرافها، فتدخلت المشرفة في الحوار مقاطعة حديثهما برسمية واضحة:

-معلش يا مدام، لازم الطالبة ترجع الكلاس بتاعها دلوقتي

لم تكن قد روت ظمأها منها بعد، احتضنتها كثيرًا مانعة نفسها من البكاء على تركها والذهاب ككل مرة تفعل فيها ذلك حينما تأتي لزيارتها في المدرسة، اضطرت لاتباع الأوامر وطبعت العديد من القبلات الحانية على وجنتي الصغيرة، لوحت لها «دينا» بيدها لتودعها راسمة بسمة صغيرة على شفتيها، تنهدت «هانم» بعمق مخرجة زفيرًا ثقيلاً من صدرها متخيلة انتهاء ذلك الحلم الجميل بمستقبل مثمر بزواجها من «شاهين» والذي سيقضي حتمًا على أي بادرة أمل في حصولها على حياة طبيعية مستقرة خاصة في وجود «شريفة»، سحبت نفسًا طويلاً أخرجته ببطء ثم جرجرت قدميها إلى خارج الغرفة محدثة نفسها بإحباط:

-ربنا يبعده عنك ويكفيكي شره وشر اللي من ناحيته!

***

صدحت أصوات الزغاريد عاليًا من النساء اللاتي اعتلين الشاحنات الصغيرة حيث تم وضع متعلقات العروس وما يخصها بداخلها، توقفت «هانم» عن السير لتتأمل ما يتم عرضه من مقتنيات باهظة الثمن كتقليد متبع؛ فحينما تتزوج إحداهن تتفاخر عائلتها بما اشترته لها من أجهزة كهربائية ومفروشات وأشياء أخرى توضع في منزل الزوجية، بدت متأثرة بما تراه، فقد تمنت في نفسها أن تعيش مثل تلك اللحظات الجميلة، ومع ذلك كانت متيقنة في داخلها أنها لن تعايشها بأي حالٍ، فمن سيرتضي بنصف أنثى -كما تصف نفسها- ويتزوجها؟ استعدت لتتحرك لكن استوقفتها «شريفة» التي رمقتها بنظرات متعالية لتقول لها بابتسامة صفراء:

-هانشوفك في الفرح يا بت «صبري»

ضغطت «هانم» على شفتيها لترد بتجهم:

-لو ربنا أراد

كانت على وشك التحرك لكن مدت «شريفة» يدها ناحيتها لتربت على كتفها بقوة، ثم أضافت قائلة بنبرة باردة متعمدة استفزازها:

-احنا عاملين أكل بزيادة، نصيبك إنتي وأمك والـ ... محروسة محفوظ لو مش هاتعرفوا تيجوا

اغتاظت من إساءتها الصريحة لعائلتها وما يحمله كلامها من إهانات واضحة، حافظت على هدوء أعصابها لترد بعدها بكبرياء وهي تزيح يدها بعيدًا عنها:

-خير ربنا كتير بس النِفس

حدثتها «شريفة» من زاوية فمها قاصدة الاستهزاء بها والسخرية من تشوهاتها:

-على رأيك، وحد يشوف سنحة زي دي ونفسه تتفتح، أعوذو بالله!

عفويًا وضعت «هانم» يدها على فتحة صدرها، ارتبكت من تجاوزها غير اللائق معها، لكنها استجمعت شجاعتها ثم صاحت تحذرها:

-جرى ايه يا «شريفة»، احفظي أدبك معايا!

ردت عليها بتعالٍ رامقة إياها بنظرات احتقارية:

-اسمي الست «شريفة»، ماتنسيش نفسك

ثم مالت عليها لتهمس لها بكلمات موحية جعلت قلبها يرتجف:

-وأحسنلك تتقي شري بدل ما يطلع على بت أخوكي، ولا الظاهر نسيتي الاتفاق؟!

شحب وجهها من تهديدها الضمني، أجبرت نفسها على كظم غضبها منها حتى لا يطال الصغيرة أي أذى منها، رمقتها «شريفة» بنظرة متكبرة قبل أن توليها ظهرها وترحل، عبست تعابير وجه «هانم» ثم بصقت خلفها مرددة بصوت خفيض لكنه يحمل الكره والحقد:

-منك لله يا بت «فتحية»، أشوفك والعة يا رب!

***

فركت أصابع كفيها معًا وهي تجلس باستحياء على الفراش في غرفة نومها بالطابق الجديد الذي تم تشييده ليكون منزلها بعد أن عُقد قرانها على حفيد عائلة «إبراهيم» قبل شهر، بدا التوتر جليًا على «أسماء» وهي تتلفت حولها بنظرات شبه زائغة مترقبة دخول زوجها في أي لحظة، كانت والدتها قد عاونتها في تبديل ثوب زفافها بذلك الرداء الأبيض الذي أخفت خلفه مفاتنها الأنثوية بعد أن انتهت مراسم الزفاف الشعبية، أحكمت غلقه عليها وظلت جالسة في مكانها تفكر فيما سيحدث لاحقًا، كانت ليلتها الموعودة، ولم تكن تعرف فيها أي شيء عن ماهية العلاقات الزوجية، فقد اكتفت والدتها بترديد جملة (جوزك عارف هيعمل إيه) على مسامعها ليبدأ خيالها في نسج سيناريوهات مشابهة لما رأته في التلفاز من مشاهد رومانسية يسبح فيها الحبيبان معًا في أنهر الحب والغرام وتحلق حولهما الفراشات المضيئة ليتحول العالم من حولهما إلى قطعة ساحرة، انتفضت في جلستها عندما فتح باب الغرفة فجأة، استدارت برأسها للجانب لتجد «شاهين» يقف عند عتبته وعلى ثغره ابتسامة عريضة، تنحنح بخشونة قبل أن يقول:

-أخيرًا بقينا لوحدنا!

اشتعلت وجنتاها بحمرة ساخنة من صراحته، أطرقت رأسها خجلاً منه وهي

ترد بحياءٍ:

-ايوه

خطا نحوها ليتأملها عن قرب ممتعًا أعينه بمفاتنها المغرية، مرر حدقتيه ببطء على كل تفصيلة منها مؤججًا بداخله مشاعره الملتهبة ومحفزًا خلاياه الذكورية على العمل بنشاط، تحمس كثيرًا لقضاء ليلة مختلفة ولا تنسى معها، جلس إلى جوارها على الفراش فابتعدت عنه، لاحظ ارتباكها فسألها بصوته الأجش:

-تحبي تاكلي؟

صمتت واكتفت بإطراق رأسها للأسفل، فتابع مضيفًا:

-أمي عاممللنا حمام محشي وبط وحاجات مفتخرة، ها إيه رأيك؟

ابتسمت له هامسة:

-ماشي

لف ذراعه حول خصرها متلمسًا إياه فارتعش جسدها من لمسته المباغتة، لم تستطع التملص منه وهو يجذبها لتسير معه نحو صينية الطعام المسنودة على الطاولة الصغيرة الموضوعة في جانب الغرفة، انتزع الغطاء ليكشف عن أطباق أخرى شهية، جلسا سويًا ثم قام «شاهين» بتقطيع الحمام بيده إلى نصفين وبدأ في التهام أجزائه بشراهة، نظرت له «أسماء» مبتسمة محاولة التغلب على الاضطراب الذي يعتري معدتها من فرط التوتر، مد يده بقطعة من لحم الحمام نحو فمها قائلاً بإصرار:

-دوقي دي يا عروسة، طعمه هيعجبك

خجلت من إطعامه لها وأمسكت بالقطعة بأناملها لتدسها في جوفها، وقبل

أن تكمل ابتلاعها انقض عليها «شاهين» ملتهمًا شفتيها بقبلاته العميقة، انحبست أنفاسها وتضاعف ارتباكها من ذلك، قاومته مرددة برجاء:

-استنى بس، أني .....

قاطعها بجدية وقد بدا في حالة انتشاء جلية:

-استنى ايه، ده الليلة ليلتك!

لف «شاهين» يده حول رأسها ليقربها منه، اشمئزت من طريقته في تقبيلها عنوة ويده متسخة، نفرت من ذلك الأسلوب في اجتذابها إليه، تراجع برأسه بعيدًا عنها ليلتقط أنفاسه، ثم حاوطها من ظهرها مكملاً بنبرة ذات مغزى:

-ده إنتي هاتشوفي ليلة تحلفي بيها

شهقت مصدومة حينما جذبها من ذراعها ليتمكن من حملها على كتفه، ركلت بساقيها في الهواء وتوسلته أن يتركها، لكنه أطلق ضحكة عالية ساخرة من خوفها، اتجه بها نحو الفراش وألقاها عليه بقوة لتنهار أعصابها المتوترة نسبيًا مما يوشك على فعله، رمقها بنظرات غامضة أصابتها بالرجفة، اتسعت مقلتاها بحدة وهو ينزع ثيابه عنه ليظهر أمامها عاري الصدر، وبدون أي مقدمات جذبها من قدمها نحوه ليشرع في ممارسة شعائر الحب معها، لم يعطها الفرصة لتعتاد عليه وتتأثر بكلماته المعسولة ومداعباته اللطيفة التي تذيب الحواجز الجليدية، بل اقتحم حصونها بشراسة مستمتعًا بصرخاتها الباكية والمتألمة من قسوته وهو يثبت رجولته معها، تلوت بجسدها محاولة الهروب منه، لكنه ثبتها جيدًا من رسغيها، استغل ثقل جسده في تقليل حركتها، ومنحته مقاومتها إحساسًا مضاعفًا بالقوة والرغبة، فأكمل بعنف أكبر إفراغ مشاعره المشتعلة، بدا في عالم آخر وهو يجرب ما يجيد فعله بانتشاء وشهوانية زائدة، بينما قتلت قسوته كل مشهد رومانسي تخيلته يومًا في عقلها، وما إن انتهى منها وتأكد من عفتها حتى نهض عنها قائلاً بفتور:

-مبروك يا بت «أبوزيد»

جذبت ردائها عليها لتستر ما كشف من جسدها زاحفة لجانب الفراش وهي تئن بصوت خفيض، كتمت ألمها ماسحة بيد مرتعشة بقايا عبراتها الملتصقة بوجنتيها، زاد خجلها مع رؤيتها لبقع الدماء الصغيرة تلطخ ردائها، حاولت تخبئتها لكنه سخر منها قائلاً:

-بتداري إيه؟ خلي أبوكي يرفع راسه وسط الخلق!

تجمدت تعبيراتها من فظاظته الوقحة، لم تتخيل «أسماء» مطلقًا أن يكون فارس أحلامها بتلك الصورة المنفرة، كانت أحلامها عنه حالمة، وردية، مليئة بالرجولة والقوة، لكنه دمرها بوقاحته وبأبشع الذكريات في أُولى لياليهما معًا، انسابت دمعاتها من جديد متأثرة بالموقف، لم يهتم «شاهين» بها وأكمل تناول بعض لقيمات الطعام ليتجشأ بعدها بصورة مقززة، مسح بيده المتسخة في طرف الملاءة ثم ألقى بجسده المرهق على الفراش قائلاً بجفاء:

-لو جعانة كلي، أني هنام

لم ينتظر ردها بل أغمض جفنيه متجاهلاً مشاعرها كأنثى أولاً وكعروسٍ حديثة العهد بالزواج ثانيًا، نظرت له بعينين مصدومتين مستشعرة إهماله لها في أهم لحظة في حياة أي شابة تترك بيت عائلتها لتصير مسئولة من رجل آخر، من المفترض أن يغدق عليها بحنانه ووده، أن يحتوي خوفها ويطمئنها بملاطفته وكلماته المعسولة، لكنه أشعرها بأنها نكرة، وأنه تزوجها فقط ليحصل منها على متعة ذكورية لحظية تنتهي باكتمال نشوته دون الاكتراث بها، منحته نظرة أخيرة آسفة قبل أن توليه ظهرها مكملة بكائها الصامت وهي دافنة لوجهها في وسادتها، همست لنفسها بحزن جلي:

-مكونتش عاوزاه كده!

أغمضت عينيها متمنية عودتها بالزمن للوراء فتتمكن من رفض تلك الزيجة القائمة على المصالح العائلية، وللأسف كانت تلك هي المقدمة لمعاناة مستمرة امتدت معها لما يزيد عن عامين تجرعت فيها الكثير والكثير من زوج فظ غليظ القلب وسليط اللسان استغلها، أهانها، قلل من شأنها، أنهك جسدها، استنزف قواها، وتركها بقايا محطمة تتجرع الأوجاع ليل نهار.

***

كان يومًا عاديًا كغيره تمارس فيه طالبات نهاية المرحلة الإعدادية بالمدرسة الداخلية تمارين الإحماء في حصة التربية البدنية كما اعتدن أن يفعلن ذلك في مطلع كل صباح، شعرت إحداهن -والتي كانت تدعى «مارينا»- بنغصة خفيفة تضرب أسفل معدتها، تجاهلتها كالعادة فلم تكن تلك هي المرة الأولى، بل ظل الأمر ملازمًا لها مؤخرًا، أكملت التمارين محاولة التغلب على ذلك الشعور المؤلم، طلبت المعلمة من الطالبات الركض حول المكان فامتثلن دون نقاش لأمرها، لكنها استوقفت تلك الطالبة حينما لمحت خيط الدماء ينساب على ساقها وملطخًا لسروالها الأبيض، تعاملت مع الأمر بحرفية واستبعدتها من استكمال باقي التمرينات مرسلة إياها بصحبة إحدى المشرفات لتتولى إخبارها بما طرأ على جسدها من تغييرات هرمونية أدخلتها في مرحلة البلوغ، التفتت المعلمة نحو باقي الطالبات تأمرهن:

-اتجمعوا في نص الملعب وابدأوا في تمرين شد البطن

شكلت الطالبات حلقات دائرية في المنتصف، ولكنهن تبادلن همسات جانبية مليئة بالكثير، تساءلت «دينا» بفضول:

-»مارينا» مالها؟ هي مش هتدرب معانا؟!

أجابتها صديقتها «مروة» وهي تجاهد لإخفاء ضحكتها العابثة:

-الظاهر «سوسو» جتلها

تعالت ضحكات الطالبات قليلاً فحذرتهن المعلمة بصرامة:

-بنات، مش عاوزة دوشة!

اعتذرت الطالبات منها وواصلن أداء تمرينهن، ظل الفضول مسيطرًا على «دينا» فتابعت تساؤلاتها باهتمام:

-مين «سوسو» دي؟ حد من قرايبها؟

ردت عليها أخرى معاتبة بغلظة:

-إنتي عبيطة ولا إيه، مش معقول مش فاهمة ولا مخدتيش بالك من الدم!

قطبت «دينا» جبينها مستنكرة فظاظتها معها فأوضحت لها «مروة» مقصدها قائلة بتسليةٍ:

-دي حاجة كده لما تكبري هانقولك عليها

ضحكت الطالبات مجددًا على سذاجتها، عبست تعابير «دينا» من سخريتهن منها، هتفت مرددة بامتعاض:

-خلاص مش هاتكلم معاكو تاني

شعرت «مروة» بالانزعاج لكونها أحرجت رفيقتها المقربة فأشارت لها بيدها لتقول:

-طب ما تزعليش، قربي مني وأنا هافهمك

حثها فضولها على الاقتراب منها رغم ضيقها من تصرفها معها، مالت «مروة» عليها لتهمس لها بشيء ما في أذنها، تدريجيًا بدأت تعبيرات «دينا» تتحول

للاندهاش ونظراتها للصدمة، فغرت شفتيها قائلة بارتباك:

-مش معقول، دي .. دي لسه صغيرة عندها 13 سنة

ردت صديقتها مبتسمة:

-ده يدوب، هو محدش بيحكي معاكي في الحوارات دي ولا إيه؟

هزت رأسه نافية وهي تقول:

-لأ

غمزت لها بطرف عينها قائلة بنبرة متباهية:

-يا بنتي اسأليني أنا خبرة

تعجبت «دينا» من معرفتها لتلك الأمور الأنثوية التي تتخطى مستواها العمري فسألتها بفضولٍ:

-طب وإنتي عرفتي ده منين؟

أجابتها ببساطة وكأنها مسألة تفتخر بها:

-من بنت خالتي، وهي عرفت من صاحبتها، يعني كل واحدة فينا بتعرف من حد وبنقول لبعض لما نتقابل عشان نكون مستعدين لما «سوسو» تزورنا

-طب وهي جاتلك؟

حركت «مروة» كتفيها بدلال وهي ترد:

-أه، من شهرين، وماما فرحت أوي ووزعت شربات كمان على كل قرايبنا، ده غير بابا إداني فلوس أجيب بيها حاجة حلوة

ارتسمت علامات الذهول على وجه «دينا» مرددة باستغراب كبير:

-للدرجادي؟!

-طبعًا، الحاجات دي بتفرق أوي مع أهالينا

-مكونتش أعرف

-بصي أي واحدة فينا «سوسو» هتجيلها طالما عدت 12 سنة، وفي بنات بتجيلها بدري عن كده

-بجد؟ مش معقول

أشارت طالبة أخرى بحاجبيها محذرة بصوت خفيض:

-طب اسكتوا بقى لأحسن المِس جاية!

توقفت الطالبات عن الثرثرة وادعين إكمال أداء التمرين، راقبتهن المعلمة بنظرات متفحصة قبل أن تصفق بيديها لتقول بعدها بصيغة آمرة:

-يالا يا بنات، هنبدأ التمرين التاني!

ظلت تلك المسألة الحيوية تشغل تفكير «دينا» طوال اليوم، خاصة أنها إلى الآن مازالت محتفظة بالمظهر الخارجي لجسدها دون أي تغيير عليه رغم مرور ثلاثة أعوام على تواجدها بالمدرسة، فقط ازدادت طولاً لكن بقيت بدون معالم أنثوية تشير إلى قرب نضجها، جسدها مسطح من الجانبين، تغلغل بداخلها شعورًا مريبًا بالاختلاف والنقص عمن حولها، فكل طالبة متواجدة معها بدأت في التباهي بكبر جسدها وظهور مفاتنها، بينما هي تحاول إخفاء ما لا تملكه مكتفية بالابتسام والصمت.

***

واربت شباك غرفتها الخشبي فور أن رأت زوجها قادمًا من بعيد، فقد انتظرت

عودته على أحر من الجمر لتستأذنه بالذهاب لمنزل عائلتها، اتجهت «أسماء» نحو المرآة لتكمل ربط حجاب رأسها، تأملت ذبول وجهها الذي مازال في ريعانه بحسرة واضحة عليها، لم تكن لتصبح هكذا لولا زواجها المشؤوم من «شاهين»، أخفضت نظراتها لتتأمل جسدها الذي أنهكه بمتطلباته الزائدة عن المألوف في علاقته الحميمية بها، كانت تشعر بالنفور من اقترابه منها، لم يشعرها يومًا بأنها أنثى تستحق الاحترام ولها رغبات تحتاج للتلبية مثله، تعامل معها فقط بطريقة استنزفت قواها ليحقق لنفسه متعة شخصية دون الاكتراث بمشاعرها، أخرجت تنهيدة ثقيلة من صدرها معبأة بالكثير من الهموم والأحزان، همست مواسية نفسها:

-يا ريتني ما اتجوزت!

مسحت عبرة تسللت إلى طرف عينها ثم أكملت سيرها إلى خارج الغرفة مترقبة فتحه لباب المنزل، فركت «أسماء» كفيها معًا لتتغلب على التوتر المزعوج المسيطر عليها، هي سئمت من الجلوس بمفردها لساعات حبيسة المنزل لا تحدث أحدًا سوى الجدران الكئيبة، وإن فكرت في النزول للطابق السفلي وقضاء الوقت مع عائلته أسمعتها «شريفة» من كلماتها المسمومة ما ينغص حياتها ويكدر مزاجها، كما لاحظت أن معاملة الأغلب لها جافة وحادة إلى حد ما، خاصة بعد فشل الاتفاق مع أبيها للحصول على الأرض الزراعية، فتضاعف إحساسها بالازدراء والتجاهل، لذلك أثرت الانزواء مع نفسها في منزلها تجنبًا لأي مشاحنات محتملة، استدارت كليًا نحو الباب حينما سمعت صوت المفتاح يُدار فيه، تأهبت لرؤية «شاهين» الذي عبس لحظة أن رأها واقفة هكذا بوجهها المتذمر، حك طرف ذقنه قائلاً بفتور:

-سلامو عليكو

ردت عليه التحية قائلة:

-وعليكم السلام

رمقها بنظرة مطولة مبديًا استغرابه من ارتدائها لعباءة الخروج، لم يدع الأمر يحيره كثيرًا فسألها مستفهمًا:

-على فين العزم كده؟

أجابته بعصبية طفيفة:

-عاوزة أروح عند أمي شوية

زادت تعابيره وجومًا وهو يرد بتهكمٍ:

-هو إنتي كل اليوم والتاني عند أمك، مش هانخلص من الموال ده!

تشنجت من رده السمج عليها وتابعت قائلة:

-مش أحسن من الأعدة لوحدي في البيت ده

تحدث من زاوية فمه قائلاً:

-طب ما تنزلي عند الجماعة تحت، هو أنا منعتك؟

ردت عليه بغيظٍ:

-عشان أسمع كلام يسمم بدني ويفور دمي من عمتك

حدق فيها بنظرات باردة، فلم يحقق زواجه منها طوال الفترة المنصرمة أي منفعة مادية أو حتى رزق منها بذرية حملت اسمه، كانت بالفعل شؤمًا عليه، انتزع جلبابه عنه مغمغمًا بنبرة ساخطة:

-لازم يعني تسمعيني أسطوانة النكد دي كل يوم؟ ما إنتي لو تخلفيلك عيل ولا اتنين كان زمانك حالة عن نافوخي!

ارتفع حاجباها للأعلى كتعبير عن رفضها لما قال، ثم ردت عليه بحنقٍ:

-هو كان بإيدي يعني؟

نظر لها شزرًا قبل أن يضيف متبرمًا:

-شكلك زي عمتي ما بتقول أرض بور

اغتاظت من إهانته الصريحة لها وتلميحه المسيء لكونها لا تنجب، استشاطت نظراتها مرددة بانفعال:

-هاه، أني إيه؟

رد بامتعاض:

-بقالي سنتين متجوزك وإنتي بومة مافيش حَبَل ولا غيره

شهقت قائلة بصدمة:

-قصدك إني معيوبة؟

أشاح بوجهه بعيدًا عنها متابعًا بنفس الفظاظة:

-ما هو أني مش مقصر معاكي، مكفيكي ليل نهار وبدل المرة عشرة!

لم تستطع تحمل تلميحاته القاسية فهدرت فيه بلا تفكيرٍ:

-لأ عندك يا «شاهين»، أنا روحت للضاكتورة وقالت إني صاغ سليم، الدور والباقي عليك إنت يا سيد الرجالة!

تخشب في مكانه عقب جملتها الأخيرة التي اخترقت مسامعه، تبدلت ملامح وجهه للشراسة ونظراته للعدائية، التفت نحوها يسألها بنبرة لا تبشر بأي خير:

-إيه ياختي، عملتي إيه؟

توترت من طريقة تحديقه بها ومن تحول تعابيره لشيء مخيف، تراجعت للخلف قائلة بارتباك:

-أني مكونتش لوحدي، أمي كانت معايا ماسبتنيش

انقض عليها محاوطًا رأسها بيده ليجذبها نحوه وهو يسألها:

-يعني إنتي بتغفليني وتروحي مشاوير مع أمك؟

ارتجفت من نظراته المخيفة لها، وحاولت التخلص من قبضته الممسكة بمؤخرة رأسها لكنها فشلت، أحست بشرر يتطاير من عينيه، ارتعشت شفتيها وهي ترد نافية:

-لأ، بس كنت عاوزة اطمن على .....

قاطعها قبل أن تكمل جملتها بصفعة مباغتة على وجنتها صارخًا بها:

-يا بت الـ ..... !

صرخت متأوهة من الألم متوسلة إياه ببكاءٍ:

-يا «شاهين» اسمعني، ....

هدر مقاطعًا إياها من جديد وقد تضاعفت شراسته:

-والضاكتورة طلعتك زي الفل، وأني مش راجل معاكي

حركت رأسها بإيماءات نافية متتالية:

-لا والله، خليني بس أفهمك

توعدها صائحًا بغلظة شديدة:

-وقعة أهلك سودة

لطمت على صدرها مستغيثة بصراخ مرتفع:

-يا نصيبتي، الحقوني يا ناس!

لم يعبأ بصراخها ولا بتوسلاتها التي تستسمحه بالعفو عما أسماه خطئها، فهي قد أهانت رجولته التي يفتخر بها بما فعلته دون علمه، أخفض «شاهين» يده ليقبض على عنقها متعمدًا خنقها، ثم كز على أسنانه متابعًا بوعيد مهلكٍ:

-أني هاربيكي وهاعرفك أني راجل ازاي يا بت «أبوزيد»!

***

الفصل الثامن

أنقذها من ضرباته الشرسة على كامل جسدها دقات الباب العنيفة التي كادت أن تخلعه، تكورت «أسماء» على نفسها وغطت وجهها لتخبئه من عنف زوجها الأهوج الذي فقد أعصابه وثارت ثائرته عليها، بكت متألمة وهي تزحف بصعوبة لتتحاشى المزيد من تهوره المهلك، اتجه «شاهين» ناحية باب المنزل ليفتحه وهو مشحون بغضبه الأعمى، وجد أخيه ووالدته وعمته يقفون عند العتبة مصدومين من الصراخ المخيف، اقتحم «آمن» المنزل دافعًا إياه للخلف متسائلاً بقلقٍ بدا واضحًا عليه:

-إيه اللي بيحصل هنا عندك؟

تبعته «هنية» تسأله بتوتر:

-في إيه يا ابني صوت مراتك جاب التايهين؟

كانت «شريفة» أكثرهم برودًا وهدوءً رغم الفضول الذي يعتريها لمعرفة سبب الشجار بين الزوجين، ومع ذلك لم تنبس بكلمة واقتربت في صمت من «أسماء» لتتأمل ما فعله ابن أخيها بها، مسح «شاهين» عرقه المتصبب على جانب رأسه قائلاً بحنق:

-محدش يتدخل!

وقعت أنظار «آمن» على زوجته التي تكومت عند الزاوية فوجدها تستغيث به لينجدها من شره المستطير، اقترب منها وهو يرمقها بنظراته المذهولة، فقد تحول وجهها لكتلة متورمة تلطخها بقع الدماء، ناهيك عن ثيابها الممزقة

وأثار الخدوش والكدمات الواضحة عليها، استدار ناحية أخيه يعنفه:

-إنت عملت فيها إيه؟

نظر له شزرًا قبل أن يرد بشراسةٍ:

-بالله ما هتفضل على ذمتي بعد النهاردة

أمسك به «آمن» من تلابيبه يهزه بعنف وهو يعاود سؤاله بنفس الحدة:

-رد عليا عملت فيها كده ليه؟

انتزع «شاهين» يديه عنه صائحًا فيه بخشونة كبيرة محذرًا إياه من التمادي في معاتبته:

-نزل إيدك يا «آمن» وملكش دعوة باللي بأعمله في أهل بيتي!

تشكل على شفتي «شريفة» ابتسامة ساخرة، ثم استطردت قائلة بجمود متعمدة استثارة أعصاب ابن أخيها واستفزاز نزعته الذكورية:

-شكل المحروسة شافت نفسها عليك يا «شاهين» ونسيت هي مين!

التفت «آمن» ناحية عمته يرمقها بنظراته الحانقة قبل أن يهتف محذرًا وهو يشير بسبابته:

-هدي الجو يا عمتي شوية، مش ناقصة حريقة هي!

جثت «هنية» على ركبتيها أمام «أسماء» لتتفقدها وتعاونها على النهوض، أشفقت على حالها قائلة:

-عيني عليكي يا بتي، زعلتي جوزك في إيه عشان يعملك فيكي كده؟!

ردت «أسماء» من بين نحيبها:

-أنا ماليش قعاد في البيت ده بعد ما مد إيده عليا، ليا لي أهل يعرفوا يجبولي حقي!

وكأن في كلماتها الفتيل لإشعال قنبلة غضبه الموقوتة، فبلا إعادة تفكير اندفع «شاهين» نحوها قاصدًا الاعتداء عليها مجددًا بالضرب، ارتفع صراخها الفزع من طريقته الهمجية في التعامل معها، فشل «آمن في كبح ثورته المنفعلة، وتلقى لكمة عنيفة أسفل فكه أجبرته على الارتداد للخلف، توسلته «هنية» أن يتركها قائلة:

-يا ابني كفاية، هتموت في إيدك!

ردت عليها «»شريفة» بعتابٍ مصطنع:

-جرى إيه يا ولية، ما تسيبي ابنك يربي مراته، عاوزاها تسوق عليه العوج ويسكتلها، دي حتى وحشة في حقه

ضاعفت بجملها المؤججة نيران «شاهين» المستعرة، فازداد شراسة مع «أسماء» وغرز أصابعه في خصلات شعرها قاصدًا اقتلاعه من جذوره، ثم جرجرها منه إلى خارج المنزل متعمدًا طردها بطريقة مهينة:

-برا يا بت الـ .....، خلي اللي بتحميلهم ينفعوكي!

وأتبع إلقائها بركلة قوية في أسفل بطنها قضت على آخر ذرة مقاومة امتلكتها معه، أسرع «آمن» بالدفاع عنها مانعًا إياه من تلمسها مجددًا، ومع ذلك لم يكف «شاهين» عن إفراغ غضبه فيه أيضًا، فاض بـ «آمن» الكيل من تصرفاته الطائشة فانفعل عليه قائلاً:

-ابعد عنها بقى، إنت إيه مش بني آدم!

لكزه «شاهين» بقسوة في صدره بقبضتيه وهو يرد بصوته الأجش:

-ملكش فيه، أني حر معاها

ثم أضاف باستهجان:

-وبدل ما تقف في صف الحريم استرجل يا خرع!

استشاط «آمن» من إهانته اللاذعة له فحذره بتشنجٍ:

-لم لسانك يا «شاهين»

ضربه أخاه مجددًا في كتفه مضيفًا باستخفاف:

-روح يا «آمن» شوف مذاكرتك وسيب الخناقات للرجالة، يالا اتمشى!

ورغم قسوة إهاناته إلا أنه رفض التخلي عن تلك المسكينة التي ربما ستلقى حتفها إن تركها له، ورد عليه بقوة:

-كفاية إنت تستقوى على الحريم يا راجل!

أظلمت نظرات «شاهين» على الأخير ورد متحديًا:

-تحب أوريك أني راجل إزاي

وقبل أن يتطور الوضع بينهما إلى شجار بالأيدي كان الحاج «إبراهيم» يضرب بعكازه الدرج صائحًا بنبرة عالية لكنها صارمة أخرست الجميع:

-»شـــــــاهين»

ظن «آمن» أن في حضوره المهيب إنصافًا للمظلوم ونصرة له، لن يرتضي أبدًا بتصرفات أخيه المتهورة، سيجد فيه المدافع عن الحق، ارتسمت علامات الارتياح على وجهه وراقبه باهتمام كبير، تابع الحاج «إبراهيم» متسائلاً:

-إيه اللي بيحصل هنا؟

أجابه «شاهين» بصوته المحتقن ومشيرًا بيده نحو زوجته:

-مراتي خرجت عن طوعي يا جدي فبربيها، والبيه «آمن» مش عاجبه، بيحاميلها

هتفت «أسماء» مستغيثة:

-إلحقني يا حاج «إبراهيم»

نظر لها الحاج «إبراهيم» مطولاً بنظرات لم تستطع أن تفهمها، لكن كان واضحًا على وجهه الصارم أنه لن يدعمها، أبعد أعينه عنها آمرًا:

-خدي بت «أبوزيد» على جوا يا «هنية»

ردت عليه «أسماء» بصوتها الباكي:

-أنا عاوزة حقي من حفيدك

نظر لها بقسوة قبل أن ينطق بجمود ضاربًا بعكازه الأرضية:

-لما الرجالة تتكلم الحريم تنخرس، وإلا قسمًا بالله هاتشوفي الوش التاني مني، وما هاعمل حساب لأبوكي أو لغيره!

رمقته بنظرات متحسرة، لن ينصفها أبدًا، سيقف إلى جوار من هو من صلبه حتى لو كان مخطئًا، هكذا اعتادت عائلته أن تفعل، أن تناصر أفرادها ظالمين أو مظلومين، بينما تجمد «آمن» في مكانه مشدوهًا ومصدومًا من حدته معها، زادت خيبة أمله حينما وجه حديثه له قائلاً:

-وإنت يا «آمن» روح شوف دراستك أحسن، مايبقاش قلبك رهيف كده، ولو عاوز تكبر يبقى على حد غير أخوك

تجمدت تعابير وجهه من إحراجه بذلك الأسلوب المخزي، ومع ذلك رد

بشجاعةٍ:

-اللي بيحصل هنا افترى، وأنا مش هاسكت وأسيب بنات الناس تتمرمط بالشكل ده!

رد عليه جده بجمود:

-لما يبقالك بيت ومَرَة ابقى اتصرف معاها زي ما إنت عاوز، ومحدش فينا هيتدخل!

في حين أضاف «شاهين» قائلاً بنبرة جافة ليزيد من شعوره بالحرج:

-سامع الكلام يا أبو المفهومية!

اكتسى وجهه بحمرة قوية لتصغير شأنه علنًا أمام الجميع وكأن رأيه لا يهم أحدًا، بل وشعر بجرح عميق في كرامته الرجولية، لم يكن أمامه سوى الانسحاب فورًا من المكان ليحفظ ماء وجهه، لم ينبس بكلمة وانطلق مهرولاً نحو الخارج كاظمًا في نفسه غضبه وضيقه.

***

انتهت عطلتها الأسبوعية في منزل جدتها، وحان وقت العودة إلى المدرسة، أعدت حقيبتها الصغيرة بما يلزمها ثم سارت بصحبة عمتها عبر الطريق الزراعي الذي مازالت تهابه رغم محاولتها التغلب على مخاوفها منه، أرادت «دينا» إلهاء عقلها عن استعادة أي ذكرى أليمة ماضية ففكرت في الثرثرة مع عمتها في ذلك الموضوع الذي شغل بالها مؤخرًا، عضت على شفتها السفلى متسائلة بحذرٍ:

-عمتي، هو أنا «سوسو» هتجيلي امتى؟

التفتت «هانم» نحوها لتنظر لها باستغراب ثم ردت متسائلة:

-مين «سوسو» دي؟ واحدة صاحبتك في المدرسة ولا إيه؟

أجابتها عفويًا:

-لأ، دي اللي بتيجي للبنات كل شهر عشان يبقوا كبروا، بس أنا لسه مجاتليش

شهقت «هانم» مصدومة مما تفوهت به، لم تتوقع مطلقًا أن تجري ابنة أخيها معها ذلك الحوار الحرج بلا خجل، نهرتها معنفة إياها بغلظة:

-إيه الكلام ده يا «دينا»؟

قطبت ابنة أخيها جبينها مستنكرة تعنيفها غير المبرر لها، انزعجت «هانم» من نظراتها نحوها فتابعت متسائلة:

-وبعدين إنتي عرفتيه منين؟

أجابتها بتلقائية:

-من أصحابي

توقفت عمتها عن السير لتمسك بها من ذراعها، شددت من قبضتها عليه لتقول بتحذيرٍ شديد اللهجة:

-عيب تتكلموا في الحاجات دي، هو إنتي رايحة المدرسة عشان تحكي في قلة الأدب؟ حسك عينك أسمعك بتسألي ولا بتكلمي في الكلام ده، إنتي لسه صغيرة، سامعة وإلا والله هاقول لستك «نعمت» وإنتي عارفة هي هاتعمل فيكي إيه!

ارتاعت «دينا» من تهديدها الصريح فأومأت برأسها قائلة:

-حاضر، مش هاتكلم خالص

رمقتها بنظرة غاضبة قبل أن تترك ذراعها لتأمرها بجفاءٍ:

-ويالا مدي في خطوتك خلينا نلحق ميعادنا!

-طيب

قالتها «دينا» بصوت حزين متابعة سيرها بخطوات شبه متعجلة لتلحق بها، عاتبت نفسها لكونها قد تسرعت في الحديث معها في ذلك الشأن معتقدة أنها ستوضح لها ما لم يفهمه عقلها الصغير، ظلت عابسة الوجه حتى وصلت كلتاهما إلى موقف سيارات الأجرة، كالعادة كان المكان مزدحمًا بحشود من البشر، استدارت عمتها نحوها لتأمرها بجدية:

-اقعدي على الدكة دي، وخلي الشنطة جمبك وماتتنقليش من مكانك لحد ما أحجزلنا مكان

ردت بهدوء:

-ماشي

انخرطت «هانم» وسط الزحام باحثة عن طريقها بين أجساد البشر لتصل إلى أحد سائقي الحافلات، تعذر عليها الوصول لأحدهم فتراجعت مستاءة للخلف، لكنها قابلت مصادفة «جاد» الذي انفرجت شفتاه عن بسمة سعيدة فور أن رأها، رحب بها قائلاً بودٍ كبير:

-ازيك يا ست الكل؟

ردت مبتسمة ومحاولة إخفاء الإرهاق البادي على تعبيراتها:

-الحمد لله يا ريس «جاد»، تسلم على سؤالك

سألها مهتمًا:

-خير، بتعملي إيه هنا؟

أجابته بحيرةٍ:

-كنت عاوزة أحجز تذكرتين ليا ولبت أخويا، بس زي ما إنت شايف، الناس هنا أكوام فوق بعضها

-عنك يا ست الكل، إنتي جيتي في جمل، هايكونوا عندك في ثواني، ارتاحي إنتي بس

أشعرتها كلماته البسيطة باهتمامه الواضح بها، توترت لمجرد اختبار ذلك الشعور الغريب الذي انتابها ناحيته، ثم ردت مجاملة:

-تعيش يا رب، أني كده بأتعبك

رد عليها بجدية:

-ماتقوليش كده، اقعدي إنتي جمب بت أخوكي وأني هاخلصلك اللي إنتي عاوزاه، ده أني تحت أمرك

ابتسمت قائلة بامتنان:

-تسلملي يا ريس «جاد»

تعلقت أنظارها ببقايا أثره متوهمة في نفسها أنه حقًا يهتم لأمرها، لكنها عادت إلى أرض الواقع مذكرة نفسها بحقيقتها المريرة، أنها نصف أنثى لا تصلح للزواج بسبب تشوهاتها الداخلية التي ستجبر أي رجل على النفور منها ليلة عرسهما فور أن يرى جسدها، وهي لن تتحمل ذلك الشعور المقيت مطلقًا، حتى وإن تحمل الأمر فلن تصمد أمام نظرات العطف والشفقة، لذا الأسلم لها أن تقضي على ذلك الإحساس منذ بدايته قبل أن يتعمق أكثر فيها، لمعت عيناها بدمعاتٍ حزينة فمسحت طرفي مقلتيها سريعًا قبل أن ينتبه

لها أي أحد ثم اتجهت إلى ابنة أخيها لتجلس إلى جوارها، حل الصمت على كلتيهما حتى قطعته هانم مرددة باستغراب:

-الله! مش ده سي «آمن» اللي قاعد اليمة التانية

التفتت «دينا» عفويًا إلى حيث أشارت عمتها لتجده بالفعل جالسًا على المقعد شاردًا فيمن حوله، أحست باضطراب طفيف يعصف بقلبها الساكن، ابتسمت بصفاء وهزت ساقيها بسعادة عندما أضافت «هانم» بجدية:

-بينا نسلم عليه، مايصحش نشوفه ونطنش، ده برضوه فضله علينا كبير!

ظلت ابتسامتها الرقيقة مرسومة على ثغرها وهي تسير في اتجاهه، لم تعرف لماذا امتلأت بهذا القدر من الحماس لمجرد ذهابها إليه، لاحظت عبوسه المرئي للعيان، وعينيه اللتين تخفيان تعاسة مقلقة، نظرت له مطولاً محاولة سبر أغوار عقله لتفهم ما الذي يحزنه هكذا، لكنها شردت في مواقفهما معًا، وتزاحم في عقلها مشاهدهما سويًا حينما كان يحنو عليها بعطفه الزائد، لم تدرك أنها تطالعه بنظرات تحوي حبًا من نوع مختلف، أو ما يطلق عليه حُب المراهقة، على الجانب الآخر كان «آمن» حزينًا في نفسه من خذلان عائلته له في أكثر المواقف جدية واستهتارهم بدفاعه عن الضعيف، اختبر سخريتهم لأسلوبه الذي يحمل الرفق مع المحتاج واللين مع ذي الحاجة، فلم يعد قادرًا على تحمل المزيد، اكتفى من الاستخفاف والسخرية، لم يشعر بالعينين المعلقتين به، كان محدقًا في الفراغ، تعجبت «دينا» من شرود نظراته وعدم رؤيته لها رغم وقوفها قبالته، انتزعها من تحديقها الجريء فيه صوت عمتها المتسائل باهتمام:

-الجماعة بخير كلهم؟

رد «آمن» باقتضاب:

-الحمد لله

ما أصاب «دينا» بالإحباط هو تجاهله غير المعتاد لها، تذكرت امتلاكها لقطعة من الحلوى ففكرت ببراءة في إهدائها له كنوع من الترويح عن نفسه، دست يدها في جيبها لتخرجها ثم مدتها نحوه قائلة:

-اتفضل

طالع «آمن» يدها الممدودة إليه بنظرات غريبة، تشكل على ثغره ابتسامة ساخرة من تصرفها المقلد له، ورغم ذلك رد مجاملاً:

-شكرًا، أنا مش عاوز، كُليها إنتي!

تحرجت من رفضه لها واكتسى وجهها بحمرة خجلة، سحبت يدها سريعًا للخلف رامقة إياه بنظرة حزينة، خابت توقعاتها رغم بساطة عرضها، فقد توقعت أن يُقبل على هديتها بترحاب ودود، أخفضت نظراتها بعيدًا عنه وتراجعت خطوة لتقف إلى جوار عمتها محاولة إخفاء حرجها منه.

-اتفضلي يا ست الكل

قالها «جاد» بصوت مسموع أجبر الجميع على الالتفات ناحيته، تفاجأ «آمن» بوجوده فسأله مستفهمًا:

-بتعمل هنا إيه؟

أجابه بنبرة عادية:

-كنت بأحجز تذاكر للست «هانم» وبت أخوها

هز رأسه تفهمًا وهو يرد:

-طب تمام

قطع عليهم حديثهم صوت أحدهم اللافت للانتباه وكذلك للأنظار:

-يا سي «آمن»، إلحق يا سي «آمن»

استدار الأخير ناحيته ليسأله بجدية وقد اشتدت ملامحه:

-في إيه؟

أجابه بصوتٍ لاهث:

-في مضاربة كبيرة بين أخوك سي «شاهين» وعيلة «أبوزيد» يمة الأرض بتاعتكم!

ارتجفت أطراف «دينا» لمجرد سماع اسم ذلك الشخص، بينما اتسعت حدقتي «آمن» على الأخير ليردد بعدها بصدمة:

-بتقول إيه؟

تابع الرجل مفسرًا بإيجاز ما حدث من مشادة عنيفة بين طرفي العائلتين انتهت بعراك شرس وتشابك خطير، انقبض قلبه خوفًا على أخيه متوقعًا انتقام عائلة «أبوزيد» منه لاعتدائه الوحشي على ابنتهم، لن يمرروا المسألة على خير، فهي لها مكانتها عند والدها، ابتلع ريقه صائحًا بتوجس كبير ظهر في نبرته:

-أنا رايح لأخويا، مش هاسيبه لوحده معاهم!

ثم اندفع مسرعًا بدون تفكير لنجدته دون أن ينتبه في طريقه لـ «دينا» التي لكزها بقسوة أثناء ركضه في كتفها لترتد للخلف وتفقد اتزانها مُلقية ما في يدها للأمام، ارتطمت بقوة أثناء سقوطها على ظهرها، وأدمعت عيناها تأثرًا من شدة الضربة التي أصابتها بالخدوش والجروح السطحية، ما ضاعف من

حزنها هو رؤيتها لقدم «آمن» تدعس قطعة الحلوى التي وقعت من يدها لتشعر بأنه يسحقها معها، بكت بحزنٍ رغم عدم فهمها لطبيعة الموقف وجديته، لكن تصرفه الأخير معها جعلها تسيء فهمه وتظن أنه مشابه لأخيه في تصرفاته الخشنة بصورة أو بأخرى.

***

ارتفعت الأصوات الغاضبة وامتزجت زمجرتها مع أصوات الضربات والركلات بين الرجال المتلاحمين، فلم يقبل رَبُ عائلة «أبوزيد» أن تُهان ابنته بتلك الطريقة المخزية على يد زوجها دون أن يرد اعتبارها وكرامتها المهدورة، حشد من رجال العائلة من استطاع ثم اتجه نحو أرض عائلة الحاج «إبراهيم» قاصدًا الاشتباك مع حفيده، علم الأخير بنوايا حماه فأسرع بجمع أقربائه ليشكلوا الدعم له في مضاربته الشرسة معه، وصل «آمن» إلى الأرض الزراعية ليجد «شاهين» في وضع لا يُحسد عليه، انقض على أحدهم ممسكًا إياه من تلابيبه ومسددًا لكمة عنيفة في وجهه ليمنعه من ضرب أخيه غدرًا من الخلف وهو يهدر عاليًا:

-خد بالك يا «شاهين»

استدار الأخير نحوه ليتفاجأ بوجود أخيه الأصغر، تحمس كثيرًا للاشتباك في حضرته وإثبات رجولته أمامه، وظل يكيل اللكمات لكل من يقترب منه، لم ينتبه «آمن» للقادم من خلفه، فتلقى ضربة قوية في كتفه أسقطته أرضًا، حاول أن يفيق منها لكن منح ذلك الفرصة لشقيق «أسماء» لمعاودة الكَرَة معه، وقبل أن يهوى عليه بعصاه الغليظة على رأسه، وخزه «شاهين» بالمدية في جانبه مسببًا له جرحًا غائرًا مما طرحه أرضًا، فغر «آمن» ثغره مدهوشًا مما حدث في أقل من لحظات، هتف مصدومًا:

-إنت عملت إيه يا «شاهين»؟

توقف أغلب الرجال عن الاقتتال حينما رأوا دماء الابن البكري لـ «محمد أبوزيد» تنساب بغزارة على جلبابه، تعالت صيحات الاستهجان مرددين:

-ابن الحاج «محمد» اتقتل!

حالة من الذعر انتابت الجميع لمجرد التلفظ بتلك العبارة، فمعنى ذلك تطور الوضع إلى أمر جنائي وتدخل الشرطة، حاول كبار رجال القرية التدخل لاحتواء المسألة، خاصة أن إصابة ابن «محمد أبوزيد» لم تكن بالخطيرة، لكن أصر الأخير على اللجوء لرجال القانون للإتيان بحق أبنائه وليكون «شاهين» عبرة لمن لا يعتبر، تجاهل محاولات العمدة لإقناعه بالعدول عن رأيه والاختصام في المجلس العرفي وتشبث بقراره في الاحتكام لحكم رجال القضاء مما سبب حرجًا كبيرًا للشيخ «رجب» ورجاله وكأن أحكام مجلسه مشكوك فيها، وبعد جلسات متعاقبة امتدت لأشهر في دار القضاء صدر الحكم بمعاقبة «شاهين» بالسجن لمدة خمسة أعوام وتطليق زوجته منه بعد ذلك ليصبح الأمر صادمًا للجميع، وفي نفس الوقت ضربة قاصمة في معقل عائلة «إبراهيم ذكي» جعلت نفوذهم يهتز من جديد بين أهالي قريتهم.

***

الفصل التاسع

ما يقرب من خمسة أعوام انقضت عليها وهي مازالت محافظة على تفوقها الدراسي في كل مرحلة دراسية اجتازتها، نضجت فكريًا وعقليًا وألقت خلف ظهرها أي عقبات يمكن أن تعوقها عن طريقها العلمي، أدانت بالولاء والفضل لجهود عمتها التي تصدت لمعارضة جدتها لتلتحق بالجامعة آنذاك، وحينما سنحت لها الفرصة قررت «دينا» الانتساب لقسم التاريخ بكلية الآداب، كانت شغوفة بكل ما له علاقة به، ربما هي جينات ورثتها عن والديها، لذا أثبتت براعتها وحازت على تقديرات مُرضية لها، انتهت اليوم من آخر امتحاناتها واتجهت إلى بيت الطالبات المغتربات لتعد حقيبتها للسفر، كانت في انتظارها «هانم»، لم تصدق عينيها حينما رأتها، اتسعت ابتسامتها الفرحة مرددة:

-عمتي، إنتي جاية بنفسك هنا

هبت واقفة من الأريكة الجالسة عليها لتسألها بتلهفٍ:

-ها يا بتي عملتي إيه؟ طمنيني

ردت بابتسامة ناعمة:

-الحمدلله، كله تمام

-اللهم لك الحمد والشكر

قالتها «هانم» وهي تضم ابنة أخيها إلى صدرها لتحتضنها بقوة، تراجعت

«دينا» للخلف لتقول لها مداعبة:

-دعواتك بقى ليا

-ربنا وحده اللي عالم، لساني مابيطلش يدعيلك

-بس مكونتيش تتعبي نفسك

-ماينفعش! ده ستك تقلب الدنيا

ألقت «هانم» نظرة سريعة شاملة متفحصة لها، لاحظت فقدانها للوزن ونحول جسدها فسألتها بانزعاج:

-بس مالك خاسة كده وجسمك نحفان؟ إنتي مابتكليش ولا إيه؟

أجابتها ببساطة:

-كنت ملهية في المذاكرة والامتحانات، يعني مش مركزة في الأكل

نظرت لها بعتاب قبل أن تقول:

-نرجع بالسلامة بيتنا وهاعملك المحمر والمشمر خلي الدموية ترد في وشك

عاودت احتضانها من جديد وهي تشكرها:

-تسلميلي يا رب

مسحت «هانم» على وجنتها برفق ثم سألتها:

-قوليلي جهزتي شنطتك؟

أومأت برأسها قائلة:

-أيوه يا عمتي

ردت عليها بجدية:

-طب يالا عشان نلحق ميعادنا، القطر مابيستناش حد

-حاضر

صعدت بعدها «دينا» إلى غرفتها بالطابق العلوي لتأتي بحقيبتها، ودعت صديقاتها بالمكان ووعدتهن باللقاء من جديد مع عودة الدراسة، ثم اتجهت بعد ذلك بصحبة عمتها إلى محطة القطار حيث تنتظرها مفاجأة غير متوقعة.

***

انهمك في الدراسة بعد تلك الأزمة القوية التي عصفت بكيان عائلته وانتهت بسجن أخيه، سافر «آمن» للخارج لاستكمال دراسته العليا وانخرط فيما خطط له من أجل ضمان تحقيق الأهداف التي وضعها لمستقبله بعيدًا عن جو المشاحنات والنزاعات العائلية على قطع الأراضي الزراعية وحتى مشاكل الزواج الأسري، أثر أيضًا ألا يتزوج رغم إلحاح الجميع عليه، فتجربه أخيه السيئة تركت انطباعًا سلبيًا في نفسه مما جعله عازفًا عن الزواج، كان يعلم جيدًا في قرارة نفسه أنه لن يكون نسخة عن أخيه «شاهين»، لذا باتت حلول الدراسة والسفر والعزوبية الأنسب له لفترة من الزمن حتى حان وقت العودة، لكن قبل أن يعود مباشرة إلى منزل عائلته، اضطر أن يعرج على جامعته لتقديم بعض الأوراق الخاصة برسالته البحثية للحصول على الدكتوراه، وما إن انتهى توجه إلى محطة القطار ليحجز تذكرته، قابله أحد رفاقه القدامى فهلل مرحبًا به:

-بشمهندس «آمن»، مش معقول، إيه الصدف الحلوة دي، عاش من شافك، ده إنت سافرت وقولت عدولي بعد ما خدت الإعفاء من الجيش

ابتسم له قائلاً بلطف:

-ما إنت فاهم، الدراسة وكده

سأله بفضول:

-وإيه الأخبار معاك؟ ناوي تقعد هنا ولا هتفضل مسافر برا

رد باقتضاب:

-هاشوف الوضع إيه

ظل رفيقه يثرثر بحماس راغبًا في معرفة المزيد من التفاصيل عنه، وحاول «آمن» على قدر المستطاع مجاراته دون إشعاره بعدم رغبته في الحديث، لم ينتبه للقادمتين من خلفه، كانت «دينا» متأبطة في ذراع عمتها وتجرجر باليد الأخرى حقيبة سفرها، أنهكها الحر والتعب وقضاء لياليها في الاستذكار، لاحظت «هانم» إرهاقها فأمرتها بجدية:

-اطلعي يا «دينا» اقعدي وأني هاحجز التذاكر

-ماينفعش أسيبك يا عمتي

-هو إني هاتوه ولا عيلة صغيرة؟ اطلعي إنتي فوق واقعدي ماطرح ما بنقعد كل مرة

-حاضر

نفذت «دينا» طلبها وصعدت على متن القطار في حين توجهت عمتها إلى الشباك المخصص لحجز التذاكر لتأتي بالتذكرتين، مرت من جوار «آمن» ولم تنتبه له، في حين ودع هو رفيقه على وعد بلقاء جديد، رن هاتفه المحمول الموضوع في جيبه، فأخرجه منه ليجيب على الاتصال الهاتفي، بدا على تعابير وجهه الهدوء وهو يقول:

-وعليكم السلام يا حاج، أنا خلاص هاركب القطر وجاي، ساعة بالكتير وهاكون عندكم

ظل يهز رأسه بإيماءات صغيرة ثم تابع قائلاً:

-حاضر، في رعاية الله!

أنهى المكالمة ثم تلفت حوله متذكرًا أنه لم يحجز بعد تذكرة القطار الخاصة به، فتوجه لشرائها ثم عاد إلى رصيف القطار ليجد إحدى السيدات التي تسبقه في خطواتها قد تعثرت في مشيتها وانكفأت على وجهها وهي تصعد على سلمه، أسرع لمساعدتها قائلاً:

-خلي بالك يا حاجة!

استدارت «هانم» برأسها نحوه لتشكره على مد يد العون لها:

-كتر خيرك يا ابني

اعتلى وجهها تعابير الصدمة حينما رأت «آمن» أمامها، كانت مفاجأة سارة بالنسبة لها، اتسعت ابتسامتها السعيدة قائلة:

-سي «آمن»، عاش من شافك يا غالي

تفاجأ الأخير برؤيتها وبادلها ابتسامات مبتهجة وهو يرد:

-خالة «هانم»، ازيك وازي أحوالك؟

أجابته قائلة:

-الحمدلله في نعمة، إنت عامل إيه، والدنيا أخبارها إيه معاك؟

-كله تمام

ربتت على كتفه قائلة:

-دايمًا يا رب

سألها مهتمًا:

-إنتي راجعة البلد؟

أجابته بتلقائية:

-أيوه

أشار لها بيده متابعًا:

-طب ثواني أحجزلك تذكرة

وضعت يدها على ذراعه لتمنعه قائلة:

-خلاص يا سي «آمن»، ماتتعبش نفسك يا ابن الأصول، أني معايا!

ابتسم لها مضيفًا:

-تمام، والله أنا مبسوط إني شوفتك

-تسلم وتعيش يا رب

صعد «آمن» خلفها على متن القطار ليوصلها إلى مقعدها معتقدًا أنها جاءت بمفردها إلى هنا، ولكن اعترته دهشة صادمة حينما رأى آخر من يتوقعه متواجدًا معها، انتفض قلبه بين ضلوعه في سابقة غريبة لم تحدث معه إلا منذ سنوات حينما كان يبصرها، تسمر في مكانه مدهوشًا من رؤيتها بعد أن صارت أكثر فتنة وأكثر إغراءً رغم بساطة مظهرها، لم تعد تلك الصغيرة الخائفة التي كانت عابسة دومًا، بل صارت شابة مفعمة بالحيوية والجمال، تسلب العقول وتأسر الأنظار، انفرجت شفتاه كتعبير عن صدمته الممزوجة

بفرحته، وما إن رفعت «دينا» عينيها الزرقاوتين لتنظر نحو عمتها حتى رأته قبالتها، قفز قلبها في صدرها وتلاحقت دقاته غير مصدقة أنه هو، وما أكد صدق ما تراه هو قول عمتها:

-مش تسلمي على سي «آمن» يا «دينا»

انتابتها مشاعر مرتبكة وهي تحاول الترحيب به بهدوء زائف، خرج صوتها مهتزًا حينما نطقت:

-إزيك

وكأن صوتها معزوفة ساحرة طربت آذانه وزادت من شعوره المتحمس نحوها، ابتسم لها قائلاً:

-أنا الحمدلله تمام

دنا أكثر من مقعدها ليتأملها عن قرب ويروي ظمأ سنوات عجاف لم يعرف فيها إلا الغربة والوحدة، كانت وحدها القادرة منذ زمن على شغل تفكيره ونقله إلى عالم آخر تكون هي فيه محور اهتمامه الكلي حتى اعتزل كل شيء وبقي حبيس دراسته وانقطع عن معرفة أغلب أخبار أقربائه، لكنها أعادت إليه ذلك الشغف المهتم من جديد بمجرد رؤيتها، دقق النظر في خصلاتها المتسربة من أسفل حجابها البسيط، وحدق في حمرة بشرتها الطفيفة التي زادتها جمالاً، وأمعن النظر في نظراتها المتوترة وهي ترمش بعينيها، حاول التغلب على ذلك الشعور الذي عصف بكيانه، فلا يحق له التفكير فيها أو التطلع إليها بتلك الطريقة، هي لا تخصه، انتابه هاجسًا مزعجًا بكونها قد تخلت عن الدراسة، تبدد خوفه بمجرد أن قالت عمتها بعفوية:

-عارف يا سي «آمن»، «دينا» دلوقتي بقت في تانية تاريخ

غمرته السعادة لمعرفة ذلك، إذًا فهي لم تنقطع عنها، أشعره بالارتياح، تحرج من إطالة النظر نحوها فاستأذن قائلاً:

-حلو أوي، أنا سعيد إني شوفتكم، ودايمًا اسمع عنكم كل خير

استشفت «هانم» من حديثه اللبق رغبته في الانصراف فردت بجدية:

-ماتخليك معانا، ده حتى ...

قاطعها بهدوء وهو يشير بيده:

-معلش، عشان تبقوا على راحتكم، عن إذنكم

لم يضف المزيد ولم يدع لها المجال لتبدي اعتراضها، انصرف «آمن» مبتعدًا عنهما تاركًا أنظار «دينا» معلقة بطيفه الذي رحل، أيقظ وجوده المفاجئ شعورًا طفوليًا تناسته بمرور الأعوام، ظلت شاردة في الماضي الذي جمع بينهما في أوقات محددة، لم تشعر بتلك الابتسامة الصغيرة التي تشكلت على ثغرها، سريعًا ما تلاشت مع سؤال عمتها:

-أجيبلك تشربي حاجة يا بتي؟

تنحنحت قائلة بتلعثم:

-لأ يا عمتي، تسلمي!

ثم التفتت برأسها نحو النافذة لتحدق في الفراغ وثغرها يعلوه بسمة صغيرة قاومت ظهورها في البداية لكنها استسلمت لتأثيرها.

***

وضع يده أعلى جبينه المتعرق ليدقق النظر في نهاية القضبان الحديدية آملاً

أن تكون عربات القطار قد اقتربت، لم يظهر له شيء على مدار بصره فزفر في ضيق، ثم التفت ناحية والده وعمته وأقاربه ممن جاءوا لاستقبال الحفيد الغائب، أراد «شاهين» مفاجأة أخيه الأصغر، فلم يخبره أحد بانتهاء مدة عقوبته وخروجه من محبسه، وقف مع البقية مترقبًا وصوله في أي لحظة، انتبهوا جميعًا لصوت الصافرة المميزة للقطار، تأهبوا في وقفتهم وبدأوا في الاستعداد لرؤيته، وضع «أمين» يده على كتف ابنه ضاغطًا عليه وهو يقول:

-أخوك هايفرح أوي لما يشوفك

تشكلت ابتسامة متحمسة على شفتيه قائلاً:

-ما أني قاصد أعملهاله مفاجأة

ربت والده من جديد على كتفه متابعًا:

-ربنا يجمع شملكم على خير ولا يبعدكم عنا تاني

رد عليه «شاهين» بصلابة:

-السجن للرجالة يا حاج

هز «أمين» رأسه قائلاً:

-أني عارف، بس غيابك كان صعب علينا كلنا

فرك «شاهين» طرف ذقنه عدة مرات ثم قال:

-أهي فترة وعدت

بدا وجه أبيه ممتعضًا وهو يرد:

-الله لا يعودها دي أيام

-شوفوا كده «آمن» نزل من القطر ولا لسه

قالتها «شريفة» بنبرة عالية من الخلف لتلف انتباههما حينما لاحظت ثرثرتهما الزائدة، استدار «شاهين» نحوها قائلاً:

-حاضر يا عمتي!

لحظات وبدأ الركاب في النزول من عربات القطار، تركزت أنظار «شاهين» على أوجه الخارجين منه، وما إن أبصرت عيناه أخيه قادمًا من بعيد حتى صاح عاليًا وهو يلوح له بصوته الجهوري المميز:

-»آمـــن»

تجمد الأخير في مكانه مصدومًا غير مصدق لسماعه لذلك الصوت المألوف، بحثت حدقتاه سريعًا عن أخيه، قفز قلبه طربًا لرؤيته واقفًا بزهو بين الحاضرين، وارتسمت على تعابيره علامات السعادة، أسرع في خطاه مرددًا بحماس:

-»شاهين»

أقبل عليه ليحتضنه بعاطفة مشتاقة رابتًا على ظهره بقوة لعدة مرات، لمعت عيناه تأثرًا وهو يقول:

-أنا مش مصدق نفسي، إنت بنفسك هنا

رد عليه «شاهين» بصوته الأجش:

-نورت بلدك يا أخويا، بالله موصيهم محدش يقولك عشان افاجئك بنفسي

رد عليه ممتنًا:

-أحلى مفاجأة

تقدم والده منه ليضمه إلى صدره قائلاً بترحاب:

-حمدلله على سلامتك يا «آمن»

احتضن والده مردداً:

-الله يسلمك يا حاج، والله كلكم وحشتوني، كل حتة هنا وحشاني أوي، ياه، أنا حاسس إني رجعت بالزمن لورا

-الكل مالوش سيرة النهاردة إلا جيتك يا «آمن»، نورت بلدك يا حبيبي

قالتها «شريفة» بابتسامة باهتة وهي تدنو بشموخ منه، تأملها ابن أخيها بنظرة شاملة، مازالت محتفظة بطريقتها المتعالية في التعامل والحديث، ابتسم لها قائلاً:

-تسلمي يا عمتي!

في نفس التوقيت، ترجلت كلاً من «دينا» وعمتها من عربة القطار لتبدأ كلتاهما في السير في اتجاه المخرج، لكن استوقفتها «هانم» قائلة بجدية:

-مش واجب نسلم على الجماعة

تسائلت «دينا» بعدم فهم:

-أنهو جماعة؟

أجابته بنفس الملامح الجادة:

-عيلة الحاج «إبراهيم»، كلهم متجمعين هناك أهوو بيسلموا على «آمن»

مجرد ذكر اسمه أصابها بحالة غير مفهومة من الارتباك والتخبط، شعرت بتورد خفيف يجتاح وجنتيها، حاولت التغلب على ذلك التوتر المريب الذي

اعتراها فجأة لتقول بعبوس:

-بس احنا مالناش دعوة بيهم

-أهوو يا بتي واجب ولازم نقوم بيه

عضت على شفتها السفلى قائلة باستسلام:

-طيب

تقدمت عمتها أولاً في خطواتها لتقترب منهم لترحب بعودته، في حين أبطأت «دينا» في خطاها كي تتجنب ذلك النوع من المجاملات المربكة، مررت أنظارها سريعًا على أوجه الواقفين، شعرت بانقباضة قوية في قلبها حينما لمحت صاحب الوجه الصارم الذي كان يكركر عاليًا بخشونة، لم تنسَ ملامحه رغم مرور السنوات، تهدجت أنفاسها بشكل ملحوظ، تذكرت قسوته وشراسته، وما ضاعف من إحساس الخوف الذي تملكها فجأة هو التقاط عيناه لنظراتها المتوترة نحوه، تسمرت قدماها في مكانها عاجزة عن التقدم خطوة واحدة، بدت كمن رأى شبحًا للتو، اقتربت منها عمتها لتثرثر بجوارها، بدا صوتها بعيدًا رغم التصاقها بها، ارتاعت «دينا» أكثر مع رؤيتها لوجه آخر مفزع لم ترغب أبدًا في التطلع إليه أو حتى رؤيته ما حيت، شحبت ملامحها بطريقة مخيفة وعقلها يعاود تجسيد مشهد ذبح طفولتها بكل تفاصيله المرعبة، لم تتحمل معايشة نفس الذكرى مع أصحاب القلوب القاسية، قررت أن تستسلم للهروب الإجباري الذي فرضه عليها عقلها، شعرت بأن الأرض تميد بها وأن الظلام يغلف عينيها، مالت بقوة نحو عمتها لتسقط في أحضانها، شهقت الأخيرة هاتفة بصدمةٍ:

-بت أخويا

أمسكت بها جيدًا كي لا ينفلت جسدها من بين ذراعيها فترتطم بالأرضية وتتعرض للأذى، انتفض قلب «آمن» بين ضلوعه لانهيارها المريب، أسرع نحوها ليسندها مع عمتها متسائلاً بتوجس:

-حصلها إيه؟

أجابته بحيرة:

-مش عارفة يا ابني، ما هي كانت كويسة وبخير

-طب عنك يا خالة!

قالها «آمن» وهو يمرر ذراعيه أسفل جسد «دينا» ليحملها ثم اتجه بها إلى أقرب مقعد حجري للركاب ليمددها عليه، جثا على ركبته أمامها وأمسك بكفها يفركه بين راحتيه هامسًا لها بحنو مثير:

-»دينا»، سمعاني، «دينا» ردي عليا

لطمت «هانم» على صدرها وهي تولول:

-عيني عليكي يا بتي، اتحسدتي ولا إيه، ما إنتي كنتي كويسة وزي الفل، جرالك إيه بس!

رد عليها «أمين» بامتعاض:

-بطلي ندب خلينا نشوف مالها

ظنت أنها فقدت وعيها للإرهاق الشديد والمجهود الزائد الذي بذلته خلال الفترة الماضية، راقب «شاهين» ما يفعله «آمن» بنظرات مهتمة دون أن يتدخل في مساعدته، لكن رؤيته لوجهها المألوف أثار فيه الفضول، وعلى عكسه تابعت «شريفة» الوضع بنظرات غامضة مليئة بالقسوة، أحست

بدمائها تغلي في عروقها لاستحواذ تلك البائسة على اهتمام من حولها خاصة «آمن»، أرادت أن تثير نزعة الغيرة في نفس الحفيد البكري وفي نفس الوقت تهينها، تحركت صوب «شاهين» حتى وقفت بجواره ثم ربتت بقوة على ظهره قائلة بتجهم لتلفت انتباهه:

-ده باينه دلع مِرق، شكل عروستك بتدلع عليك يا «شاهين»؟

وكأنها بكلماتها الموحية قد ذكرته بالاتفاق الذي تم عقده قبل سنوات وذهب مؤقتًا في طي النسيان، نظر نحوها كالأبله للحظات قبل أن تكمل بنبرة ذات مغزى:

-مش المحروسة لسه خطيبتك بردك ولا أني نسيت!

وجوم عجيب سيطر على ملامح وجه «هانم» التي صدمت من حديثها الجاد، لم تنسَ بعد الاتفاق القديم وأعادت إحيائه بتذكير من حولها عن عمد به، استدارت «شريفة» برأسها نحو «آمن» لتقول بتجهم:

-مش إنت حضرت الاتفاق ده زمان يا «آمن»، خلي أخوك يطمن بنفسه على عروسته الجديدة!

اخترقت عباراتها آذانه فأشعرته بالحرج من تصرفه الجريء رغم نواياه الصافية، اعتدل في وقفته ليفسح المجال لأخيه ليهتم بـ «دينا»، أحس بالانزعاج والضيق لتخليه عنها مجبرًا، ضغط على شفتيه بقوة كوسيلة للتنفيس عما يجيش في صدره من مشاعر مضطربة، ارتفع حاجباه للأعلى في استنكار كبير وتصلبت تعبيراته حينما رأى عمته تقذف بالماء الموجود في الزجاجة التي بحوزتها كليًا في وجه «دينا» لإفاقتها بوقاحة، صاحت فيها «هانم» بعتاب:

-طب ليه كده بس يا «شريفة»؟

نظرت لها الأخيرة من طرف عينها قائلة بتعالٍ قاسٍ:

-اسمي الست «شريفة» ماتنسيش نفسك معايا

رد عليها «أمين» محذرًا:

-بالراحة يا «شريفة»، مش كده

نظرت له من طرف عينها لتقول بكبرياء زائف:

-خلي كل واحد يعرف مقامه، ولا خلاص القوالب نامت والإنصاص قامت!

ثم عاودت تكرار الأمر وأفرغت محتويات الزجاجة في وجه «دينا» التي سعلت متأثرة من اختراق الماء لجوفها وأنفها في نفس الآن، ثم بدأت في الاستفاقة واستعادة وعيها، حدقت «هانم» في وجه «شريفة» بنظرات مغلولة تريد الفتك بها لكنها كتمت غيظها في نفسها منعًا للفضائح لتقول نفسها:

-ربنا ينتقم منك يا بعيدة ولا تشوفي يوم طيب أبدًا!

أفاقت «دينا» من غيبوبتها المؤقتة لتجد وجوهًا كثيرة محدقة بها، احتضنتها عمتها لتساعدها على الاعتدال في جلستها قائلة:

-على مهلك يا بتي؟

تساءلت «دينا» بصوت واهن:

-هو حصل إيه؟

أجابتها «شريفة» بتهكم:

-غميتي يا بت الخواجاية عشان تلمي الرجالة حواليكي

استشاطت نظرات «هانم» من أسلوبها الفظ في الإساءة إليها وردت مدافعة

عنها:

-حرام عليكي، هو كان بإيدها؟

استاء «آمن» كثيرًا مما يحدث وصاح بغلظة طفيفة:

-كفاية كلام، المهم إنها فاقت

حركت «دينا» رأسها نحوه لتتأمل وجهه البشوش المطمئن، ما أفسد تأملها صوت «شاهين» المتسائل:

-إنتي كويسة؟

نظرت له بشيء من الخوف قبل أن تومئ برأسها كبديل عن الرد عليه، بينما أضافت عمتها بحنوٍ وهي تمسح بقايا الماء عن وجهها:

-اسندي عليا يا بتي

هزت «دينا» رأسها بالإيجاب وأنزلت ساقيها برفق عن المقعد الحجري، وقبل أن تنهض من مكانها انحنى «شاهين» نحوها ليحملها، تفاجأت بما فعله ونظرت له بتوتر مفزوع، بادلها نظرات قوية قائلاً:

-وتمشي ليه وأني موجود!

أراد في نفسه أن يشعرها بقوته ومقدرته على التعامل معها مثلما فعل أخيه، فقد أوقظت عمته في نفسه ما ذهب أدراج الماضي، بل وأشعلت بداخله رغباته المكبوتة لسنوات عجاف، سار متباهيًا بحملها وهو يتقدم الجميع نحو السيارة الخاصة بالعائلة، كادت «دينا» أن تموت في جلدها من اقترابه المهلك ومن أنفاسه التي تلاطم بشرتها وهي تتطلع إليه بنظراتها الخائفة، ارتجفت من تلمسه الحذر لها، فبالرغم من مضي الزمن إلا أن أسلوبه الجاف

والقاسي في المعاملة لم يغب عن ذاكرتها، أنبئها حدسها أن ما يفعله معها ما هو إلا استعراض زائف للتفاخر بنفسه وإحراجها، تمنت لو لم تكن واعية فلا تراه أبدًا أو تعايش ذلك الموقف الحرج من جديد، ازدردت ريقها بتوتر لتهمس له بصوتها المهتز:

-أنا أقدر أمشي، لو سمحت نزلني

وكأنها لم تتفوه بكلمة، تجاهلها عمدًا وأكمل سيره حتى بلغ السيارة ثم رد هامسًا بكلمات موحية:

-في بيتك يا عروسة!

جفل جسدها من جملته الأخيرة وشعرت بأن الدماء قد فرت من عروقها لمجرد تحدثه بتلك الطريقة، ظلت محدقة به بشكل مصدوم حتى أنزلها على قدميها، اعتدلت في وقفتها متلفتة حولها بخوف، أرادت الهروب من حصاره المخيف قبل أن تتأذى مجددًا من وجوده حولها، وقعت عيناها المرتاعتان على وجه «آمن» الذي كان يبادلها نظرات عاجزة مليئة بخيبة الأمل، شردت في تأمل عينيه وقرأت الحزن بوضوح فيهما، لم تتمكن من تفسير لماذا هو عابس وبائس لتلك الدرجة، لكن طريقة تطلعه لها أشعرتها بوجود خطب ما، شيء سيشكل منحنًا جذريًا في حياتها.

***

الفصل العاشر

هاجت وماجت وخرجت عن هدوئها المعتاد بمجرد أن عرفت من جدتها وعمتها تفاصيل ذلك الاتفاق القديم الذي تم الزج بها فيه لتكون طرفًا إجباريًا غير قادرة على المناص منه أو حتى إبداء رأيها ورفضه، كانت «شريفة» متعمدة وضع البنزين بجوار النيران لتضمن احتراق الأجواء، وهذا ما حدث قبل يوم في محطة القطار، أقامت الدنيا وأقعدتها في منزل عائلة «صبري»، احتقن وجه «دينا» بحمرة جلية وارتفعت نبرة صوتها صارخة باحتجاج:

-اشمعنى أنا؟

ردت جدتها بجمود وهي تطالعها بنظراتها الحادة:

-ده نصيبك

أضافت عمتها بتوجسٍ:

-يا بتي اهدي وافهمي، الوضع زمان مكانش يستحمل .....

قاطعتها رافضة الإنصات:

-تقوموا تقرروا تجوزوني لواحد زي ده رد سجون ومعروف عمل إيه مع مراته، ده أنا بأترعب لما بأشوفه، نسيتوا عمل فيا إيه زمان وأنا عيلة ومش فاهمة حاجة؟ نسيتوا قرايبه ودبحهم ليا؟ إزاي عاوزيني أتجوزه وأعيش معاه؟!

وكأن صراخها المنفعل لم يحرك شعرة واحدة من مشاعر جدتها، لم تكترث بغضبها وردت بقسوة:

-بكرة تتعودي عليه، بس ده قدرك معاه

اقتربت منها لتصيح بنفس الرفض العنيد:

-لأ مش هايحصل، أنا مش هاتجوزه لو انطبقت السماء على الأرض، مش هاضيع كل حاجة تعبت فيها ووصلتلها عشان واحد زي ده جاهل وسوابق

ردت عليها جدتها بصرامة:

-بأقولك إيه الذنب من الأول ذنب أبوكي، خرج عن طوعنا واتجوز أمك الخواجاية واحنا اتحملنا اللي حصل، واتبهدلنا بسببه، جه الدور عليكي تشيلي همك بنفسك، محدش فينا هايمنع المقدر والمكتوب.

-ده أنا حفيدتك، ترضي تبيعيني؟

ردت ببساطة وهي تنهض من جلستها على الأريكة الخشبية:

-ده مش بيع، هما طلبوكي للجواز زمان وأني وافقت، كتر خيرهم إنهم سبوكي تتعلمي ومحدش اعترض

اختنق صوتها وهي ترد بنبرة أقرب للبكاء:

-حرام والله اللي بيحصل ده، إنتو بتحرموني من أبسط حقوقي

نظرت لها جدتها مليًا قبل أن تقول بجدية:

-يكون في معلومك طالما «شاهين» حطك في دماغه يبقى هيتجوزك

استنكرت قسوة قلبها معها وانفجرت في البكاء المرير رافضة تصديق ما خططه الجميع رغمًا عن إرادتها في الماضي، أشفقت عليها عمتها التي كانت تقف مكتوفة الأيدي عاجزة عن دعمها في موقفها، احتضنتها بعاطفة حنونة قائلة لها بنبرة مواسية علها تخفف من حزنها:

-اهدي يا «دينا»، ربك إن شاء الله هايدبرها ويحلها من عنده

ردت عليها ابنة أخيها بنحيب:

-إنتو بعتوني لناس معندهاش رحمة

أدمعت عيناها قائلة:

-كان غصب عننا، أبوكي وعمك راحوا في ساعة واحدة، واحنا ولايا لوحدنا، والمجلس حكم بده

صاحت صارخة بعويل:

-ده ظلم مش حكم ربنا

حاولت تهدئتها قائلة بيأس:

-هنعمل إيه بس؟

نظرت لها بعتاب وهي تكمل بصوتها الباكي:

-وذنبي أنا إيه أقضي حياتي مع واحد .....

مدت «هانم» يدها نحو وجنتها لتمسح عليها وقاطعتها قائلة برجاءٍ:

-كفاية يا بتي ماتقطعيش في قلبي

كفكفت «دينا» عبراتها قائلة بتفكير متهور:

-أنا مش هاستنى ده يحصل، احنا نسيب البلد ونعيش في حتة تانية، لينا إيه هنا

نهرتها عمتها بخوف انعكس حتى في نظراتها إليها:

-ماتقوليش كده، ستك لو سمعتك هتزعل أوي، وبعدين هنسيب حالنا ومالنا

ونتبهدل في العمر ده

ردت عليها متسائلة:

-يعني يرضيكي أدفن بالحيا؟

هزت «هانم» رأسها بالنفي وهي تقول:

-إن شاء الله مش هايحصل، إدعي ربك وهو عليه الاستجابة، تبات نار يا بتي تصبح رماد

رفعت «دينا» رأسها للسماء ثم قالت بنبرة متوسلة وقد زاد انهمار عبراتها:

-يا رب خلصني منهم!

***

أشعلت في رأسه ما تناساه بفعل الزمن والأحداث الأخيرة، بل إنها ألهبت مشاعره التي كبتها بصعوبة وأعادت سيل الخيالات الجامحة إلى عقله لتؤجج بقوة رغبته في الزواج من جديد، لم تغب الفكرة عن بال «شاهين» منذ طرحها، ولم يتوقف عقله عن التفكير في «دينا» التي امتلكت مفاتيح الجمال كما حدث نفسه، هي صارت ضيفة أحلامه مؤخرًا؛ تفتنه في منامه بسحرها المثير، وإغرائها اللا محدود فيندفع بكل عنفوان نحوها ليمارس معها شعائر الحب الخاصة كما يجيدها، فاض به الكيل ولم يعد يتحمل الانتظار، تقلب على جانبيه ليلاً حاسمًا أمره:

-مابدهاش، أني هاتجوزها، هي تخصني من زمان!

عقد العزم على الشروع في إتمام تلك الزيجة، يكفيه فقط أن يذكر جدتها بالاتفاق ويتقدم رسميًا لعقد قرانه بها، فلا يوجد ما يدفعه للتأجيل، انتظر

مطلع النهار ليرتدي ثيابه ثم اتجه إلى منزل عائلة «صبري» حاملاً معه عدة أقفاص مليئة بالفواكه والطيور والألبان، بالطبع لم يحملهم بنفسه وتولى تلك المهمة أحد أتباعه، أنزل ما أسماه بواجب الزيارة على مقربة من باب منزلهم ثم أشار للرجل قائلاً بخشونة:

-روح إنت شوف وراك إيه، ولو عوزتك هاكلمك

رد الرجل بخنوع:

-أوامرك يا سي «شاهين»

تنحنح بصوت خفيض ثم هندم من نفسه ساحبًا نفسًا عميقًا ليجمح به مشاعره المستثارة بداخله، طرق الباب مترقبًا فتحه له وعلى تعابيره ابتسامة سخيفة، ظل طيف «دينا» متجسدًا في مخيلته مزيدًا من إلهاب مشاعره، في نفس التوقيت ظنت «نعمت» أن جارتها «صابرة» قد أحضرت لها ما طلبته منها، فهذا هو موعد زيارتها الأسبوعية، لذا صاحت آمرة:

-افتحي يا «دينا» لخالتك «صابرة»، تلاقيها شايلة ومحملة

-حاضر

قالتها الأخيرة وهي تعقد خصلات شعرها كذيل حصان، لم تهتم بارتداء حجاب رأسها، فالقادمة هي امرأة تعرفها وليست بأحد الغرباء، جذبت «دينا» سترة منامتها الوردية للأسفل ثم مدت يدها لتدير المقبض وتفتح الباب، تخشبت في مكانها مصدومة حينما رأت آخر من توقعت وجوده عند عتبة منزلها، اكتسى وجهها بعلامات مفزوعة لرؤية الزائر غير المرحب به، عقدت المفاجأة لسانها وجمدتها كالصنم فبقيت محدقة فيه بنظراتها المرتعدة، تفاجأ «شاهين» بها أيضًا ورغم الانتشاء العجيب الذي تغمده

لرؤيتها إلا أن نزعة الغيرة الرجولية بداخله هاجت بقوة حينما تأمل هيئتها وتساهلها في استقبال زوار المنزل، فماذا لو كان الطارق رجلاً؟ هل كان ليراها بتلك الأريحية ويمتع أنظاره بما ليس له؟ عبست ملامحه واحتقنت نظراته قائلاً بغلظة:

-فتحالي بنفسك يا بت الخواجاية؟

ارتجفت من صوته المهدد وتراجعت بقدمين مرتعشتين خطوة للخلف، همست بتلعثمٍ:

-إنت!

تقدم «شاهين» للأمام صافقًا الباب خلفه بقوة ومسلطًا أعينه القاسية على وجه «دينا» التي تضاعفت رجفتها منه، تساءلت «نعمت» بنبرة عالية:

-خالتك «صابرة» جابت الحاجات يا «دينا»؟ ما تردي يا بت!

لم يأتها ردها فنهضت من مكانها لتتفاجأ بوجود «شاهين» في منزلها والذي صاح بخشونة دون أن يبعد نظراته الغاضبة عن وجه حفيدتها:

-ده أني يا حاجة

حاولت أن تتدارك الموقف لترحب به فردت قائلة:

-يا مرحب بيك يا ابني في بيتك

التفت برأسه نحوها ليسألها بنبرة ذات مغزى:

-قوليلي يا «أم حسن» ده العادي بتاعكم إن حفيدتك تفتح الباب بالشكل ده؟

توترت من سؤاله وأجابته بتلهف نافية ما قد يُثار في نفسه من شكوك غير

صحيحة:

-لأ يا ابني، ده أني بأحسبك «صابرة» فقولتلها تفتح الباب، أصل ده ميعادها

انزعجت «دينا» من خوف جدتها غير المبرر منه، ظنت في نفسها أن إظهار الجبن أمامه سيدفعه للتمادي أكثر معهما، لذلك لن تمنحه الفرصة، استجمعت شجاعتها لتقول بتحدٍ:

-وإنت مالك؟ أنا افتح باب بيتنا زي ما أنا عاوزة

استدار برأسه نحوها متفاجئًا من ردها الجريء، تحرك خطوة ليقف قبالتها منتصبًا بجسده ومظهرًا للفارق الجسماني بينهما، ثم رد بخشونةٍ:

-لأ مالي ونص

ثم أطبق على فكها يعتصره بأصابعه الغليظة مكملاً:

-ولو كنتي مش عارفة فأني خطيبك

شهقت من إمساكه بها بتلك الطريقة العنيفة وجاهدت لتزيح يده من عليها وهي ترد:

-محصلش!

اغتاظ من تحديها له فزاد من ضغطه عليها قائلاً بقوة:

-لأ حصل زمان، وقريب هانتجوز، صح يا حاجة «أم حسن»

خشيت «نعمت» من تفاقم الأمر وربما تهوره مع حفيدتها فتوسلته بخوفٍ:

-ايوه مظبوط، دي عيلة يا ابني، ماتخدش على كلامها، سيبها الله يرضى عليك

رد بصلابةٍ:

-والعيلة كبرت خلاص

استخدمت «دينا» كلتا يديها في الإمساك بقبضته لتتحرر منه لكنها فشلت، كان محكمًا ليده جيدًا عليها، رمقها بنظراته الحادة التي تبث غضبًا، شعرت مع نظراته بشر مخيف، انتبه «شاهين» لصوت الطرقات على الباب، وقبل أن ينطق بكلمة كانت «نعمت» تستجديه:

-بلاش فضايح يا ابني

رد عليها بجمود وقد ضاقت نظراته:

-وماله

ارتسم على تعابيرها المشدودة علامات ارتياح، ومع ذلك كتمت شهقة صادرة منها حينما رأته يدفع حفيدتها بقسوة نحو إحدى الغرف القريبة منه ليحبسها بداخلها، قاومته «دينا» قدر المستطاع لكنها عجزت أمام بطشه الزائد، هرولت جدتها خلفه تسأله:

-بتعمل إيه بس؟

التفت ناحيتها ليجيبها:

-مش عاوزها تكشف على حد غيري

صاحت «دينا» مستغيثة:

-ابعد عني!

جذبها من شعرها المعقود بشراسة ليرد عليها:

-مش هايحصل يا بت الخواجاية

قرب فمه من أذنها ليضيف لها هامسًا وبنبرة تنم عن إصرار عنيد:

-بمزاجك أو غصب عنك هتجوزك، إنتي مراتي يا حلوة!

ثم دفعها مرة واحدة بكل قوة للأمام لتنكب على وجهها وهي تبكي من الألم، رمقها بنظرة أخيرة قاسية ليستدير بعدها نحو جدتها محذرًا:

-قدامكم يومين تردوا عليا فيهم في ميعاد الجواز، وإلا محدش يلومني بعد كده على الله هايحصل، وأني كده عداني العيب وزيادة!

أومأت «نعمت» برأسها مرددة:

-حاضر يا ابن الأصول

خرج «شاهين» من الغرفة مكفهر الوجه و«نعمت» تتبعه في توتر مصاحبة إياه إلى خارج المنزل، ظلت «دينا» قابعة في مكانها تبكي بحسرة مصيرها الأسود مع ذلك القاسي الشرس، لطمت على صدغيها نادبة حظها التعيس وسوء اختيار عائلتها، عادت «هانم» من السوق فتفاجأت بخروج حفيد عائلة «إبراهيم» منه ودفعه لها بوقاحة، أحست بوجود توتر في الأجواء فتساءلت بقلق واضح عليها:

-هو في إيه؟

***

-إنت إزاي تعمل كده؟

صاح «آمن» متسائلاً بتلك العبارة ووجهه محتقن على الأخير بعد أن عرف بما فعله أخاه في منزل عائلة «صبري»، ربما بالغ في ردة فعله قليلاً، لكنه يعرف في داخله الدافع الحسي الذي يثير جنونه ويحفزه للتصدي لـ «شاهين» كلما

قصد إيذاء «دينا»، طالعه أخاه بنظرات باردة قبل أن يرد عليه بعدم اكتراث:

-أني حر في تصرفاتي

سأله جده الذي كان يراقبه بنظراته المتفرسة:

-إنت كنت عاوزه يعمل إيه بالظبط؟

التفت نحوه ليرد بجدية:

-الأصول يا جدي

أضاف الحاج «إبراهيم» قائلاً بنبرته الرخيمة:

-أخوك راجل ملو هدومه، إلا إن كان ليك رأي تاني

وبهدوء مريب تساءلت «شريفة» وأنظارها مركزة على وجه «آمن»:

-»شاهين» بيطالب بحقه في السنيورة، إنت مزعل نفسك ليه؟ ولا يكونش في دماغك غرض تاني؟

رد منفعلاً:

-مش عاجبني طريقته، والأصول ماتزعلش حد

تحركت نحوه لتنظر في عينيه مباشرة وهي تقول:

-طب فهمنا إنت الأصول

ارتبك من نظراتها التي كادت تكشف ما يخفيه، علم في قرارة نفسه أن حجة اعتراضه على تصرفات أخيه واهية، حاول «آمن» أن يبدو صلبًا جافًا أمام عمته، وحينما رد عليها خرج صوته مرتبكًا:

-المفروض .. يبقى .. في قعدة رجالة و...

وضعت «شريفة» يدها على كتفه وهي تدور حوله لتقول بابتسامة ماكرة:

-ولا تلاقيك غيران من أخوك عشان هايتجوز تاني وإنت لأ

ابتلع ريقه بصعوبة محاولاً ضبط انفعالاته، شعر أنه بات قاب قوسين أو أدنى من فضح اهتمامه الشخصي بها، ما خفف من وطأة الأمر هو ضحكات «شاهين» الساخرة، فقد شتت تركيز عمته وجعلها تحدق في أخيه باستغراب خاصة حينما أضاف قائلاً:

-صح، ما تدوريله على عروسة يا عمتي، إنتي خبرة في الحاجات دي

ردت عليه بابتسامتها الغامضة:

-هو يشاور وأني تحت الطلب

رغم انزعج «آمن» من تغييرهما لمسار الحديث إلا أنه تنفس الصعداء لكون ذلك قد أبعد الشكوك عما يخشاه، فصاح محتجًا:

-أنا مش عاوز أتجوز

تدخل جده في الحديث قائلاً بنفاذ صبر:

-فضونا من الرغي الكتير ده!

توقف ثلاثتهم عن الكلام فتابع بلهجته الصارمة ومشيرًا بعينيه:

-خلاصة الكلام هتشوف يا «شاهين» مع جماعة «صبري» الميعاد المناسب لكتب الكتاب والفرح

رد عليه حفيده بامتثال تام:

-ماشي كلامك يا جدي

ثم التفت ناحية «آمن» ليضيف:

-وإنت تساعد أخوك وتقف معاه، لازم الكل يعرف إن عيلة الحاج «إبراهيم ذكي» رجالتها في ضهر بعض

لم يجد ما يعقب به عليه فاكتفى بالصمت، ضرب جده بعكازه على الأرضية مكملاً بزفير مرهق:

-وخلونا نركز في شغلنا، عندنا مصالح كتير ومشاغل ماتتعدش، وكلام الحريم الماسخ ده لا بيودي ولا بيجيب

امتلاء صدر «آمن» بالإحباط اليائس، فعائلته تفكيرها منحصر في أمور بعينها، والمشاعر الإنسانية والانفعالات الوجدانية ليس لها أي اعتبار، انسحب مستاءً من جلستهم العائلية راجيًا الله في نفسه أن تفسد تلك الزيجة قبل أن تبدأ خوفًا على صغيرته.

***

كانت بحاجة لدفع الجزء المتبقي من مصروفاتها الدراسية لتتمكن من الحصول على نتيجتها، تناست «دينا» رغمًا عنها سداد قيمة الإيصال على الرغم من حوزتها للمال المطلوب دفعه بسبب انهماكها في المراجعة والاستذكار، وما إن تذكرت حتى طلبت من عمتها الذهاب إلى كليتها لتسديد ما ينقص، لم تمانع الأخيرة بينما اعترضت جدتها على خروجها من المنزل فقالت بعبوس:

-يا بتي مش ناقصين مشاكل

انزعجت كثيرًا من خوف جدتها من تهديدات حفيد عائلة «إبراهيم» فردت بغيظ»

-ودي فيها إيه؟ هما هيحبسونا في بيتنا

ثم استجمعت رباطة جأشها لتقول بجرأة:

-والله لو ما عرفوا حدودهم لأبلغ عنهم البوليس وأعمل فيهم محضر عدم تعرض، هي مش سايبة

خشيت «هانم» من تهور ابنة أخيها فنهرتها بحدة:

-يا بت ابلعي ريقك شوية

أضافت «نعمت» قائلة بتذمر وهي تضرب على فخذيها:

-وربنا إنتي مش هترتاحي غير لما تودي روحك في توكه

غمزت لها عمتها بطرف عينها لتكف عن مجادلتها غير المجدية مع جدتها، فهمت «دينا» نظراتها وردت مبتسمة:

-إن شاء الله مش هايحصل حاجة يا ستي، أنا معايا عمتي ورجلها على رجلي، وبعدين هي ساعة زمن هنخلص فيها كل حاجة ونرجع على طول، إدعيلي إنتي بس

تنهدت جدتها قائلة بيأس:

-بادعيلك! وربنا يستر من اللي جاي!

انحنت «دينا» على رأسها لتقبلها ثم اعتدلت في وقفتها وسارت مع عمتها إلى خارج المنزل، مالت عليها لتسألها بضيق:

-أنا مش فاهمة، ستي خايفة منهم أوي كده ليه

أجابتها «هانم» بتنهيدة مطولة:

-من اللي شوفناه منهم، كانت أيام غبرة، وهما مهما اتعمل فيهم مابيتعظوش

ردت عليها «دينا» بوجه شبه ممتعض:

-وعاوزاني أتجوز حفيدهم؟

أخرجت زفيرًا ثقيلاً من صدرها قبل أن تقول بحزنٍ:

-مش بخطري يا بت الغالي، إن كان عليا نفسي أجوزك أحسن واحد في الدنيا، بس ده حكم القوي

كانت عمتها قليلة الحيلة ولم تدعِ ذلك، لم تعاتبها «دينا» أو تحملها ما لا تطيق من هموم وأحزان واكتفت بالصمت لتكمل كلتاهما السير عبر الطريق الزراعي نحو موقف السيارات، ما لم تضعه في حسبانها هو تولي أحدهم مراقبتهما خلسة، فما إن لمحها ذلك الرجل الغريب الجالس على المقهى المقارب لمنزل عائلة «صبري» حتى أخرج هاتفه المحمول من جيب جلبابه، وتمتم بكلمات غامضة لأحدهم، أومأ برأسه كنوع من الامتثال ثم نهض من مكانه ملقيًا حساب ما تناوله من مشروبات على الطاولة الخشبية ليتبعهما بحذر شديد.

***

استقلت الحافلة الصغيرة وركبت بجوار عمتها في المقعد قبل الأخير، كان الطريق لا يزال في بدايته عندما ضغط السائق فجأة على المكابح ليرتد الجميع للأمام محتجين من تصرفه الأرعن، حل الخوف والقلق كبديلين عن الغضب والضيق حينما رأت «دينا» ذاك الذي اعترض طريق الحافلة بسيارته، شعرت بجفاف رهيب يجتاح حلقها وقد تجمدت حدقتاها على وجه «شاهين» الذي جلس على مقدمة سيارته بتفاخر كبير، ارتعدت في مكانها وتشبثت بعمتها محاولة الاحتماء بها، أدركت «هانم» سبب خوفها وغمغمت مع نفسها بكلمات متوترة ومرتعدة منه، أشار الحفيد البكري لعائلة «إبراهيم ذكي» بيده للسائق صائحًا بصوته الجهوري:

-لا مؤاخذة يا أسطى، أصل في جماعة حبايبي عاوزهم ينزلوا من العربية

اعترض عليه السائق قائلاً بتجهم:

-بس مش كده يا عمنا، دي عليها أقساط

رد عليه «شاهين» بهدوء مريب:

-متقلقش، لو حصلها حاجة هاعوضك

ثم انتصب في وقفته واتجه ناحية باب الحافلة ليفتحه، تتبعته نظرات «دينا» المرتاعة وقد زاد تمسكها بكتف عمتها، سلط «شاهين» أنظاره الحادة على وجهها قائلاً بصيغة آمرة:

-انزلوا ولا مستنين عزومة

ابتلعت «هانم» ريقها لتسأله بارتباك:

-خير يا ابني، في حاجة؟

صاح بهما بغلظةٍ:

-انزلوا من العربية!

سأله أحدهم ممن يجلس في المقدمة:

-خير يا «شاهين» هما الجماعة عملوا حاجة؟

التفت ناحيته لينظر له شزرًا قبل أن يقول:

-ملكش فيه، الحريم دول يخصوني زي ما كل البلد عارفة، وعاوزهم في كلمتين

-براحتك يا بونط

قالها الرجل متجنبًا الجدال معه، في حين عاود «شاهين» تسليط أنظاره على وجه «دينا» ليأمرها بنفس الخشونة ومهددًا إياها:

-هاتنزلي ولا أطلع أجيبك

همست لها عمتها بخوف:

-خلينا ننزل بدل الفضايح

توسلتها ابنة أخيها برجاء:

-بلاش يا عمتي، أنا خايفة أوي، خلينا قاعدين وسط الناس، هو مش هايقدر يعملنا حاجة و...

قاطعتها هامسة بتوجسٍ:

-معلش يا بتي، استخبي في ضهري، وربك يسترها معانا

لم يكن أمامهما بدًا من الاعتراض أو الرفض، فتصرفاته الطائشة لا يمكن التنبؤ بها، نهضت «هانم» أولاً وبدأت في التقدم للأمام، وتبعتها «دينا» بخطوات مرتعشة، وما إن اقتربت الأخيرة من باب الحافلة حتى جذبها «شاهين» عنوة من ذراعها لتشهق متألمة بخوفٍ منه، ظل قابضًا على رسغها رافضًا تركها ثم صفق بيده الأخرى الباب صائحًا في السائق:

-ماشي يا أسطى، طريقك أخضر وسالك!

انطلق السائق بسيارته منحرفًا قليلاً عن طريقه ليتمكن من المرور بجوار السيارة القابعة أمامه، تلوت «دينا» برسغها محاولة التنصل منه وهي تقول بصوت شبه متألم:

-سيب إيدي!

وأضافت عمتها بتوسلٍ:

-سيبها يا ابني، هي عملت حاجة غلط لا سمح الله

رفض «شاهين» تركها وأحكم قبضته عليها، ثم رمقها بنظرات قاسية قبل أن يسألها بصوته الأجش:

-رايحة فين يا عروسة من غير إذني؟

انزعجت من تسلطه الزائد عن الحد وتحكمه في أمور حياتها دون أدنى حق له في ذلك، لذا أجابته بتعصب طفيف وهي تجاهد للتحرر منه:

-وإنت مالك!

التوى ثغره ببسمة متهكمة وهو يرد ببرود:

-إنتي مالي كله يا حلوة، بس الظاهر بتنسي!

استفزتها جملته الأخيرة، ورغم خوفها منه إلا أنها استجمعت جأشها لترد:

-مش هاتجوزك، ده أنا أموت نفسي ولا ده يحصل

تجاهل ما قالته موجهًا حديثه إلى عمتها:

-عاجبك الكلام ده يا خالة؟

خشيت «هانم» من عناد ابنة أخيها وتجاوزها في الحديث الأرعن معه، وهو لن يمر ذلك مرور الكرام، حاولت تبرير موقفها الرافض له قائلة:

-ماهو يا ابني يعني مايصحش تنزلنا بالشكل ده من العربية، الناس تقول إيه بس؟

رد عليه بعدم اكتراث وقد شدد من انتصاب كتفيه:

-محدش ليه عندي حاجة، وكلها كام يوم والحلوة تبقى مراتي

نجحت «دينا» في انتزاع يدها من قبضته ثم قالت بتحدٍ:

-مش هايحصل

أطبق على فكها في حركة مباغتة منه، نظر في عينيها مباشرة بقوة قبل أن يقول بهمس وهو يكز على أسنانه:

-أحسنلك تتقبليه بالرضا بدل ما تاخديه غصب!

وضعت يدها على قبضته تريد إبعادها عنها، تقوس فمه بابتسامة مراوغة متحدية لها، زاد من ضغطه عليها متابعًا بثقة وغرور:

-المهلة خلصت يا عروسة، حددتوا ميعاد كتب الكتاب والدخلة ولا ..؟!

رمقته بنظرات كارهة له رغم خوفها منه ثم ردت بصعوبة:

-الموت أهون عندي!

وقبل أن يرد عليها صدح من خلفه صوتًا عاليًا غاضبًا يناديه:

-»شـــــــاهين»

عرفت «دينا» فورًا صاحب الصوت المألوف، إنه ذلك الذي يحدث في نفسها توترًا من نوع مختلف، ارتباكًا محببًا إليها، وكأن في وجوده نجدتها حيث أخفض «شاهين» يده عنها لتنعم من جديد بحريتها، التفت برأسه نحو أخيه ليقول بامتعاض:

-خير يا «آمن»؟

سأله بصوته المحتقن وهو يلقي نظرة خاطفة على «دينا»:

-بتعمل إيه هنا؟

رد ببجاحةٍ:

-بأتكلم مع عروستي، عندك مانع؟

اغتاظ من أسلوبه الهمجي في استعراض قوته ووقاحته فصاح معترضًا:

-مش بالمنظر ده، الناس بتتفرج علينا

رد عليه مهددًا:

-والله اللي هايفتح بؤه بكلمة هاقطعله لسانه

حدجه «آمن» بنظراته الحادة قبل أن يحذره:

-هي مش فتونة يا «شاهين»!

رد عليه ببرود:

-ده اللي عندي

ثم وجه حديثه إلى «دينا» متسائلاً:

-ها يا عروسة، هنتجوز امتى؟

استمدت من حضور «آمن» القوة لترد بشجاعة واتتها:

-مش هايحصل، ده في أحلامك وبس!

استشاط «شاهين» غضبًا من ردها غير المتوقع وإقلالها من شأنه أمام أخيه الأصغر، أوشك على الهجوم عليها لولا اعتراض «آمن» له بجسده، صرخ بها بنبرة محتقنة:

-طب اعملي حسابك يا بت الخواجاية دخلتي عليكي آخر الأسبوع ده، سامعة يا خالة، جهزوا نفسكم وكافة طلباتها عندي!

قرأت «دينا» في نظراته القوية نحوها إصرارًا عنيدًا لإتمام الزيجة، هزت رأسها معترضة بإيماءات متتالية وهي تتراجع للخلف، نظرت له «هانم» بضيق وهي تقول:

-مش كده يا سي «شاهين»

رد عليها بغلظة وقد قست نظراته:

-ده اللي عندي

جزعت «دينا» من مجرد التفكير في ارتباطها به، وما رأته من نظرات شرسة وأسلوب عدائي عنيف أكد لها أنها لن تسلم من أذيته أبدًا، هي اختبرت جزءًا من شره في الماضي، وعانت منه كثيرًا، لن تتحمل قسوته، وما دعم من تفكيرها المرتعد منه تلك الذكريات الغابرة عن ليلة ذبحها في طفولتها، تخيلت «شريفة» ومن معها من نساء ملتفات حولها في ليلة عرسها يردن تحطيمها من جديد، زادت رجفتها وتضاعف خوفها، تمتمت مع نفسها بذعر:

-الموت أهون

هي لحظة واحدة التهى فيها الجميع عنها لتتمكن من الركض هاربة من مصير مشؤوم، ربما كان تفكيرها متهورًا، جامحًا، غير عقلاني، لكنها أرادت الخلاص من قيده الإجباري، قصدت «دينا» إلقاء نفسها في مصرف المياه المجاور، صرخت عمتها بفزعٍ حينما رأتها متجهة نحوه بخطواتٍ راكضة، ذكرها ما أوشكت على فعله بوالدها الراحل حينما كان يتسابق مع الفتية للقفز في المياه، مع فارق أنه كان يجيد السباحة عنها، زاد عويلها مع لطمات صدرها وقد ألقت بنفسها وباتت على وشك الغرق بسبب عمق المياه، هوى قلب «آمن» في قدميه رعبًا عليها، شعر أن روحه اختطفت لمجرد التفكير في احتمالية فقدانها، وفي أقل من ثانية استوعب الموقف فقفز خلفها

وتبعه «شاهين» لإنقاذها، سبح في اتجاهها وأمسك بها وهي تكاد تختنق من كم الماء الذي ابتلعته، سحبها بمهارة نحو جانب المصرف وتولى «شاهين» رفعها بعد أن صعد للأعلى، ظلت «دينا» تسعل بقوة وهي تكافح لالتقاط أنفاسها، احتضنتها «هانم» لتدفئ جسدها المبتل وهي تعنفها ببكاء:

-عملتي كده ليه يا «دينا»؟ عاوزة تنتحري

عاون «شاهين» أخيه على الصعود للأعلى، استند «آمن» على مرفقيه ونظر لـ «دينا» بقلب ملتاع، نهج صدره علوًا وهبوطًا وهو يتابعها بنظراته القلقة، خشي أن يكون قد أصابها مكروه ما، ما طمأنه قليلاً هو حديث عمتها لها وبكاء الأخيرة في ضعفٍ، انتابه خوف مضاعف حينما رأى تعابير أخيه الشرسة وهو يتجه نحوها، سيطر عليه هاجس احتمالية اعتدائه بالضرب عليها، تمالك نفسه ووقف على قدميه ليلحق به ويتصدى له إن تطلب الأمر ذلك، وقف «شاهين» قبالة «دينا» يرمقها بنظراته المحتدة، هدر بها بصوته الغاضب مهددًا إياها:

-والله لو رميتي نفسك في المالح هتجوزك يا بت الخواجاية، وبردك دخلتي عليكي آخر الأسبوع!

ردت عليه «هانم» بنبرة مهتزة:

-كانت لحظة طيش يا ابني

نظر لها بعينيه المحتقنتين قبل أن يقول بنبرة متوعدة:

-المفروض أجرجرها من شعرها قصاد الخلايق و....

استعطفته «هانم» برجاء شديد:

-بالله عليك ما تعمل كده، ده احنا ولايا ومالينا حد!

خشي «آمن» من إقدامه على إثارة فضيحة أخرى في العلن فمال عليه يهمس له بجدية وهو يضع يده على كتفه:

-خلاص يا «شاهين»، لِم الموضوع

نظر له بطرف عينه ثم عاود التحديق في «دينا» بنظرات مطولة متفحصة لجسدها البارزة تفاصيله بسبب التصاق ثيابها المبتلة بها، صرف بصعوبة تلك الخيالات الجامحة التي راودته بقوة ليقول بعبوسٍ:

-قومي على حيلك يا بت الخواجاية، هارجعكم مطرح ماجيتم!

تنفس «آمن» الصعداء لكون أخيه قد رضخ لصوت العقل وجنب الجميع متاعبًا جمة، اختطف نظرة أخيرة لوجه «دينا» الذابل قبل أن يشيح بعينيه بعيدًا عنها والألم المعنوي يعتصر قلبه، بات على يقين بأنه يكن لها مشاعرًا خاصة لا يمكن البوح بها أبدًا، ولا يجوز له حتى الإفصاح عنها بينه وبين نفسه؛ إنها مشاعر الحب النقية.

***

الفصل الحادي عشر

لم تكن كغيرها من العرائس اللاتي يتحمسن ويزداد إشراقهن وتتورد بشرتهن بحمرة خجلة مع اقتراب موعد العُرس، تحول وجهها للذبول وتشكل أسفل عينيها هالات سوداء تناقض المألوف، تابعت «دينا» بفتور كل ما يحدث حولها من صخب يخص أمور الزواج وتجهيز مستلزمات العروس، لم تهتم على الإطلاق، كانت مغيبة عمن حولها، شعرت في قرارة نفسها أنها كالجارية بيعت لمن دفع ثمنها، حاولت عمتها التهوين عليها لكنها فشلت، فأي إحساس سعادة يمكن أن تحظى به وهي مجبرة على الزواج بمن لا يرغب به قلبها؟ تركتها جالسة على وضعها الشارد لتتابع ما تقوم به النساء من توضيب للأمتعة في الشاحنات الصغيرة تمهيدًا لعرضها كما هو متبع عند أهالي القرية فيما يُعرف بموكب العروس، لمحت «هانم» كرتونة ورقية مسنودة بجوار باب المنزل، اقتربت منها لتلقي نظرة خاطفة على محتوياتها، وجدت بداخلها بعضًا من أدوات المطبخ، انحنت لتحملها محدثة نفسها:

-إزاي نسيوا الكرتونة دي؟

انتبهت للصوت الذي يناديها من على بعد:

-عنك يا ست «هانم».

رفعت رأسها لتنظر إلى صاحب الصوت فرأت «جاد» مسرعًا في خطاه نحوها، ارتبكت من وجوده وتوترت أكثر حينما أضاف بجدية:

-أني هنا في خدمتك، هاتي أشيلها، ارتاحي إنتي يا ست الكل

ردت بخجلٍ طفيف:

-تسلم يا ريس «جاد»، مالوش لازمة

سألها وهو يتلفت حوله:

-ودي تيجي، ها أوديها فين؟

أشارت بيدها قائلة:

-في العربية اللي هناك دي

-حاضر

قالها الأخير وهو يسير في اتجاه الشاحنة، تبعته «هانم» بأنظارها وابتسامة صافية مرسومة على ثغرها، لم تلاحظ نظرات «شريفة» المتربصة بها، راقبت المشهد من على بعد واستنكرت الحوار الودي بينهما، أرادت أن تفسد عليها يومها فاقتربت منها بغنجٍ متكبر، ثم استطردت قائلة بتهكم وتلك الابتسامة الساخرة تعلو شفتيها:

-بلاش تعلقي نفسك بحبال الهوا الدايبة، عمرك ما هتطولي حاجة

تفاجأت «هانم» من وجودها، نظرت لها شزرًا قبل أن ترد بضيق:

-قصدك إيه؟

ردت عليها بمكر وهي تهز حاجبها:

-اللي أني شايفاه وإنتي فهماه كويس

أخفت «هانم» توترها ببراعة كي لا تترك لها الفرصة لتستغلها وتسيء تفسير الموقف، ردت بسخطٍ:

-أني يا حبيبتي لا ليا في التور ولا في الطحين

قهقهت «شريفة» ضاحكة ثم صمتت لتقول:

-على رأيك، ما إنتي فاتك قطر الجواز من زمان، وبعدين مين ده اللي هايبص لواحدة زيك حتى لو كان أوجري ... ولا بلاش، ما الكل عارف اللي فيها!

تمالكت «هانم» أعصابها رغم احتقان وجهها على الأخير، فإهانتها تجاوزت حد المقبول، خرج صوتها متشنجًا وهي تقول:

-كل واحد بياخد نصيبه، وأني حامدة وشاكرة فضل ربنا عليا، كفاية إنه عوضني ببت أخ وشها زي البدر في تمامه، وتكيد الأعادي في أي حتة تروحها!

ثم ربتت على كتف «شريفة» لتضيف بعدها بوقاحة:

-مش هاعطلك بقى ياختي، أديكي شايفة حاجة العروسة، خمسة وخميسة في وش العدو، حاجة تسد عين الشمس، وأني مش فاضيالك الصراحة!

اغتاظت من طردها لها فردت عليها بسماجة:

-أما نشوف، ماهو المثل بيقول من برا هالله هالله ومن جوا يعلم الله

غمزت لها «هانم» قائلة بتفاخر:

-بردك القالب غالب يا بت «فتحية»، وبتنا دمها من بلاد برا، يعني حاجة نقاوة مش زي زفارة هنا!

ثم أطلقت ضحكة عالية ساخرة منها لتؤجج نيران الغيرة بداخلها، اشتعل وجه «شريفة» بحمرة غاضبة، كزت على أسنانها محدثة نفسها بوعيد مخيف:

-بتحرقي دمي يا نص مَرَة، طب هاتشوفي هاعمل إيه في اللي فرحانة فيها!

***

شاءت أم أبت كان لزامًا عليها الذهاب ولو لمرة واحدة لمنزل الزوجية قبل عقد قرانها رسميًا لتضع اللمسات الأخيرة فيه باعتبارها العروس المرتقبة، رضخت «دينا» أمام إلحاح عمتها وجدتها وذهبت معهما إلى هناك، ورغم حداثة الأثاث والطلاء إلا أنها شعرت بانقباضة قوية في صدرها، ارتجفت من التفكير في كونها ستغدو زوجة بعد ساعات قلائل لذلك العدواني الشرس الذي لا تعرف عنه إلا القليل المقلق، سحبتها عمتها إلى داخل غرفة نومها بعد إعدادها وظلت تسرد لها محاسن الزواج لكنها لم تصغِ لكلمة واحدة مما قالتها، كانت شاردة في هواجسها المذعورة، تحججت بإرهاقها فتركتهما في الغرفة تكملان ترتيب أغراضها وجلست بالخارج، قامت جدتها بطي عددٍ من الشراشف الجديدة لتضعها بداخل الخزانة، رغمًا عنها اصطدم ذراعها بمجموعة من المناشف المتراصة بطريقة مميزة فأوقعتها، خرجت منها شهقة صارخة حينما رأت ما دُس فيها، هرولت «هانم» ناحيتها تسألها:

-في إيه يامه؟

أطلقت «نعمت» سبة نابية قبل أن تكمل حديثها:

-لاقيت برص ميت وسط الفوط!

ألقت «هانم» نظرة مدققة عليه وهي تقول بغضبٍ:

-أكيد بت «فتحية» ورا القرف ده، هي عاوزة تعملها عمل تربطها ليلة دخلتها

اكفهرت تعابير وجه والدتها مرددة بازدراء:

-أعوذوا بالله منها ولية، مش بتتهد ولا بتريح نفسها

أشارت لها «هانم» بيدها وقد أخفضت من نبرتها قليلاً:

-خلينا نلم القرف ده بعيد قبل ما «دينا» تشوفه، الحكاية مش ناقصة هم

-على رأيك، البت ملصمينها بالعافية، واحنا كمان نشوفلنا حد من تبعنا يعملها حجاب ولا حاجة يمنع أذاها عنها

-وماله، عندي اللي تعرف ناس بركة!

-بأقولك إيه احنا ندور في كل حاجة هنا، ألا تكون حطالها حاجة تانية!

-حاضر يامه، وربنا يكفيها شرها ويزيحها بعيد عنها

تركت الاثنتان ما بأيديهما لتقوما بتفتيش الغرفة بتأنٍ لتتأكدا من خلوها من أي أشياء مشعوذة كتلك التي اكتشفتها «نعمت» مصادفة.

***

أغمضت عينيها آملة أن يكون ذلك مجرد كابوس مزعج ستفيق منه بعد قليل، لكنها كانت الحقيقة المُرة، هي الآن جالسة بجوار زوجها بعد عقد قرانها في السرادق المقام للاحتفاء بهما في الأرض الفضاء القابعة خلف المنزل، احتشد أغلب أهالي القرية فيه ليشهدوا مراسم الزفاف، خاصة أنه كان مصحوبًا بالأطعمة والمأكولات الشهية، أخرجت «دينا» زفيرًا مطولاً من صدرها وهي تعاود التحديق في مئات الأوجه المتطلعة إليها، لم تتزين بالمبالغ فيه من مساحيق التجميل، ولم ترتدِ اللافت من أثواب الزفاف، كانت بسيطة في كل شيء، مررت أنظارها على المتواجدين، كان الأغلب ملهيًا إما بالغناء والرقص على نغمات الموسيقى الشعبية أو بتقديم ما يعرف بـ «النقوط» كنوع من المجاملة، شعرت بلمسة حنونة على كتفها فالتفتت برأسها للجانب لتجد عمتها تشد من أزرها، رمقتها بنظراتها الحزينة المعاتبة، بادلتها «هانم» نظرات عاجزة مهمومة، فهي وقفت مكتوفة الأيدي أمام طوفان عائلة «إبراهيم»، لم يكن باستطاعتها فعل شيء لمنع تلك الزيجة، رسمت ابتسامة مصطنعة على شفتيها وهي تميل نحوها لتقول لها وسط

ذلك الصخب المرتفع:

-ربنا يسعدك يا غالية

رغم نظراتها الصامتة إلا أن عبراتها المترقرقة في حدقتيها الزرقاوتين نطقت عنها، تضاعف شعور عمتها بالذنب وهي تراها مغلوبة على أمرها، قاومت بصعوبة تلك الدمعات التي هربت من حدقتيها وادعت الابتسام، انتفضت «دينا» في جلستها حينما أمسك بها «شاهين» من كفها، نظرت له بهلع وقد اختفت ابتسامتها، التوى ثغره للجانب قائلاً بصوته الخشن:

-كل كبارات البلد هنا، والناس هاتحكي عن فرحنا لشهور، حاجة فخيمة زي تملي، ما عيلة الحاج «إبراهيم» مش أي كلام والكل جاي يجامل وينقط حفيده

حاولت أن تجاريه في الحديث لكنها لم تستطع، منحته فقط ابتسامة صغيرة قبل أن تشيح بوجهها بعيدًا عن نظراته المسلطة عليها، التقطت عيناها وجهًا حزينًا جالسًا بالأسفل، جذبها عفويًا للتفرس فيه وإمعان النظر في ملامحه، شعرت بنغصة مؤلمة في صدرها، إنه «آمن» يبدو تعيسًا للغاية رغم مزاحه الضاحك، لم تكن تعلم أنها المرة الأخيرة التي ستراه فيها، فقد حسم أمره بالعودة من حيث أتى والسفر للخارج بعد انتهاء الحفل، ألقى عليها نظرة خذلة مليئة بالندم اخترقتها وعبثت بمشاعرها، فغرت شفتيها قليلاً غير مصدقة ما أحست به توًا، انتشلها من تحديقها به صوت «شاهين» المردد بانزعاج:

-وده إيه اللي جابه!

التفتت بأنظارها نحو الرجل الضخم المقبل عليهما، زوت ما بين حاجبيها باستغراب وهي تتابع حديث زوجها له:

-مع إني معزمتكش ياخي

رد عليه «راجح النشار» بسماجة باردة:

-ودي تيجي بردك يا «شاهين»، يبقى فرحك وماحضرش، دي حتى عيبة في حق الرجالة!

رمقه «شاهين» بنظرة احتقارية صريحة قبل أن يرد مهينًا إياه:

-مش لما تكون راجل الأول

كظم «راجح» غضبه في نفسه وعَمِد إلى ادعاء الهدوء ليكمل ما أتى إليه، عبست تعابيره قليلاً وهو يقول:

-اللي فات مات يا بونط، واحنا إخوات النهاردة، مسامح يا ابن عمي؟!

رد بتأفف:

-على الله التساهيل

أخرج «راجح» لفافة صغيرة من جيبه مطوية ثم دسها في كف «شاهين» هامسًا له بمكر:

-طب دي هدية محبة مني لزوم الليلة المفترجة دي، حاجة كده لزوم النعنشة والفرفشة

فتح «شاهين» ما خبأه في راحة يده، فوجده دواءً من ذاك الذي يستخدم لإضفاء السعادة الزوجية، نظر له شزرًا وهو يرد بحدةٍ:

-أني مش محتاج للبتاع ده

حاول التخلص منها متابعًا بخشونةٍ:

-أني أدها وأدود، قالولك عني إني متني ولا واد طري؟!

رد عليه «راجح» بحذرٍ:

-وحد يستجرى يفتح بؤه، بس زيادة الخير خيرين

رمقه بنظرات ازدراء وهو يقول:

-خليهالك، دي تنفع اللي زيك

عاتبه بتجهم زائف:

-بقى ينفع تقول للنعمة لأ؟ بالله ما في حد جربها إلا ودعالي، خليها معاك جايز تحتاجها!

حاول إقناعه بشتى الطرق كي يأخذ شريط الدواء موضحًا فوائده الخارقة، في الأخير استسلم «شاهين» أمام حديثه المغري ووضعه في جيبه، التوى ثغر «راجح» بابتسامة لئيمة ثم ودعه قائلاً:

-ليلتك فل يا عريس، وعقبال البكاري إن شاء الله

رد باقتضاب وهو يحدجه بنظراته القوية:

-هتسمع ده قريب!

-هستنى

قالها «راجح» بابتسامته العريضة قبل أن يترك المكان ويرحل، ركز «شاهين» عينيه عليه حتى اختفى من أمام أنظاره، ثم عاود التحديق في وجه «دينا» التي كانت شاردة عنه، أمسك بيدها فارتجفت منه، لم يهتم بإحساسها نحوه، فقد كان تفكيره منصبًا حول أمر بعينه، تقوس فمه ببسمة غير مريحة، تحاشت النظر إليه تاركة كفها حبيس أصابعه الغليظة، تأملها مليًا متعهدًا لنفسه بليلة مختلفة سيتذوق فيها من جديد شراب الحب المُسكر مع فاتنته.

***

ارتشفت القليل من الماء لتبلل حلقها الجاف بعد أن صعدت إلى منزلها، مكثت «دينا» على الأريكة بالصالة الخارجية رافضة الدخول لغرفة النوم وتبديل ثوب زفافها، تعللت برغبتها في البقاء مع جدتها وعمتها لبعض الوقت حتى تقلل من حدة توترها، لم تمانع «هنية» في ذلك، فهي مدركة لاضطراب العروس في ليلة كهذه، وعلى عكسها كليًا كانت «شريفة» ترمقها بنظراتها النارية، أرادت إفساد ليلتها وتلقينها درسًا آخرًا من دروسها القاسية انتقامًا منها، أمسكت بالمشروب الملون وتصنعت شربها له ثم اقتربت منها وأسقطت الكوب على ثوبها، شهقت «دينا» مصدومة من تلطيخه، احتقنت نظرات «هانم» نحوها وهبت صائحة فيها:

-إيه اللي عملتيه ده؟

ردت ببرود منقطع النظير:

-مخدتش بالي، هتعلقيلي المشنقة يا ادلعدي

حاولت «هنية» تلطيف الأجواء فقالت بحرجٍ:

-حصل خير، دلوقتي عروستنا تقوم تغير فستانها وتلبس الحاجات الشفتشي الحلوة

ربتت «نعمت» على ظهر حفيدتها لتحثها على النهوض وهي تقول لها:

-قومي يا «دينا» غيري، وخدي عمتك في إيدك تساعدك

أومأت الأخيرة برأسها موافقة ثم نهضت من مكانها ساحبة ذيل ثوبها المتدلي خلفها، لحقت بها «هانم» لكن اعترضت «شريفة» طريقة مانعة إياها من المرور وهي تسألها بجدية:

-على فين؟

أجابتها بضيق:

-داخلة أساعدها

رفعت كفها أمام وجهها متعمدة تحقيرها:

-لأ عندك، دي مش تكية أبوكي عشان تدخلي وتطلعي بمزاجك!

استشاطت «هانم» من أسلوبها المستفز الوقح الذي يدفعها للاشتباك معها، نظرت إليها بغيظ ثم ردت:

-دي عوايدنا، شكلك نسيتي يا «شريفة»

تدللت بكتفيها قائلة بتباهٍ:

-ستك «شريفة» يا عين أمك

ثم كتفت ساعديها أمام صدرها متابعة بوقاحة:

-ويالا بقى طرأونا، العريس عاوز يقعد مع عروسته، مش ناقصة لمة، ولا أقولك في بواقي أكل تحت، خديلك حبة

وضعت «هنية» يدها على فمها لتكتم شهقة مستنكرة خرجت منها، نهرتها بحرجٍ كبير:

-عيب كده يا «شريفة»

هبت «نعمت» واقفة بعد الإهانة اللاذعة التي وقعت على مسامعها قائلة:

-بينا يا بتي، مش ناقصة قلة قيمة

اعترضت عليها ابنتها بإصرار وهي مسلطة لنظراتها المشتعلة حنقًا على وجه «شريفة»:

-مش هانمشي يامه قبل ما نطمن على «دينا»

دفعتها الأخيرة بقوة من كتفها لتمر هاتفة بحماسٍ زائف:

-تعالى يا عريس، المحروسة مستنياك جوا، خش عليها و... ما إنت فاهم هاتعمل إيه

التفت الجميع نحو «شاهين» الذي كان يسير ببطء وهو يفرك مؤخرة رأسه، جاب بنظراته وجوه النساء المحدقات به ثم رد قائلاً:

-وماله!

مالت عليه عمته لتهمس له بشيء ما في أذنه جعل نظراته تتسع، بدا وجهه غير مقروء وهو يهز رأسه بالإيجاب، خشيت «هانم» على ابنة أخيها من لؤمهما الشيطاني، وقبل أن تتحرك صوبه أمسكتها «نعمت» من معصمها لتستوقفها قائلة لها بنبرة خافتة:

-خليكي مكانك

ردت هامسة بخوفٍ:

-شكلهم ناويين على حاجة وحشة، قلبي حاسس بده

-منقدرش نتكلم، دي بقت منهم دلوقتي

-بس ....

شددت من قبضتها عليها قائلة بصوتها الخفيض وبلهجة جادة:

-قولت خلاص، خلينا نطمن على شرفنا ونمشي

لم يكن أمام «هانم» سوى الصمت وكتم مشاعرها المحتقنة في نفسها لأجل

ابنة أخيها، لكن ظلت نظراتها تلوم والدتها التي تثبط دومًا من دفاعها عنها وتضيع حقوقها متسلحة بالخوف والجبن.

***

توقعت أن تأتي عمتها لمساعدتها في نزع ثوب الزفاف عنها، لكنها تأخرت بالخارج مما دفعها لمحاولة فتح السحاب بمفردها، نجحت «دينا» في إنزاله للأسفل قليلاً فبرز كتفاها وظهرها، تنهدت بتعب وهي تكمل خلعه، توترت مع التفكير فيما سيحدث لاحقًا، ربما معلوماتها عن ليلة الزفاف محدودة وقد تكون منقوصة أو مغلوطة لكنها أرادت التنعم بأحضان دافئة، برومانسية حالمة، انتزعها من شرودها السريع اقتحام «شاهين» للغرفة دون أن يطرق بابها، انكمشت على نفسها من دخوله المباغت ورمقته بنظراتها المذعورة، أوصد الأخير الباب خلفه رامقًا إياها بنظرات جريئة متأملة لقسماتها المغرية، حاولت إخفاء ما ظهر منها وتراجعت للخلف لتلتصق بضلفة الخزانة، اقترب منها قائلاً:

-هاتهربي مني فين؟

اتسعت حدقتاها في هلع وعجزت عن الرد عليه، كان محقًا في ذلك، ليس أمامها أي مهرب منه، تضاعفت دقات قلبها الخائفة مع حصاره لها، رفع ذراعيه أمامها فأصبحت أسيرته، وضعت كفيها على صدرها محاولة تثبيت ثوبها المتدلي عليه، نظر لها مليًا قبل أن يمد يده ليتلمس بشرتها، أغمضت عينيها في رهبة منه، استطرد حديثه قائلاً بهدوء ألبكها:

-مكونتش متخيل إنك لما هتكبري هتحلوي كده

ارتبكت من مداعبته لها وزاد خفقان قلبها، ظنت للحظة أنه سيعاملها بالرفق مثلما كانت تشاهد في الأفلام التلفزيونية ليخفف من حدة توترها، تحول

صوته للهمس حينما تابع:

-زمان مكونتش بأطيقك، ولسه ده إحساسي ناحيتك

فتحت عينيها مذهولة من صراحته الزائدة، كانت مخطئة في ظنها به، تجهمت تعبيراتها وزاد كرهها له عندما استرسل قائلاً:

-فاكرة أنا عملت فيكي إيه زمان يا بت الخواجاية؟ جبت راسك وراس أهلك الأرض، كان ممكن اليوم ده أني اللي اتفضح، بس الحظ خدمني وجيتي تحت رجلي

استعادت في ذاكرتها ما قاله بالباطل في حقها، زاد تدفق الدماء الثائرة في عروقها غضبًا، وقبل أن ترد عليه كان «شاهين» مطبقًا على فكها، ضغط عليه قائلاً:

-لينا حساب لازم نسويه!

لم يترك المجال لها للتخيل أو التفكير وقبض على رسغيها، صرخت بفزع فلم يعبأ بصوتها المرتفع، هي الآن زوجته ويحق له التصرف معها كيفما يشاء، جذبها إلى أحضانه وضمها بقوة محاولاً تقبيلها بشراهة، التهم شفتيها ونال عددًا لا بأس به من القبلات مانعًا صوتها من الخروج من جوفها، استخدمت قواها لدفعه عنها لكنها لم تفلح، كان يفوقها عشرات الأضعاف، تحرك بها وهي في أحضانه نحو الفراش ثم مال بها ليسقط كلاهما عليه، انتزع بشراسة ثوبها من عليها ليكشف عن جسدها، تجرد من مشاعره وتعامل معها بقسوة رهيبة، ظلت تتوسله أن يكف عن ذلك ويترك لها الفرصة لتعتاد عليه أولاً كأمر طبيعي، لم يعر الانتباه لما يخصها فقد صار عبدًا لخيالاته الجامحة، سيطرت عليه رغبة واحدة ألا وهي إشباع جوعه للحب، تألمت «دينا» وبكت بشهقات مختنقة من طريقته العنيفة معها في إثبات رجولته والتأكد من

نقائها، عادت ذكرى طفولتها لتطفو بقوة في مخيلتها مؤججة من إحساس الألم الموجع، حطم مع عنفوانه الشرس شعائر حبها الخاصة المتمثلة في الرفق والمودة والملاطفة وغيرها مما يستميل قلب الفتاة ويحفز حواسها ويلهب جسدها قبل عقلها، تكسرت أحلام مراهقتها الوردية في الحصول على زوج حنون، وتدمرت بقايا نفسيتها المرممة مع إفراغه لشحنته المشتعلة بجسدها المستنزف.

حصل «شاهين» على متعته كاملة واستمتع بما ظفر به منها رغم عدم مشاركتها له وجدانيًا أو جسديًا، روى ظمأه فقط ونهض عنها ليرمقها بنظرات خالية من العطف، لملمت نفسها زاحفة للخلف وهي تئن بألم كبير، مسح عرقه المتصبب على جبينه قائلاً لها بجفاء وهو يشير بسبابته:

-إنتي هنا عشان مزاجي وخدمة أهلي وماتحلميش بأكتر من كده!

أجهشت ببكاء أشد حرقة متحسرة على مصيرها المشؤوم معه، صمت «دينا» أذنيها بكفيها عن باقي حديثه الموجع مكتفية بما ستؤول إليه حياتها معه.

***

تشنجت «هانم» مع كل صرخة كانت تصل إلى مسامعها من ابنة أخيها وهي تقف بالخارج عاجزة عن حمايتها من قسوته، نظرت لها «شريفة» بتشفٍ جلي، التوى ثغرها بابتسامتها الشيطانية المستمتعة بإذاقة عائلتها العذاب، فاض بها الكيل مع حدة الصراخ، خرجت عن صمتها الإجباري واندفعت نحو الباب لنجدتها، فهمت «شريفة» ما تريد فعله فسدت عليها الطريق ووبختها قائلة:

-عندك رايحة فين؟ هي البيوت مالهاش حرمة، شكلك نسيتي الأصول يا بت «صبري»!

ركزت «هانم» بصرها عليها وهي ترد بغلٍ:

-وهو اللي بيحصل جوا ده أصول

نظرت لها بتعالٍ قبل أن تقول ببرود مستفز:

-راجل مع مراته، هو حر، احنا مالنا

صرخت بها منفعلة:

-ده هيموتها جوا

كتفت ساعديها قائلة بعدم اكتراث:

-مالناش فيه، إن شاء الله يقطع من لحمها نسايل ويرميه لكلاب السكك، ولا حد فينا يقدر يعترض، وبعدين ده شرفه عاوز يطمن عليه، عندكو مانع؟

استدارت نحو والدتها تستنجد بها:

-يامه اتكلمي، يرضيكي نسكت على البهدلة دي؟

ردت «شريفة» ساخرة منها:

-بهدلة إيه لا سمح الله، ده بيخش عليها، ما إنتي ماتفهميش في المواضيع دي!

شعرت بجسدها ينتفض غضبًا، بدمائها تثور في عروقها، كان عويصًا عليها أن تضبط انفعالاتها أمام كتلة الاستفزاز الحية، ما صرف انتباهها عنها هو خروج «شاهين» من غرفته وسؤال والدته:

-ها يا «شاهين»؟

تنحنح بخشونة قبل أن يقول وهو يمسح طرف أنفه:

-كله تمام، هاتي العشا يامه!

اقتربت منه عمته لتربت على كتفه قائلة بتفاخرٍ:

-مبروك يا سيد الرجالة، سبع طول عمرك

دنت منه «هانم» لتسأله بتلهف وعينيها تبرق بقوة:

-البت كويسة؟ أني عاوزة أشوفها.

ردت عليها «شريفة» بامتعاض:

-مش هاتبطلي زن في ليلتك، ما أديكي شايفة قدامك العريس خارج فارد ضهره، يعني بتكم طلعت تمام.

نظرت لها شزرًا وهي تقول:

-أني بأكلمه هو!

لوت «شريفة» ثغرها لترد بتجهم:

-وأني عمته، ويالا بقى من غير مطرود، خلي العريس يرتاح في بيته.

عبست ملامح «نعمت» بصورة ملحوظة من فظاظتها الزائدة عن الحد، رمقت «هنية» وابنها وعمته بنظرات حادة معاتبة قبل أن تنطق موبخة ثلاثتهم:

-يخص، مايصحش كده، احنا نطرد من البيت زي الأغرباء؟

فاقت الإهانات حد المقبول وارتفعت أصوات الجدال بين المتواجدين، وصل حديثهم بالكامل إلى آذان «دينا» التي بحثت عما تستر به جسدها لتخرج إلى جدتها وعمتها وتفر معهم من الجحيم المستعر الذي وطأته، خرجت راكضة رغم الألم القوي الذي يعتريها وهي تصرخ مستغيثة:

-عمتي!

فغرت «هانم» شفتيها مصدومة من رؤيتها على تلك الحالة المزرية، لم تكن بالعروس النضرة المفعمة بالحيوية والتورد، بل كانت كمن خرج توًا من معركة قتالية، اعتلت الصدمة وجه جدتها أيضًا، فلم تتوقع أن تكون حفيدتها في وضع كهذا، تفاجأ «شاهين» بما تفعله زوجته فأمسك بها من خصرها قبل أن تصل إليها، وبيده الأخرى جذبها من شعرها ليحكم قبضته عليها، شهقت صارخة بألم، ومدت يدها قدر المستطاع مستنجدة بهما، حاولت «هانم» تخليصها من بين يديه وهي تصيح منفعلة:

-مش هاسيبها معاك، على جثتي لو فضلت هنا

تدخلت «شريفة» لإبعادها عنها هادرة بصوتها المرتفع:

-ماتغوري بقى من هنا، إنتو مالكوش حاجة فيها!

هدر «شاهين» بنبرة جهورية خشنة وقد ازداد شراسة مع «دينا»:

-عاوزة تعمليلي جرس وفضايح يا بت الخواجاية، وتخلي أهل البلد يقولوا عني مش راجل، مش هنولهالك، ده أني أدفنك قبل ما تحصل

في تلك الأثناء، كان «آمن» بالطابق السفلي يودع والده وجده استعدادًا لرحيله، انتبه لأصوات الصراخ المرتفعة الآتية من منزل أخيه، قفز قلبه في قدميه متخيلاً تدهور الأوضاع مع «دينا»، تلك الرقيقة التي لن تتحمل لسعة بعوضة، هرول صاعدًا الدرج دون تفكير صارخًا:

-»شـــاهين»

كور قبضته ودق الباب بعنف متابعًا صياحه الجنوني حتى فتحت له والدته، دفعها رغمًا عنه ليمرق إلى الداخل مسلطًا نظراته الملتهبة على المشهد

المحتدم بين أخيه وزوجته، توقف «شاهين» مرغمًا عن التطاول عليها باليد ليحدج «آمن» بحدة وهو يوبخه:

-جاي ليه دلوقتي؟

وكأن في حضوره المفاجئ نجدة لها من السماء، همست له من بين بكائها الحارق:

-الحقني!

كالثور الهائج اندفع نحو أخيه ليخلص «دينا» من براثنه متجاهلاً الصياح المستنكر من حوله، نجح في إبعادها فاحتضنتها عمتها لتحميها من بطشه، ولأول مرة يشتبك «شاهين» مع أخيه الأصغر ويصفعه لتجاوزه هادرًا به:

-شكلك اتجننت وعاوزني أربيك!

لم يعبأ بصفعه لعشرات المرات، فالأهم عنده ألا تطالها يده الباطشة، سيتحمل عنها الأذى لتكون في مأمن منه، جحظت عينا الحاج «إبراهيم» من تشاجر حفيديه معًا وقد وقف عند عتبة باب المنزل، ضرب بعكازه الأرضية صائحًا بخشونة:

-»شـــاهين»، «آمـــن»!

رد «آمن» محتجًا وهو ممسك بتلابيب أخيه:

-مش هاسكت زي المرة اللي فاتت!

دعمته «هانم» في موقفه الرجولي وتخلت عن جبنها لتقول بشجاعة وجرأة:

-مش هاسيبلك بت أخويا لو فيها فضايح، محدش يرضى بالبهدلة دي لحد من عياله، واحنا لسه عايشين ماموتناش عشان تمرمطوها بالشكل ده وفي

ليلة فرحها

استنكرت «نعمت» ما حدث أمام ناظريها لحفيدتها الوحيدة وهتفت منفعلة وموجهة حديثها لكبير العائلة:

-بقى ده اتفاقنا يا حاج «إبراهيم»؟ أني هاجيب أهل البلد ورجالة المجلس يشوفوا اللي بيحصل ده ويحكموا

خشي الحاج «إبراهيم» من تدهور الوضع وتطوره للأسوأ فرد بقوة كاظمًا غضبه قدر المستطاع:

-هو أني ماليش كلمة هنا؟!

ردت عليه «نعمت» بجدية:

-إنت على راسنا بس اللي حاصل هنا مايرضيش ربنا

تشبثت «دينا» بعمتها تستغيث بها:

-ماتسبونيش يا عمتي، هاموت نفسي لو عملتوا ده

أشار الحاج «إبراهيم» بعكازه آمرًا بتجهم:

-خدي مرات ابنك جوا أوضتها يا «هنية»

صرخت «دينا» بهستيرية وهي تقاوم تلك الأذرع التي تسحبها قسرًا:

-لأ، ماتسبنيش يا عمتي، ابعديهم عني

جرجرتها «شريفة» بكل ما أوتيت من قوة وعاونتها «هنية» في ذلك، كانت مقاومتها ضعيفة بسبب قواها التي خارت فتمكنت الاثنتان من انتزاعها من أحضان عمتها بسهولة، شعرت أن روحها تُزهق وهي تُساق جبرًا إلى داخل

غرفة نومها التي بدت كزنزانة مسجون حُكم عليه بالإعدام، تركتها «هانم» مضطرة لتدافع عنها، ولم تعلم أي نهاية مأساوية تنتظر ابنة أخيها بالداخل، اعترض «آمن» على ما يحدث من مهانة وذل صائحًا باستنكار كبير:

-بتكرر نفس اللي حصل زمان يا جدي

رد عليه «شاهين» مستهترًا:

-البت دي مالهاش دية عندنا، احنا واخدينها تخليص حق!

زادت تعابير «آمن» شراسة وهو يرد عليه بتحدٍ:

-المرادي أنا اللي هاقفلك يا «شاهين»!

التقت نظرات الأخوين معًا، كانت أعينهما مليئة بالغضب والحنق، لم يتوقفا عن رمق بعضهما البعض بالنظرات المتحدية عندما هدر جدهما:

-أنا لسه ماموتش عشان تمسكوا في بعض قدامي!

ردت عليه «نعمت» بتجهمٍ:

-مش هاسكت عن حق بت المرحوم حتى لو كان فيها قطع رقاب!

التفت ناحيتها الحاج «إبراهيم» ليقول بجدية وقد قست نظراته:

-الكلام ماخلصش يا «أم حسن»

وقبل أن يضيف المزيد خرجت «هنية» من الغرفة تصرخ بهلع:

-يا نصيبتي، الحقنا يا حاج «إبراهيم»، البت رمت نفسها من البلكونة!

تصلبت حواس «آمن» وشعر أن قلبه توقف عن النبض بمجرد سماعه لتلك العبارة المفجعة، كان وقعها عليه كالخنجر المسموم فأصابته في مقتل،

هزة عنيفة عصفت بكيانه وزلزلت أجهزته الحيوية، عجز عن الوقوف بثبات، تداخلت الأصوات وتحولت الوجوه إلى أطياف متزاحمة، أغمض عينيه لينهار جالسًا على أقرب أريكة عاجزًا عن الحركة والتفكير، فموتها يعني هلاكه.

***

الفصل الثاني عشر

لم يعلم أحد حقيقة ما حدث حقًا، فهل هي بالفعل ضحية حادث انتحار أم تم دفعها عمدًا لتسقط من الشرفة؟ حافظت «شريفة» على ثباتها وهي تقف بين أفراد العائلتين في رواق المشفى المتواضع الذي نقلت إليه «دينا»، جابت بنظراتها الأوجه المتوترة ثم انزوت بعيدًا عن الزحام عند أحد الأركان لتستعيد في عقلها اللحظات الفاصلة في حياة تعيسة الحظ التي وقعت بين أيديها، استغلت عصبيتها وعدم تركيزها لتفكر في الخلاص منها، خاصة أنها كانت قريبة من الشرفة، أجبرتها على التحرك في اتجاهها دون أن تدري أنها ستلقى حتفها عندها، وفي غفلة منها دفعتها بغضب من كتفها لتفقد «دينا» اتزانها وتسقط من الشرفة وسط صدمة «هنية»، حذرتها «شريفة» آنذاك من مغبة التفوه بكلمة مما حدث، وادعت الاثنتان انتحار العروس هربًا من زوجها، التقطت عيناها نظرات «هنية» التي تلومها، ازدردت ريقها وجاهدت لتبدو طبيعية في ردة فعلها كي لا تثير شكوك من حولها.

لملم الحاج «إبراهيم» المسألة بصلاته ومعارفه القوية قبل أن تصل للشرطة ليتجنب الفضائح وليبعد أي شبهة جنائية عن عائلته، لذا قيل أن الحادث قضاء وقدر، والعروس قد سقطت سهوًا من الشرفة أثناء توديعها لعائلتها، هكذا اتفق الجميع أن تترك الخلافات جانبًا الآن حتى يتم الاطمئنان عليها، جلبة خفيفة عمت المكان فتأهب الواقفون به لتلقي الأخبار من الطبيب المناوب الذي هرول نحوه «آمن» ليكون أول السائلين عنها، تحركت حدقتاه بتوتر وهو يسأله بنبرة متلهفة:

-أخبارها إيه؟ طمنا يا دكتور

سألته «هانم» بقلب مفطورٍ:

-قولي يا ضاكتور، البت عايشة ولا ...

قاطعها مبتسمًا ليبدو مقنعًا:

-اطمنوا يا جماعة، المدام كويسة، كسر بسيط في الرجل اليمين، وشوية سجحات عادية، الحمدلله إن المسافة مكانتش كبيرة، كان ممكن تعمل مشاكل الله لا يقدر

تنفس «آمن» الصعداء وقد بدت على تعابيره المشدودة الارتياح قليلاً، سأله الطبيب بفضول:

-إنت جوزها؟

تحرج من سؤاله وتبدلت ملامحه للامتعاض قائلاً:

-لأ

بينما رد «شاهين» بصوته المتحشرج وهو يقترب منه:

-أني جوزها

تراجع «آمن» للخلف ليفسح له المجال مكتفيًا بالأخبار المطمئنة التي أثلجت صدره، تابع الطبيب قائلاً بجدية:

-طب معلش عاوزك في كلمتين كده على جنب

حك «شاهين» ذقنه متسائلاً:

-خير يا ضاكتور؟

تساءلت «هانم» هي الأخرى بتلهف قلقٍ:

-قولنا الحقيقة يا ضاكتور، البت جرالها إيه

رد عليها بهدوء ليخفف من توترها:

-يا حاجة هي كويسة، ده استفسار بسيط من جوزها، ماتقلقيش

ثم وضع يده على كتف «شاهين» ليجبره على التحرك معه عند الزاوية، استطرد قائلاً بخفوت:

-واحنا بنكشف على المدام لاقينا عندها نزيف في مكان حساس

قطب جبينه متسائلاً باستغراب:

-وده من إيه؟!

رد عليه بتساؤل أكثر غرابة:

-حضرتك مش جوزها بردك؟

أجابه بوجهه العابس:

-أيوه، ودخلتنا كانت النهاردة

هز الطبيب رأسه متابعًا:

-كده أنا فهمت، طيب عشان المدام تقدر تخف وتمارسوا حياتكم الزوجية بشكل طبيعي بعد ما تخرج من هنا هي محتاجة شوية أدوية تستخدمها بصورة يومية

رد عليه بسخطٍ:

-مش لما تخرج

وجد الطبيب برودًا واضحًا عليه فأدرك أن نصائحه لن تؤتي بثمارها، تنهد مشددًا:

-أنا بأعرفك ده لسلامتها

بدا «شاهين» غير مهتم فرد بفتور:

-ربك يسهلها، في حاجة تانية يا ضاكتور؟

حرك رأسه بالنفي قائلاً:

-لأ!

-ماشي يا ضكترة، مانجلكش في حاجة وحشة

قالها «شاهين» بسخرية واضحة وهو يسير مبتعدًا عنه لينظر له الطبيب بازدراء وهو يحدث نفسه:

-ربنا يتولى مراتك، واحد جلنف صحيح!

***

تسلل خلسة قاصدًا رؤيتها بمفرده، كان قلبه المتألم بحاجة للاطمئنان عليها، ساعده في ذلك كون المشفى من النوع المتواضع الذي لا يمنح المريض أي خصوصية، اختار «آمن» بقعة جيدة تمكنه من التطلع إلى «دينا» دون أن تلتقطه الأعين، اختبأ خلف أحد الحوائل القماشية، بحث قلبه عنها قبل عينيه، وقعت عيناه المشتاقة لها على وجهها الذابل، كتم بيده أنفاسه اللاهثة وهو يبصرها في تلك الحالة الحرجة رغم حديث الطبيب المطمئن، ودَّ لو استطاع الذهاب إليها واحتضانها ليهدأ من الثورة الهائجة بداخله، كان ذلك محظورًا عليه، بل من المستحيلات، فهي لا تجوز له ولا يحق له التفكير فيها،

عاتب نفسه لتجاوز مشاعره حد المقبول، كور قبضة يده ضاغطًا على أصابعه كوسيلة للتنفيس في صمت عما يعتريه من أحاسيس متخبطة، بات الابتعاد والفراق خيارًا إلزاميًا، وجوده بجوارها يعني عذابًا لن ينتهي أبدًا، تطلع لمرة أخيرة إلى وجهها تاركًا لعبراته المقهورة العنان لتنساب على صدغيه، ثم عاد من حيث أتى كأنه لم يكن.

***

رغم وعكتها الصحية استشعرت وجود من يشعرها بالأمان، فتحت «دينا» عينيها وبدأت تجوب بنظراتها المشوشة أرجاء المكان باحثة عما تبقى من أثره، لم تجد حولها سوى بضعة أسرة فارغة وممرضة تقف بجوارها تحقن مادة ما في السائل الشفاف الذي يغذي وريدها عن طريق إبرة طبية مغروزة في رسغها، سألتها الممرضة بروتينية:

-عاملة إيه دلوقتي؟

أغمضت عينيها للحظة قبل أن تعاود فتحهما قائلة:

-جسمي وجعني

بدأت تئن من آلام عظامها، ردت عليها الممرضة بهدوءٍ:

-أنا حطيتلك مسكن، شوية ومش هاتحسي بحاجة

ثم تابعت عملها في صمت رغم الفضول الذي يحثها لسؤالها عن تفاصيل حادثها المؤسف، قضى على ذلك تواجد «شريفة» في المكان، ابتسمت مجاملة وهي تقول:

-حمدلله على سلامتها

ردت عليها «شريفة» بوجهها المكفهر:

-متشكرين ياختي، مانجلكيش في حاجة وحشة

انقبض قلب «دينا» لرؤيتها، كانت شبه متيقنة بأن في حضورها كارثة مخيفة، انكمشت على نفسها خوفًا منها خاصة أنها استعادت في مخيلتها لحظة دفعها لها ومحاولة قتلها، اتسعت حدقتاها في هلع، دنت منها «شريفة» رامقة إياها بنظرات مهددة، قبضت على فكها بيدها تعتصره وهي تقول لها بصوت خفيض:

-حسك عينك حد يعرف باللي حصل وإلا ...

بترت عبارتها عمدًا لتتأكد من انتباهها كليًا لها ثم استأنفت حديثها المهدد هامسة:

-هاولع في أهلك قصادك، وإنتي عارفاني، أني نابي أزرق، سامعة!

حركت «دينا» رأسها بإيماءات خائفة وهي ترد بصعوبة:

-حـ... حاضر

أرخت «شريفة» أصابعها عنها مكملة بتأفف:

-جوازة الشوم والندامة!

ارتجفت «دينا» خوفًا منها وقد غص صدرها بالبكاء، لم تستطع منع نفسها من التحسر على حالها، فقد ازدادت الأمور تعقيدًا، وأصبحت حياة الأقرب إليها في خطر كبير إن أفصحت عن الحقيقة، أدركت أنها وحيدة وبمفردها، لن تقوَ على مجابهتها، رفعت مقلتيها المتورمتين من كثرة البكاء إلى السماء هامسة بتضرعٍ:

-يا رب، أنا ماليش غيرك، نجيني من شرها!

***

عنت عودتها إلى سجنها الزوجي بداية جديدة لمرحلة شقاء وتعب لن تنتهي إلا بموتها، تبخرت أحلامها المستقبلية، وتدمرت طموحاتها في إتمام تعليمها الجامعي، لم يبقَ لها إلا جدران المنزل لتحوي شكواها المريرة وأحزانها، انهمكت «دينا» لأسابيع متصلة في أعمال المنزل التي لم تتوقف مطلقًا بسبب تسلط «شريفة» رغم صحتها العليلة، أهملت فيها فباتت أكثر ذبولاً وإرهاقًا وضعفًا، كذلك انحصرت زيارات عمتها وجدتها لها، فتذوقت مرارة اليتم، وحينما يحين المساء كانت تبدأ معاناة أخرى على فراش الزوجية، شعر «شاهين» بالنفور منها، فهي لم تمنحه إحساسًا حسيًا يلهب حواسه نحوها ويؤجج من مشاعره الذكورية، كانت كالجسد الميت بالنسبة له، نعم يفعل ما يجيده ببراعة دون أن يحظى بلذة الحب الخاصة منها، فترت رغبته فيها تدريجيًا مع برودها المستمر، سئمها وأصبحت تعني له فقط وسيلة لإفراغ شحنته الغريزية، لم تمانع «دينا» في وضعها في ذلك القالب المهين، ارتضت به ببساطة، فأي حب يمكن أن تقدمه لمن سلبها كل شيء؟ مقتت لحظات اقترابه منها وتلمسه لجسدها محاولاً إشعال الرغبة فيها، لم تتجاوب معه، ولم تقدم له أكثر من بكاء مكتوم، تضاعف كرهها له يومًا بعد يوم، وأصبحت شعائر حبه عذابًا يوميًا يُضاف إلى قائمة إزهاق روحها.

وذات يوم قررت «شريفة» أن تنزع فتيل قنبلة أخرى لتكدر من حياتها التعيسة، انتظرت التجمع العائلي في وقت الغذاء لتسأل بوقاحة:

-إيه مافيش حاجة جاية في السكة؟!

أجابها «شاهين» بوجه ممتقع:

-لأ لسه

ردت عليه «شريفة» بإهانة صريحة موجهة إلى زوجته:

-يا عيني على بختك يا حبيبي، هانقول إيه نصيبك تقع مع واحدة كده، أرض بور مهما ترمي فيها من تقاوي لا عمرها هتطرح ولا تجيب خير!

كان حديثها جارحًا لها، حاولت «دينا» الدفاع عن تأخر حملها قائلة بنبرة متألمة وهي تكمل رص الصحون:

-والله دي حاجة مش بإيدينا، لما ربنا يأذن

نظرت لها «شريفة» شزرًا قبل أن تقول بسخط:

-ببوز أمك الفقر ده مش هايعرف يجيب عيال

ثم ضيقت نظراتها الحادة لتسألها بخبث قاصدة العبث معها:

-اوعي تكوني بتاخدي حاجة يا بت؟

شهقت «دينا» مصدومة من تلميحها المهدد لها وقد ارتفع حاجباها للأعلى في رعب:

-أنا

تابعت «شريفة» موضحة بلؤم:

-شكلك يعملها، ماهو اللي زيك من دم خواجات ليهم في الشمال!

خافت «دينا» من الأعين التي تحولت نحوها لتصبح مسلطة عليها وكأنها في موضع اتهام، وزاد هلعها من نظرات «شاهين» غير المريحة لها، هتفت بتلعثم:

-أبدًا والله، حرام عليكي تظلميني، أنا مش كده!

اغتاظت «شريفة» من ردها عليها فضربت بقبضتها طاولة الطعام صائحة فيها بانفعال:

-إنتي بتردي عليا

ابتلعت «دينا» ريقها بخوف، فنظرات زوجها لم تكن مبشرة بأي خير على الإطلاق، دست الطعام في جوفها متحاشية النظر إليه، لكنه كان كالعلقم الذي ألم حلقها، ضجر الحاج «إبراهيم» من جدالهما فهدر آمرًا:

-كفاية يا «شريفة»، مش ناقصين عكننة على الأكل

ردت عليه بتذمر:

-ما هي أم النكد!

أضاف «أمين» قائلاً بضجرٍ:

-ما احنا مش هانخلص النهاردة

ظلت «دينا» ترتجف رغم براءتها من ذلك الاتهام الباطل، كانت تخشى من زرع الشكوك في نفس زوجها لأنه ببساطة سيصدق ما يُقال عنها دون أن يتحرى الحقيقة وسينتهي يومها بكدمات مؤلمة وضربات موجعة في جسدها المنهك، ابتلعت لقيمة أخرى بغير شهية، سعلت فجأة حينما أمرتها «شريفة» بجمود:

-قومي امسحي السلم، وسخ ومش عاجبني!

نظرت لها مصدومة من طلبها، في حين رد عليها «أمين» باستغراب:

-ما تخليها تاكل الأول

لوت ثغرها قائلة بسخط:

-هو الأكل هايطير، ماتطفح لما تخلص!

حاولت «دينا» أن تلملم كرامتها المهدورة فردت معترضة:

-أنا منضفاه امبارح

لوحت لها «شريفة» بكفها قائلة:

-اتوسخ من امبارح للنهاردة، ولا على إيديكي نقش الحنة، تكونيش فاكرة نفسك ست بيت يا بت إنتي!

احتج «أمين» على تطاولها المثير لأعصاب الجميع فنهرها قائلاً:

-بالراحة يا «شريفة»، مش كده

هبت واقفة من مكانها لتقول بعصبيةٍ:

-بأقولكم إيه، أني حرة معاها، ولا نسيتوا

لم تجد «دينا» بدًا من الاعتراض عليها، تركت صحن طعامها كما هو لتنهض من مقعدها وهي تقول بنبرة منكسرة:

-حاضر، هاروح أمسحه

انسحبت بخزي من بينهم لتفعل ما أمرتها به، اكتفى «شاهين» بما تناوله قائلاً بعبوس:

-أني شبعت

التفتت «شريفة» نحوه قائلة بامتعاض:

-سدت نفسك البعيدة، إلهي يسد نفسها

أكمل قائلاً بنفس الوجه المتجهم وهو يمسح فمه في طرف كمه:

-هاطلع أشرب سوجارة برا

تبعته عمته قائلة بتلهفٍ خبيث:

-وماله يا حبة عيني، أني جاية معاك!

أرادت أن تشحنه بحديثها الكريه ضد زوجته ليؤذيها أكثر بغضبه الأعمى، خاصة أنه كان يتصرف برعونة وهوجائية، وكلما رأتها متألمة انتشت بسعادة مريضة وأشبعت رغبتها في الانتقام منها.

***

كفكفت بظهر كفها دمعاتها الساخنة التي بللت الدرج وهي تنحني لتمسحه، كانت على وشك الانهيار من كثرة ما تمر به من ضغوطات مهلكة لأعصابها، تحملت الكثير لكن فاض بها الكيل، أوشك ما تبقى من طاقتها على الانتهاء، جلست «دينا» على الدرج تشهق بنحيب خفيض، همست لنفسها بنبرة مقهورة:

-نفسي أرتاح بقى من الهم ده

استندت برأسها على مرفقها لكنها شهقت مذعورة حينما سمعت صوت «شاهين» المتشنج يسألها:

-أني هم؟

رفعت وجهها المرتعد نحوه لترد نافية بهلعٍ وقد هبت واقفة على قدميها:

-لأ، أنا ...

قاطعها بوعيدٍ مهدد وهو يهجم عليها:

-أني هاوريكي النجوم في عز الضهر!

صرخت مفزوعة من انقضاضه عليها، قبض «شاهين» على رأسها نازعًا حجابها وهو يجذبها بشراسة ليجرجرها خلفه على الدرج، واصل صياحه الهادر بها:

-عمتي عندها حق في كل كلمة بتقولها عنك

ردت بصراخ متألم:

-والله ما عملت حاجة!

استمر في سحبها بهمجية حتى وصل بها إلى باب منزله، أدخلها إليه لينهال عليها بالضرب المبرح، تلقت «دينا» من الصفعات والركلات ما طرحها أرضًا، تكورت على نفسها لتحمي وجهها من بطشه، لكنها فشلت في التصدي له، وكما كان يحدث في كل مرة، لم يتدخل أحد لنجدتها أو لمنعه من التمادي في اعتدائه الوحشي عليها، وكأن ذلك قد أصبح أمرًا روتينيًا، أغمضت عينيها بقوة مستسلمة لقسوته العنيفة، ووسط آلامها استحضر عقلها طيف أخيه «آمن»، ذاك الذي دافع عنها وتدخل لحمايتها قبل أن يرحل مبتعدًا لتقسو الحياة أكثر معها، بدت ذكراه كالمخدر لها مع تضاعف أوجاعها حتى خبت صورته وتحول كل شيء إلى الإظلام.

***

أفاقت من إغماءتها المؤقتة لتجد نفسها طريحة الفراش وأثار اعتدائه الجسدي عليها ممزوجة ببقايا جموحه المفرط في علاقته الحميمية بها، لم يرأف «شاهين» بوضعها المتدهور واستغل فقدانها للوعي -كعادته- ليحصل على مبتغاه ويشبع غريزيته المريضة دون أي مراعاة لأدميتها وحقوقها النفسية والجسدية، استندت «دينا» على طرف الفراش بيدٍ مرتعشة وهي تسير زاحفة إلى خارج الغرفة، وصلت إلى الحمام بصعوبة ثم بدأت في نزع ثيابها لتغتسل، اختلطت عبراتها بالمياه المنهمرة على جسدها، ورغم حالة التعب الواضحة عليها إلا أنها أرادت أن تزيل رائحته من على جلدها، انتفضت فزعًا حينما رأت المياه تنساب أسفل قدميها مصطبغة باللون الأحمر، أدركت

أن ذلك النزف جراء عادتها الشهرية، ارتعدت وتحول لون بشرتها للزرقة خوفًا من ردة فعل زوجها إن علم بهذا، ربما سيظن بالخطأ أنها تتعاطى موانعا للحمل متجاهلا إفرازات جسدها الطبيعية، خاصة أن عمته قد زرعت الشك في نفسه نحوها، لم تقوَ على الوقوف وانهارت على الأرضية المبللة تبكي وهي تلطم على رأسها:

-هاعمل إيه دلوقتي؟

كتمت شهقة مذعورة كانت على وشك الخروج من جوفها حينما سمعت الدقات الثابتة على باب المنزل، نهضت من جلستها غير المريحة لتغلق صنبور المياه، ثم أسرعت بتجفيف جسدها وارتداء ما يستره، تساءلت بنبرة مهتزة وهي تدنو من الباب:

-مين؟

أتاها صوتًا مألوفًا أشعرها بالارتياح:

-أني يا «دينا»، افتحي يا حبيبتي

تنفست الصعداء وقد علمت أن عمتها هي الضيفة القادمة، أسرعت في خطاها نحوه لتفتحه مرددة بصوتها المختنق:

-عمتي!

احتضنتها دون أن تمهلها الفرصة للدخول أولاً، أرادت أن تشعر بدفء أحضانها، بأنها وعاء الأمان الذي يحتويها وسط مخاوفها المستمرة، ظلت على تلك الوضعية للحظات حتى تراجعت عنها، أحاطت «هانم» وجه ابنة أخيها بكفيها محدقة فيها بقلق وهي تسألها:

-مالك يا بتي، إيه اللي حصلك؟

ألقت عليها نظرة سريعة شاملة متأملة هيئتها المبللة بالمياه، ومنظرها المزري، ثم سألتها بتوجسٍ:

-ردي عليا، في إيه؟

أجهشت «دينا» بالبكاء وألقت نفسها في أحضان عمتها من جديد هامسة لها من بين نحيبها الموجع:

-خليكي معايا يا عمتي، ماتسبنيش تاني!

انقبض قلب الأخيرة خوفًا عليها، سألتها بقلق أكبر:

-يا بت قوليلي في إيه، أني قلبي اتوغوش عليكي!

خشيت «دينا» من إخبارها بما تمر به من تعذيب يومي على يد كلاً من «شاهين» و»شريفة» فتتفاقم الأمور وتزج بها في مصاعب عويصة، ابتعدت عنها لتجيبها مدعية الكذب وهي تمسح عبراتها:

-كان نفسي أكون حامل بس محصلش نصيب

أخرجت «هانم» تنهيدة مطولة من صدرها وهي ترد:

-يا بت خضيتني، كل حاجة وليها وقتها، لسه ربك مأذنش!

ردت عليها بحزن ملموس:

-ادعيلي بالله عليكي

ارتمت من جديد في أحضانها لتنعم قليلاً بالسكينة والراحة، شعرت مع يدها التي كانت تمسح برفق على ظهرها بالحنان الذي تفتقر إليه بين جدران سجنها الزوجي، أغمضت عينيها مستسلمة لإحساس العطف والشفقة، كانت بحاجة لمن يهون عليها أوجاعها، يربت على كتفها، يبشرها بأن القادم أفضل،

فكان في وجودها معها مسكنًا مؤقتًا لآلامها.

***

ركل بقدمه وبعصبية واضحة النارجيلة الموضوعة أمامه متذمرًا من بشاعة مذاقها فتبعثرت على أرضية المقهى، نظر العامل إلى «شاهين» باستغراب، فلم تكن تلك هي المرة الأولى التي يعد له طلبه ويمدحه فيها على مهاراته في رص أحجار الفحم ونيل إعجابه، انحنى ليجمع ما قذفه قائلاً بهدوء:

-هاجيبلك غيرها يا ريسنا، حاجة وصاية وهتعدل النافوخ!

رد عليه «شاهين» بوجهه الممتقع:

-أما أشوف، الظاهر حجرك بقى مضروب، ومافيش حاجة بتظبطلي دماغي

ابتسم قائلاً بتأكيد:

-دي عندي يا كبيرنا، فوريرة وهاتكون التعميرة جاهزة!

لم يعلق عليه «شاهين» وحرك رأسه للجانب ليحدق بعبوس في الجالسين بالمقهى، تعقدت تعابيره أكثر مع رؤيته لـ «راجح» يقترب منه، سحب الأخير مقعدًا ووضعه بجواره متسائلاً:

-مالك يا عمنا؟ مش زي عوايدك يا حمام

زفر «شاهين» بامتعاض وهو يقول له:

-والنبي لتسيبني في حالي، أنا مش ناقص غم

غمز له «راجح» متابعًا بعبثٍ:

-شكل الجوازة دي مجتش على المزاج

استشاط الأخير من تجاوزه في حدود الحديث معه فحذره بخشونة وقد احتدت نظراته إليه:

-إنت هتدخل في اللي ملكش فيه، احفظ لسانك بدل ما ....

قاطعه «راجح» بتوجسٍ وهو يشير بكفيه:

-مقصدش يا عمنا، بس إنت عارفني حابب أخدمك، ده إنت غالي عندي!

لوح له قائلاً بتجهمٍ:

-بناقص من دي خدمات

مال عليه مرة أخرى ليسأله بلؤم:

-طب جربت الشريط إياه، ده مفعوله سحر

ضرب «شاهين» بيده الطاولة الخشبية بعنف بيّن وهو يرد متسائلاً بحنقٍ:

-قالولك إني خرع؟!

أومأ له «راجح» بحاجبه مبررًا:

-يتقص لسان اللي يقول كده، بس زيادة الخير خيرين، بيني وبينك في نسوان مايجوزش معاها إلا الحاجات دي عشان تسد وتهد!

نفخ «شاهين» من جديد بنفاذ صبر ليظهر ضيقه منه قبل أن يضيف بفظاظة:

-حل عن نافوخي، أني مش ناقص صداع

نهض رفيقه –الوهمي- من مقعده مردداً بهدوء ليمتص انفعاله الغير مفهوم:

-أوامرك يا ريس، بس لو عوزتني أني في الخدمة، سلام

تمتم «شاهين» من بين شفتيه بازدراء:

-غور في داهية، أني ناقصك!

ثم سلط أنظاره على عامل المقهى الذي أحضر له نارجيلة مطابقة لما يريد، رص العامل أحجار الفحم بتريث وحرفية ليتأكد من استنشاق زبونه الدائم لدخان يشعل خلايا رأسه ويلهب نيران صدره، نفث «شاهين» الدخان عاليًا وقد شرد يفكر مليًا في مسألة ما.

***

أدركت من مجرد التطلع إلى عينيها المنتفختين أنها تكذب عليها وتخبئ أسرارًا عنها، ومع ذلك لم تحاول الضغط عليها لمعرفتها، ودعت «هانم» ابنة أخيها واعدة إياها بزيارة أخرى قريبة، خرجت من المنزل دون أن تمر على عائلة الحاج «إبراهيم» لتلقي عليهم التحية تجنبًا فقط لرؤية «شريفة» التي ستسمعها من الكلمات المسمومة ما يكدرها، قابلت مصادفة «جاد» الذي كان قد انتهى لتوه من إحضار بعض الأشياء لهم، انفرجت شفتاه عن ابتسامة متسعة وهو يهلل مرحبًا:

-منورة يا ست الكل

ردت بحرج وهي تتحاشى النظر إليه:

-تسلم يا ريس «جاد»

واصلت سيرها المتعثر نوعًا ما لكنه استوقفها قائلاً:

-مش عاوزة حاجة أعملهالك، أني تحت أمرك وفي خدمتك

تورد وجهها من ذوقه الزائد، نظرت نحوه بتوتر وهي ترد:

-كتر خيرك

أشار لها بيده متابعًا:

-والله ما كلام، إنتي أؤمريني بس

-مايؤمرش عليك عدو

-يا رب

قالتها وهي تعاود السير من جديد لكنه قطع عليها الطريق هاتفًا بجدية:

-ست «هانم»

ضيقت ما بين حاجبيها متسائلة بانزعاج طفيف:

-خير في حاجة تانية؟

تنحنح بخشونة قبل أن يجيبها بتلعثم كبير:

-إني .. كنت عاوز ... يعني

تلفتت «هانم» حولها بتوتر لتبدي ضيقها من حديثه معها هكذا علنًا أمام المارة مما قد يظنوا بها السوء، وخاصة «شريفة» التي لن تتوانى عن إطلاق الشائعات والأقاويل الكاذبة عنها، قست ملامحها وهي تسأله:

-في إيه؟

حك مؤخرة رأسه قائلاً بنفس الارتباك:

-مش عارف أقول إزاي، بس بالله عليكي ماتفهميني غلط، أني غرضي شريف

ملت من مماطلته غير المجدية فهتفت به:

-قول على طول يا ريس «جاد»

استجمع شجاعته ليقول بتمهلٍ:

-إن مكانش فيها إساءة أدب ينفع أجي للست الحاجة أتكلم معاها في حاجة

كده تخصني

ورغم الفضول الذي اعتراها من وقع كلماته المؤثرة على حواسها إلا أنها لم تظهر ذلك له، حافظت على ملامحها الجادة وهي ترد:

-تشرف في أي وقت

تابع «جاد» مضيفًا بخجلٍ:

-أني عارف إن العين ماتعلاش عن الحاجب، بس غرضي أكمل نص ديني وبالحلال، أني راجل كسيب وقادر أفتح بيت

ردت بوجه ممتعض مقاومة تلك المشاعر الثائرة بداخلها:

-وأني مالي بالكلام ده

أكمل قائلاً بغموض:

-لما أتكلم مع الحاجة الأول، عشان مايبقاش عداني العيب

أحست من نبرته أنه يقصدها بالحديث، اندفعت الدماء في عروقها لتزيد من توهج بشرتها بحمرة خجلة، عمدت إلى الهروب من أمامه قبل أن يشعر بذلك التخبط الذي أصابها قائلة بجدية:

-وماله، متأخذنيش يا ريس «جاد» وقفتنا كده مش حلوة، أني لازم أمشي

تنحى للجانب مردداً بتفهمٍ وهو يمسح بيده على صدره:

-معاكي حق، اتفضلي يا ست الكل

ارتبكت في مشيتها وهي تسرع هاربة منه، بقيت أنظار «جاد» مثبتة عليها رغم ابتعادها، أخرج تنهيدة عميقة تحمل الأمنيات من صدره قائلاً لنفسه

بعشمٍ:

-يا رب يجعلي نصيب معاكي يا بت الناس!

***

سعلت بقوة وهي تنظر بيأس إلى رفيقتها الجالسة بجوارها في غرفة العناية الفائقة، تضاعفت أمراض «كاثرين» مع زيادة سنوات عمرها، اعتقدت قديمًا أنها ستموت مبكرًا فتخلت مضطرة عن حفيدتها الوحيدة لتجهل ما حل بها مع عائلة أبيها، لامت نفسها بقسوة على تجاهلها لها، أزاحت قناع التنفس الصناعي عن فمها لتقول بوهن بلكنتها اليونانية:

-لقد أخطأت في حقها

وضعت رفيقتها «ليندا» يدها على كفها المجعد لتربت عليه وهي ترجوها:

-لا تقسو على نفسك «كاثي»! أنتِ فعلتِ الصواب

ردت عليه بندمٍ:

-كانت بحاجة إليّ وتركتها وحيدة

ألقت «ليندا» نظرة خاطفة على أجهزتها الطبية لتتأكد من أنها بخير بعد أن ازداد سعالها ثم توسلتها قائلة:

-اهدئي حبيبتي، العتاب لن يجدي الآن

كانت حدقتاها تهدد بسقوط عبراتها الحبيسة وهي تسألها:

-هل علمتِ مكانها؟

أجابتها بجدية:

-أنا على وشك الوصول إليها، لقد تواصلت مع السلطات وقريبًا سيتم إبلاغي بما يخصها

هزت «كاثرين» رأسها بخفة وهي تضيف بصعوبة:

-حسنًا، «ليندا» إذا حدث لي شيء فكما أخبرت، كل ثروتي لحفيدتي

ربتت رفيقتها على كفها عدة مرات قائلة:

-لا تقلقي، فأنا أنهيت الإجراءات القانونية لنقل كل شيء لملكيتها، وأرجوكِ كفي عن إرهاق نفسك، أنتِ بحاجة إلى الراحة!

حدقت في سقفية الغرفة الباهتة قبل أن تجيبها بنبرة يائسة:

-سأفعل حينما أعرف طريقها!

***

الفصل الثالث عشر

انتظر في ردهة عيادة الطبيب المتخصص في أمراض الذكورة بنفاذ صبر، فقد مل «شاهين» من الجلوس لساعات مترقبًا دوره، كان معتقدًا أنه الوحيد الذي أتى إلى هنا خلسة، تفاجأ بوجود العشرات غيره، والكل ينتظر السماح برؤية الطبيب لمعرفة تفاصيل وطبيعة الحالة المرضية، انتقى بعناية تلك العيادة النائية في البر الشرقي ليطمئن على حاله دون أن يعرف أقربائه بذلك، صاح الممرض عاليًا:

-»شاهين أمين»

هب واقفًا من جلسته الغير مريحة وهو يرد:

-إيوه

اتجه إلى حيث أشـــار له الممرض ليلتقي بالطبيب المتابع له، ولج إلى داخل غرفة الكشف مرددًا:

-سلامو عليكم

رحب به الأخير قائلاً بلطفٍ:

-وعليكم السلام، اتفضل يا أستاذ

جلس «شاهين» على المقعد المواجه لمكتبه ثم ناوله مغلفًا به نتائج التحاليل الخاصة به، طالعها الطبيب بدقة قبل أن يستطرد قائلاً:

-أنا مش عارف أقولك إيه

تشنجت تعابير «شاهين» بدرجة ملحوظة وهو يسأله:

-خير يا ضاكتور؟

ضغط الطبيب على شفتيه ليجيبه بحذرٍ:

-للأسف نتائج السائل المنوي مش مبشرة خالص

زادت نظراته قساوة عندما سأله بعصبية:

-أني مش فاهمك، ده معناته إيه؟!!

ابتلع الطبيب ريقه ليجيبه بعدها بحرصٍ:

-يعني في صعوبة إنك تخلف

احتقنت نظرات «شاهين» بشدة وتدافعت دمائه التي غلت في أقل من ثانية بداخل عروقه لينفجر فيه غاضبًا وهو يضرب بقبضتيه على سطح مكتبه:

-نعم، إنت اتجننت في عقلك!

توجس الطبيب خيفة من احتمالية تهوره فحذره قائلاً:

-بالراحة يا أستاذ، إنت هنا في عيادة، وتحاليلك بتقول كده

رفض عقله تصديق ما يقوله، بل اعتبر الأمر من رابع المستحيلات لكونه مفرطًا في العلاقات الحميمية، كور «شاهين» قبضته ليطيح بعنف بمحتويات المكتب صارخًا فيه:

-ده كدب، إنت عامل الفيلم ده كله عشان تطلع مني بسبوبة، بس أني صاغ سليم وأقدر أنام مع أي حُرمة 10 مرات في اليوم ولا يجرالي حاجة

رد عليه الأخير موضحًا بهدوء عقلاني ليمتص ثورته الانفعالية:

-النشاط الجنسي مالوش علاقة بالقدرة على الإنجاب، الاتنين مختلفين عن بعض، حتى لو كنت طول اليوم بتقييم علاقات ده برضوه مايفيدش في الإنجاب، لازم وجود حيوان منوي سليم عشان يقدر يخترق البويضة ويحصل التلقيح والإخصاب، والحيوان ده مش موجود عندك

وكأن ما أوضحه له من تفسير علمي يعيبه ويقلل من شأنه، هدر به بجنونٍ:

-عاوز تفهمني إني خرع ومش راجل

توتر الطبيب من ردة فعله المبالغ فيها فهز رأسه نافيًا:

-لأ يا أستاذ

واصل «شاهين» صراخه الهادر:

-ده أني من دلوقتي أتجوز تاني وتالت وعاشر ومافيش حاجة تهدني، أل معنديش بتاع!

أشار له بسبابته مفسرًا سبب نشاطه الزائد:

-يا أستاذ اللي بتكلم عنه ده بنعتبره طبيًا إفراط في النشاط الجنسي، وزي ما قولتلك مالوش أي صلة بالخلفة

التف «شاهين» حول المكتب لينقض على الطبيب، أمسك به من تلابيبه وجذبه من ياقته ليجبره على النهوض من مقعده، هزه بعنف صارخًا به وهو يكز على أسنانه:

-الكلام ده تقوله لحد غيري، أني زي الفل وهاخلف وأجيب عيال، مش ناقص إلا اللي زيك يعيب فيا، إنت عارف قبلة أنا مين

حاول الطبيب انتزاع قبضتيه من على ياقته وهو يرد مدافعًا:

-والله أنا بأقرالك المكتوب قدامي، وده شغلي!

شدد «شاهين» من قبضتيه مكملاً تهديده:

-الورق ده تبله وتشرب مياته، وأني هاعرف أخلف بمعرفتي وأثبتلك إني أرجل من مليون من عينتك!

ولكي يبدو تهديده فعالاً سدد لكمة مباغتة في فك الطبيب جعلت الدماء تنزف من بين أسنانه، واصل «شاهين» وعيده له قائلاً:

-قسمًا بالله لو كلمة واحدة اتقالت تعيبني هاجيب أجلك وهاولعلك في المخروبة دي وما هيهمني التخين هنا!

أدرك الطبيب أنه أمام شخص متهور قد يفعل ما لا يُحمد عقباه، هز رأسه موافقًا:

-حاضر

دفعه «شاهين» بشراسة للخلف ليرتطم جسد الطبيب بالحائط، تحسس الأخير فكه المتألم وفركه ليخفف من حدة الألم، تنفس الصعداء لكونه قد تخلص من مريضه المشاغب بأقل الخسائر ودون أن يتسبب في وقوع كارثة أخرى، عاود ضبط هيئته محدثًا نفسه بضيق مبرر:

-راجل جاهل ومتخلف!

***

لم يرغب في الذهاب بمفرده إلى منزل عائلة «صبري»، فربما يُستهان به، لذلك اصطحب معه الحاج «رجب» ليكون مدعمًا له في طلبه، جلس «جاد» بتوتر وتبادل نظرات قلقه مع الضيف الآخر، انتظر الاثنان بترقب عودة

«نعمت» وهي تحمل في يديها صينية مليئة بأكواب الشاي الساخنة كنوع من واجب الضيافة، وضعتها أمامهما وهي تقول مرحبة قبل أن تجلس:

-اتفضلوا الشاي

مد الحاج «رجب» ليلتقط كوبه الزجاجي قائلاً:

-تسلمي يا حاجة «أم حسن»

راقبت «هانم» ما يدور في صالة منزلها من خلف باب غرفتها الموارب، دق قلبها بقوة من فرط التوتر المتحمس، كانت إلى حد ما متوقعة عرضًا للزواج، فتلميحاته السابقة أوحت لها بهذا، أرادت أن تهدأ مشاعرها المشتاقة حتى تتأكد أولاً من سبب قدوم الضيفين كي لا تصاب بالإحباط، ألصقت أذنها بالباب ليبدو الصوت أكثر وضوحًا، ارتشف الحاج «رجب» القليل من الشاي الساخن ثم سألها مبتسمًا:

-أخبارك إيه والبت حفيدتك عاملة إيه مع جوزها؟

أجابته «نعمت» بتنهيدة راضية:

-في نعمة والحمدلله

أومأ برأسه مرددًا:

-يدوم يا رب

انحنى للأمام ليسند كوبه بالصينية ثم تابع قائلاً بجدية:

-من غير ما نضيع في وقتك يا حاجة، أني جالي «جاد» قاصدني في طلب، وأني الصراحة مردتش أكسفه ولا أتأخر عنه، هو ابن حلال وبيتقي الله وبأعتبره زي ابني

نظرت إلى الضيف الآخر مرددة:

-هي أول مرة نعرفه، هو راجل ملو هدومه

رفع «جاد» يده ملوحًا لها بابتسامة متحمسة:

-الله يكرمك يا حاجة، ده من أصلك وكرمك

تلاحقت دقات قلب «هانم» بعد سماعها لتلك الجملة الاستهلالية التي زادت من توقها، تحسست صدرها النابض بيدٍ مرتعشة، وهمست لنفسها برجاءٍ:

-يا رب!

أخرج الحاج «رجب» زفيرًا قصيرًا من صدره قبل أن يكمل بنفس الجدية:

-بالصلاة على النبي كده، إحنا جايين النهاردة طالبين القرب منك في بتك «هانم» لـ «جاد»

كتمت «هانم» شهقة فرحة كادت تفضح أمرها وأغلقت الباب فورًا ليرقص قلبها طربًا من السعادة، في حين تفاجأت «نعمت» من طلبه للزواج من ابنتها، فلم يتقدم أحدهم لخطبتها منذ سنوات، بل لم يأتِ أحد على الإطلاق ليطرق باب منزلهم طالبًا الارتباط بها، ارتسمت علامات الذهول على محياها وهي ترد:

-بس هي ....

لاحظ «جاد» ترددها فقاطعها مضيفًا بتمهلٍ:

-لا مؤاخذة يا شيخنا، تسمحلي أتكلم

حرك الحاج «رجب» رأسه بالإيجاب قائلاً:

-قول يا «جاد»

التفت الأخير نحو صاحبة المنزل ليبدأ في سرد محاسنه مردداً بتفاخرٍ:

-أني بفضل الله راجل كسيب وأقدر أفتح بيت، وإن شاء الله كافة طلبات ست البنات مجابة، ده غير المهر اللي هادفعه والشبكة اللي هاتخترها على نقاوة عينها، بس هي تقول موافقة وأني تحت أمرها

نظرت له بغرابة غير متوقعة عرضه السخي بالزواج، ما يعيبه فقط أنه يعمل كأجير لدى عائلة «إبراهيم ذكي» مما سيجعل ابنتها عرضة للتهكم والسخرية، خاصة من «شريفة» التي ستتخذ الأمر ذريعة للاستهزاء بها، حاولت التملص من الرد عليه بصراحة ورفضه كي لا تبدو وقحة، تنهدت قائلة بقلة حيلة:

-والله يا ابني أني ماليش رأي، دي حاجة تخص بتي في الأول وفي الأخر، وإنت عارف إن ليها ظروف كده غير البنات التانية و...

رفع كفه أمام وجهها مشيرًا لها ليكمل بإصرار:

-أني عارف كل حاجة وقابل بيها على وضعها، الرك هي ترضى بيا بس

دعمه الحاج «رجب» في موقفه مضيفًا:

-شوريها يا حاجة وبلغينا برأيك، ونتعشم في الله كل خير

ردت مبتسمة:

-يا رب

نهض الحاج «رجب» من جلسته ليستند على عكازه قائلاً:

-مش يالا بينا يا «جاد»، فوتك بعافية يا حاجة

وقفت هي الأخرى لترد عليه:

-ما لسه بدري، ده إنتو ملحقتوش تشربوا الشاي!

أشار لها بكفه المجعد معتذرًا:

-نبقى نشرب الشربات إن شاء الله، ويدوب وقت صلاة العشا أزف

أضاف «جاد» بحماسٍ:

-دعواتك لينا يا ست الحاجة

ردت مجاملة وهي تومئ برأسها:

-ربنا يكتبلك اللي فيه الخير، شرفتوا وأنستوا

سارت خلفهما حتى أوصلتهما إلى خارج المنزل ثم أغلقت الباب لتستدير عائدة إلى الداخل لتحدث ابنتها فيما دار، سألتها باهتمام وقد بدا على وجهها العبوس:

-إيه رأيك في اللي اتقال

أجابتها «هانم» بلا تريث:

-أني موافقة يامه

اندهشت والدتها من موافقتها العجيبة دون أن تمنح نفسها فرصة للتفكير، هتفت مستنكرة وكأنها تفكر بصوت مسموع:

-تتجوزي واحد خدام عند عيلة «إبراهيم»؟

عللت قبولها قائلة:

-وماله مش راجل قادر يصرف على بيته مش عويل

لوت «نعمت» فمها لتقول:

-وعاوزة الناس تقول عنك إيه؟

انتفضت صارخة بألمٍ:

-مايتحرقوا الناس، خدت إيه منهم غير الكلام اللي يسم البدن؟

اختنق صوتها بشكل ملحوظ وهي تتابع بأسفٍ:

-وبعدين يامه أني قطر الجواز فاتني أديله زمن، واللي زيي مافيش حد هيطيق يبصلها، إنتي ناسية أني إيه

أشفقت عليها «نعمت» فردت قائلة:

-إنتي ست البنات كلهم

أخفضت «هانم» قميصها المنزلي ليظهر التشوه الذي يعلو صدرها قائلة بنبرة أقرب للبكاء وقد اغرورقت حدقتاها بالعبرات الحبيسة:

-لأ، أني نص مَرَة، مافيش راجل يقبل بواحدة زيي تقلب مزاجه وتسد نفسه كل ما يشوف جسمها، خليني ساكتة وكاتمة في نفسي

أحست والدتها أنها ارتبكت خطئًا في حقها بتجاهل ما تشعر به وما يختلج صدرها من أحزان لا تبوح بها، ضمتها إلى صدرها قائلة:

-خلاص يا بتي!

ردت عليها «هانم» بصوتها الباكي:

-بلغي الشيخ «رجب» إني موافقة، بس يا ريت يرضى هو بيا

هزت أمها رأسها بندمٍ وهي ترد مواسية:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يكتبلك اللي فيه الصالح!

***

عاد كالمجنون إلى منزله ليطيح بكل ما تطاله يداه أرضًا وهو يصرخ باهتياج والعرق الغزير يتصبب منه، انزوت «دينا» بعيدًا عن زوجها الغاضب لتتجنب بطشه الأعمى رغم يقينها بمحاولته لإفراغ شحنته المتعصبة بها، لم تعرف ما الذي أصابه ليصاب بتلك الحالة المخيفة، راقبته بخوفٍ شديد متوقعة ندائه عليها بين لحظة وأخرى، ما أصابها بالريبة هو انهماكه بالبحث عن شيء ما، لم تقاطع ما يفعله، وتركته يعيث في المنزل الفساد، فربما ذلك يهدأ من هياجه، اندفع «شاهين» إلى داخل غرفة النوم يفتش في أدارج الكومود بتشنج، فقد عبث شيطانه برأسه وأوهمه أن الحل السحري لمشاكله يكمن في ذلكً الشريط العجيب الذي أهداه له «راجح»، ظل يفتش عنه كالمجنون، قذف بمحتويات كل شيء على الأرضية فبدت الغرفة كالخراب، وجد ضالته في جيب سترته بالخزانة، انفرجت شفتاه عن بسمة ماجنة وهو يضع الشريط نصب عينيه، فض قرصين منه وابتلعهما سريعًا دون الاكتراث بعواقب ما يفعله، صرخ فجأة بقوة ليزلزل أركان البيت بصوته الجهوري:

-«دينـــا»

ارتجفت الأخيرة مع صوته واستشعرت تهديدًا جديدًا منه لها، هرولت نحوه لتسأله ورعشة قوية مسيطرة عليها:

-أيوه، في حاجة!

نظر لها بعينين ملتهبتين وهو يجيبها:

-تعالي عاوزك!

ارتعدت فرائصها من مجرد التفكير في رغبته في الحصول على متعة لحظية منها واستمتاعه بمفاتنها بأسلوبه المنفر والمنهك للقوى، نظرت له بتردد، فإن رفضت الانصياع له ستتلقى ضربًا عنيفًا لن تشفى منه قبل أيام وسيحصلً

على مبتغاه منها بالإجبار، وإن أطاعته ستعاني من عنفه المفرط في التودد لها، انتشلها من صمتها الشارد بإمساكه لرسغها، شهقت متألمة من دفعه لها بقسوة على الفراش، جثا فوقها ليشرع فيما اعتاد فعله مرغمًا إياها على تحمل أنفاسه الكريهة ورائحة جسده غير المحببة وهو يقبلها بشراهة، أغمضت عينيها مستسلمة له، أحس «شاهين» وهو في خضم حماسه المفرط بآلام رهيبة تعتصر قلبه وكأن به خناجر حادة تطعنه، لم يكن على طبيعته بل شعر بأن خللاً ما قد انتابه، كز على أسنانه بقوة وهو يقاوم الألم، بدت عضلة قلبه على وشك الانفجار من شدة الضغط عليها، تراجع عن زوجته وهو ممسك بصدره، ارتمى على ظهره لاهثًا بصوت متحشرج، تحول وجهه لكتلة دموية مشحونة، فتحت «دينا» عينيها حينما أحست بثقله يُزاح فجأة من عليها، أدارت رأسها للجانب لتجده في حالة تشنج واضحة، صرخت مفزوعة:

-»شـــاهين»

حدق الأخير في سقفية الغرفة بعينين جاحظتين وهو يكافح لالتقاط أنفاسه، ظل صدره يعلو ويهبط بخفقات مخيفة ويده مازالت موضوعة عليه، اعتدلت في نومتها تسأله بقلق مذعور:

-في إيه مالك؟

رفع يده الأخرى ليشير لها بأصابعه لكنه وجد صعوبة في النطق، تضاعفت آلامه وخرجت منه شهقات متحشرجة جعلت جسده ينتفض بقوة قبل أن يسكن تمامًا، صرخت «دينا» بكل ما أوتيت من قوة وقد بدت عاجزة عن التصرف أمام حالته المخيفة:

-إلحقوني يا نـــاس!

وكالعادة لم يستجب أحد لندائها المستغيث، فقد اعتاد قاطني المنزل

على صرخاتها اليومية حينما يقوم زوجها بتلقينها درسًا لا تنساه، ظنوا أنه يؤدبها ولم يهتموا بها، هرولت «دينا» راكضة إلى خارج المنزل بعد أن سترت جسدها بإسدال الصلاة، هبطت على الدرج مكملة صراخها، لم تتوقف عن الدق العنيف المصحوب ببكائها المرتاع على باب منزل عائلته حتى فتحت لها «شريفة»، منعتها الأخيرة من الدخول قائلة لها بقسوة:

-محدش هينجدك هنا من جوزك!

دفعتها «دينا» بيديها المرتعشتين لتلج إلى الداخل وهي تستغيث بلا وعيٍ وبصوت متقطع:

-إلحقوا «شاهين» فوق، مش بحالته

ردت عليها «شريفة» ببرود:

-وإيه الجديد، تلاقيكي منكدة عليه زي تملي، فقر من يومك!

سئمت «دينا» من إساءتها لها حتى في تلك الظروف العويصة، التفتت ناحيتها لتصرخ فيها بجنونٍ:

-بأقولك «شاهين» بيموت

وقعت جملتها الأخيرة عليها كالصاعقة، شخصت أبصارها وهي تستدير راكضة إلى خارج المنزل تناديه:

-«شـــــــاهين»

تجمع أفراد عائلته على إثر الصراخ المريب وبدأوا في استيعاب الأمر، وفي أقل من دقائق معدودة تحول المنزل إلى حالة من الهرج والمرج خاصة بعد أن علموا جميعًا بأن الحفيد البكري لعائلة الحاج «إبراهيم ذكي» قد لفظ أنفاسه الأخيرة وفاضت روحه إلى بارئها.

***

صدمة مفجعة حلت على رؤوس عائلته بوفاته هكذا دون أي مقدمات، فسر الطبيب سبب موته نتيجة إصابته بسكتة قلبية مفاجئة، والتي نجمت عن تناول جرعات زائدة من أحد المواد المنشطة جنسيًا وغير المصرح بتداولها، لم يخطر ببال أحدهم أن يرحل عنهم هكذا وبتلك الفضيحة، رفض الحاج «إبراهيم» أن يُكتب ذلك في التقرير الطبي، واستطاع إقناع الطبيب بأن يطمس الحقيقة ليتم استخراج شهادة الوفاة بناءً على إصابته بذبحة صدرية مباغتة، كان «أمين» في حالة يرثى لها، يبكي ابنه الفقيد بحزن شديد وبانكسارة واضحة عليه، فمن البديهي أن يواري الابن والده الثرى وليس العكس، لم تقل صدمة «هنية» عنه، كانت أكثر حدة في انفعالاتها، لطمت على وجنتيها وصرخت بقلب مفجوع على خسارة فلذة كبدها، شاطرتها «شريفة» في حزنها المكلوم، ولم تكف عن العويل والنحيب، بكته «دينا» أيضًا رغم قسوته معها، فللموت مهابة عظيمة، حضر مسيرة جنازته أغلب أهل القرية، الشيوخ، والرجال، والنساء، وحتى الأطفال، الكل تسابق في مشاركة العائلة مصابهم الأليم، وما إن انتهوا من دفنه حتى توجهوا عائدين إلى منزلهم حيث السرادق الذي سيقام بجواره.

دخلت «دينا» إلى المطبخ لتعاون النساء المتواجدات بداخله في تجهيز الطعام الذي سيقدم للمعزيين، أمسكت بأحد الصحون لتضع فيه الطعام لكنها تفاجأت بمن يجذبها من حجاب رأسها من الخلف، سقط الصحن من يدها وتهشم إلى أجزاء، صرخت مفزوعة وقد رأت بطرف عينها «شريفة» المهتاجة وهي تهجم عليها بشراسة لتطردها صائحة فيها:

-برا يا وش البومة يا فقر، يا جلابة النحس، موتيه في عز شبابه!

تدخلت النساء لتحول بينهما لكن لم ينجدها أحد من بين براثنها، رجتها أحداهن:

-بالراحة يا ست «شريفة»، مش كده

ردت عليها «دينا» صارخة:

-حرام عليكي، أنا مظلومة!

صفعتها»شريفة» بعنف مرددة بصوتها الهادر:

-مش هتباتي فيها لحظة، بـــــرا

صدمت «نعمت» و»هانم» من تلك المذلة المهينة أمام أعين النساء، لم تستطع إحداهن كبح جنونها الثائر، استمرت «شريفة» في سحبها بإذلال حتى وصلت بها إلى عتبة المنزل، ألقتها خارجه كما تُلقى القمامة ثم بصقت فوقها لتقول بعدها:

-دخلتك علينا دخلة الشوم والموت!

أجهشت «دينا» ببكاءٍ أشد مرارة وانكسارٍ مع تلك المهانة الكبيرة وهي تزحف نحو الخارج، دُهست كرامتها وتبعثر كبريائها بداخل جدرانه، تحملت ما لا يطيقه بشر من أجل جدتها وعمتها، واليوم تُطرد منه كامرأة حقيرة لا أصول لها ولا مراعاة لحقوقها، لملمت شتات نفسها حتى تمكنت من النهوض على قدميها، كتمت شهقاتها المتحسرة على حالها بطرف حجابها وهي تركض كالمجذوبة دافعة المقاعد الخشبية المتراصة على مدخل البناية، تعثرت وانكفأت على وجهها، ومع ذلك قاومت الألم وعاودت النهوض لتكمل ركضها، لم يمنعها أحد من الهروب، بل لم يعرها أي شخص الاهتمام، كانت نكرة بالنسبة لهم، لم يعد لبقائها أي فائدة، هي جاءت إلى ذلك المنزل وحيدة، وخرجت منه مهزومة ذليلة.

***

الفصل الرابع عشر

توصلت «ليندا» إلى مكان إقامة حفيدة صديقتها بمساعدة السلطات المتخصصة، كان الوقت متأخرًا فقد رحلت رفيقتها المقربة منذ عدة أسابيع، كذلك تعذر عليها السفر إلى موطن الحفيدة لأسباب تتعلق بالعمل، لذا قامت بمخاطبة الجهات الرسمية وأرسلت خطابًا رسميًا تطلب فيه حضورها شخصيًا لاستلام أملاك جدتها الراحلة، تم تكليف أحد الموظفين بالخارجية للذهاب إلى بلدتها لإعلامها بذلك، وبعد ساعات من التجول والسؤال عن عنوانها وصل إلى وجهته، وقف الموظف أمام بناية عائلة الحاج «إبراهيم ذكي» حائرًا، تلفت حوله باحثًا عمن يؤكد له صحة العنوان، زفر بتعب ثم قرر ألا يستعين بأحد ويلج إلى الداخل ليكمل مهمته، طرق باب المنزل وتأهب لفتحه من أحد قاطنيه، رسم على ثغره ابتسامة مصطنعة وهو يقول لتلك السيدة المتشحة بالسواد التي استقبلته:

-مساء النور يا فندم

ضيقت «هنية» نظراتها لتتأمل شكله غير المألوف، بدا غريبًا عن القرية، سألته بجمودٍ:

-إيوه، في حاجة؟

تنحنح بحرجٍ قليل ثم رد مبتسمًا:

-ده منزل السيدة «دينا أحمد صبري»

وقبل أن تجيبه انتبهت إلى صوت «شريفة» المتسائل بفضول من خلفها:

-مين يا «هنية»؟

التفتت ناحيتها لتقول:

-ده واحد بيسأل عن «دينا»

مجرد التلفظ باسمها أحدث في نفسها غضبًا عارمًا، انفعلت صائحة بتشنجٍ وقد دنت منها:

-انقطع حسها من الدنيا كله، ربنا ياخدها البعيدة

صُدم الموظف من كم اللعنات التي صاحبت ردها، ارتبك وزاد حرجه من أسلوبها الفظ في الإساءة لمن كُلف بالتواصل معها، تردد فيما يفعل لكن قطع عليه تفكيره الحائر صوت الحاج «إبراهيم» المتسائل:

-إنت مين؟ وعاوز إيه؟

التفت الموظف ناحية الشيخ المهيب في طلته ليجيبه بحذرٍ:

-كنت جاي أسلم ورق رسمي للسيدة «دينا أحمد صبري»

أشار له بكفه يأمره:

-هاته

اعترض الموظف قائلاً:

-بس المفروض هي ....

قاطعه بخشونة:

-أنا حماها وراجل البيت ده، ولا مش عاجبك

رد مستسلمًا أمام وجهه الصارم ونظراته الجادة:

-تمام يا حاج، بس حضرتك امضي على إيصال الاستلام

-ماشي

انتظرت «شريفة» على أحر من الجمر انصراف ذلك الغريب لتنفجر صائحة:

-احنا مش كنا خلصنا منها بوز الإخص دي

زجرها والدها بنفاذ صبر وقد تعقدت ملامح وجهه:

-استنى يا «شريفة» ماتخديش الأمور قفش كده، خلينا نفهم في إيه الأول

نظرت له بحنق وهي ترد بامتعاضٍ:

-هي دي يجي من وراها أي خير

نكست «هنية» رأسها لتقول بفتور وهي تتجه إلى غرفتها:

-أني مش عاوزة أسمع حاجة عن البت دي ولا غيره، خلوني في مصيبتي

تمتمت «شريفة» هامسة بتذمر وهي تتبعها بأنظارها:

-هي مصيبتك لوحدك!

ثم عاودت التحديق في وجه أبيها الذي انشغل بفض المظروف المغلف ليقرأ ما فيه، سألته مستفهمة:

-طلع فيه إيه

أجابها بعبوس:

-الكلام بالأفرنجي، أني مش فاهمه

اقترحت عليه قائلة:

-استنى أما يرجع «آمن» من جامعته، وهو يفهمنا، ما هو بيعرف يتكلم لغوة الخواجات

أخرج الحاج «إبراهيم» زفيرًا ثقيلاً من صدره وهو يتابع:

-الواد ده مش عاجبني حاله، من يوم ما رجع من برا وهو واخد جمب، لا بيكلم حد ولا عاوز يمسك شغل أخوه مكانه!

ردت عليه «شريفة» بحسرةٍ:

-هو اللي راح يتعوض يا حاج

مط فمه ليقول:

-هنعمل إيه، ده قضا ربنا

في تلك الأثناء كان «آمن» يدس المفتاح في قفل الباب بعد أن أنهى يومه الروتيني في عمله بالجامعة، فمنذ أن علم بوفاة أخيه بغتة وقد تغيرت أحواله كثيرًا، لم يواصل دراساته العليا وعاد إلى قريته ليكون بجوار عائلته يشاطرهم حزنهم على الفقيد، بالطبع تمكنت «شريفة» من بث سمومها ضد أرملته محملة إياها الذنب كاملاً في وفاته المفاجئة، لم يتأثر بما تُلقيه على مسامعه يوميًا، فقلبه النابض بحبها لم يكن ليبغضها أبدًا، بل إنها اقتحمت أحلامه مؤخرًا لتعبث بعواطفه وتزيد من شوقه لها، هي باتت سلواه وسط دوامة الأحزان والهموم التي انغرس فيها، تنهد بتعب ثم ولج إلى الداخل ملقيًا التحية:

-سلامو عليكم

ردت عليه «شريفة»:

-وعليكم السلام

كان على وشك التحرك نحو غرفته إلا أن جده استوقفه آمرًا:

-تعالى يا «آمن» عاوزك شوية

نظر نحوه بغرابة وهو يسأله:

-خير يا جدي

رفع المظروف المفتوح أمامه متابعًا:

-شوفلي البتاع ده مكتوب فيه إيه

اقترب من حفيده ليتفقد ما فيه مرددًا:

-حاضر

ساد صمت مترقب للحظات حتى يتمكن «آمن» من ترجمة وفهم فحوى تلك الرسالة الغامضة، تبدلت تعابيره المرهقة لعلامات اندهاش واضحة، هتف قائلاً وكأنه يفكر بصوتٍ مسموع:

-ده بيتكلم عن ورث لـ «دينا»

استشاطت نظرات «شريفة» سريعًا وصاحت تلعنها:

-المقشفة الجربانة دي ليها ورث!

ضاقت نظرات «آمن» المنزعجة نحوها، تابعت حديثها الساخط مرددة باستنكار:

-ألا تكون رافعة علينا قضية وناوية تجرسنا وسط الخلق، ماهي بجحة وتعملها، تقتل القتيل وتمشي في جنازته

أمسكت «شريفة» بخصلة من شعرها تتوعدها:

-وحياة مقاصيصي دول تبقى تقابلنا إن خدت مليم من فلوس المرحوم، معاد علينا إلا بت الخواجاية تشاركنا في ورثنا

استاء «آمن» من حكمها غير المنصف قائلاً:

-يا عمتي اصبري، ده بيتكلم عن ورثها من جدتها الأجنبية «كاثرين»

زمت فمها لترد بتهكم:

-وهي اللي زي دي ليها أهل أصلاً؟

وضع الحاج «إبراهيم» يده على كتف حفيده ليقول له بجدية وقد برقت عيناه:

-فهمني بالراحة الموضوع إيه بالظبط!

بدأ حفيده في سرد طبيعة الخطاب الرسمي وما تضمنه من معلومات عن ميراث كبير ستتسلمه «دينا» عن طريق المحامية المنوطة بتنفيذ وصية جدتها الراحلة، حطت دماء «شريفة» الثائرة بتمهلٍ لتفكر بلؤم في ذلك الموضوع المثير، توهجت عيناها بوميض مخيف وهي تجند شيطان رأسها ليوسوس لها بخطة ماكرة تجعلها تسلب تلك الأموال كنوع من الانتقام ممن تبغضها.

***

خاصمتها السعادة منذ حادث الوفاة الأخير، فلم يكن من اللائق أن تقيم «هانم» خطبتها في تلك الظروف الحزينة، بل إنها توجست خيفة من إتمامها، اعتقدت في نفسها أنها فأل شؤم على خطيبها، ولما لا؟ فوفاة الحفيد البكري وما تبع ذلك من معاملة سيئة من قِبل عائلته لابنة أخيها جعلتها تتردد كثيرًا وتخشى الخوض في تلك التجربة، بالإضافة لكونها لا تملك من المميزات الأنثوية ما يجذبه ويجعلها محط أنظاره، ناهيك عن خوفها المبرر من لحظة تأمله لجسدها حينما تصير زوجته، فوقتها سيندم على زواجه منها وتنتهي

حياتها قبل أن تبدأ بنهاية مؤلمة لها، تقبل «جاد» فكرة التأجيل حتى تمر تلك الفترة ولم يحدد ميعاد إقامتها أو حتى الإعلان عنها، في حين فسرت «هانم» تصرفه بأنه اعتذار لبق منه عن إتمامها، عزفت عن التفكير فيما يرهقها عقليًا ونفسيًا لتنشغل بـ «دينا» التي ذبلت ملامحها وهزل جسدها من حالة الانكسار المسيطرة عليها، لم تتجاوب الأخيرة مع رعايتها لها ولزمت العزلة والصمت على الرغم من مرور ما يزيد عن شهرين، وكأن الزمن عاد بها أعوامًا للوراء لتتقوقع داخل أحزانها مثلما أتت إلى منزلهم، فما مرت به ليس بالهين، هي ذاقت المهانة والذل أضعافًا مضاعفة، نظرت لها «هانم» بأسف وهي تقول:

-حسرة عليكي يا بتي، اتكتب الهم عليكي بدري بدري

كانت نظرات «دينا» شاردة، بدت في عالم خاص بها، تائهة في دروب حياتها الضائعة، مسحت عمتها على ظهرها برفق متابعة مواساتها لها:

-بكرة ربنا يعوضك بأحسن من اللي راح، ربك مابينساش حد!

لم تجد منها أي تعليق، فقط ذلك الوجوم الموجع البادي على تعبيراتها، اكتفت عمتها بمطالعتها بنظراتها الآسفة عليها وشاركتها صمتها المرير.

***

-أنا استحالة أعمل كده!

صرخ «آمن» بهذه العبارة الغاضبة رافضًا أي محاولة من عمته لإقناعه بالشروع في تنفيذ خطتها الماكرة للاستيلاء على ميراث «دينا»، لم يكن ليقبل بهذا أبدًا حتى وإن كانت بينهما عداوة لا نهاية لها، دارت «شريفة» حوله لتواجهه محاولة التأثير عليه:

-هو أني بأقولك اقتلها؟ اتجوزها لحد ما ناخد فلوسها، وارميها بعد كده، محدش هيلومك

احتقنت نظراته على الأخير من تبريرها لما تريد فعله، هو حقًا يحبها، لكنه لن يستغلها مطلقًا، تشنجت عروقه قائلاً بجدية:

-وأنا مش هاتجوزها، ولو ليها حق هتاخده سواء مننا أو من غيرنا

ارتفع حاجباها للأعلى كتعبير عن صدمتها وهي تسأله:

-قصدك إيه؟

رد ببساطة رغم جدية نبرته:

-مش هي ليها ميراث شرعي من المرحوم ولا أنا غلطان؟

شهقت صارخة باستنكار:

-بقى عاوز تدي فلوس أخوك للجربوعة دي؟!

على الرغم من انزعاجه من إساءتها الدائمة لها إلا أنه رد بجمودٍ:

-حقها

عمدت «شريفة» إلى اللعب على الوتر الحساس الخاص برحيل «شاهين» لتؤثر عليه، فلطمت على وجنتيها بقوة وهي تنوح:

-الله يرحمك يا غالي، كنت مبرد ناري يا حبيبي، مين هايجيب حقنا من بعدك

انزعج «آمن» من عويلها غير المجدي قائلاً:

-محدش هيقبل بكده

رمقته بنظرات نارية قبل أن ترد بعصبية:

-ده أني هاين عليا أجيب جاز وأولع فيها قبل ما تاخد قرش واحد، ده لو فيها موتي ماهسيبها تتهنى أبدًا!

حدق فيها «آمن» بنظرات متعجبة مليئة بالاستنكار، لم يكن ليتخيل أن تحمل عمته كل ذلك الشر بداخلها، هو لم يكن وطيد الصلة بها مثل أخيه الذي كان يهرع لتنفيذ رغباتها دون تأخير، تسلل إليه هاجسًا مقلقًا من احتمالية تعرض «دينا» للأذى إن استمر في معارضتها بعناد، خاصة أنه قرأ الشر جليًا في عينيها، انقبض قلبه لمجرد تخيل ذلك، وسرى الخوف بداخله، عليه أن يتريث في قراره ويفكر بالحيلة وبعقلانية ليحميها من أي مخاطر قد تحدق بها، وربما يكون فيما يرفضه الفرصة لتعويضها عما فات والفوز بحبه الوحيد، حدق فيها بنظرات غامضة وهو يقول لها:

-أنا موافق

تهللت أساريرها وانفرجت شفتاها عن بسمة لئيمة لكنها سرعان ما تلاشت حينما تابع قائلاً بجدية صارمة:

-بس بشروط، ولو متنفذتش يبقى الاتفاق لاغي يا عمتي

كان الرفض خيارًا مستبعدًا فردت قائلة وقد توهجت نظراتها:

-ماشي يا «آمن» طالما هتريحني في الأخر!

***

اتفق «آمن» مع جده على الذهاب إلى منزل عائلة «صبري» بعد صلاة العشاء متوليًا بنفسه مهمة إحضار «دينا» إلى المنزل، لجأ الحاج «إبراهيم» إلى حجة لن يراجعه أحد فيها، ألا وهي ضرورة بقاء الأرملة في منزل الزوجية

حتى انتهاء أشهر العدة، وبالتالي ما تفعله زوجة حفيدهم الراحل لا يجوز شرعًا، وبمجرد عودتها إلى هناك لن يسمح لها بالخروج، وستجبر على الزواج من أخيه الأصغر لتنفيذ باقي الخطة، توتر «آمن» كثيرًا من تلك الزيارة المقلقة غير مضمونة العواقب، ولكن لا مفر منها، سحب نفسًا عميقًا حبسه للحظة في صدره ليستجمع جأشه ثم حرره وهو يدق الباب بهدوء، أقدمت «نعمت» على فتحه وتفاجأت بوجودهما عند عتبة منزلها، رددت مصدومة موزعة نظراتها بينهما:

-حاج «إبراهيم»!

رفع يده القابضة على عكازه قائلاً بجمود:

-سلامو عليكم يا «أم حسن»

عبس وجهها بالكامل وهي ترد بتجهم:

-لا سلام ولا كلام يا حاج، احنا اللي بينا انتهى خلاص

نظر لها بقسوة قبل أن يرد بنفس النبرة الجامدة:

-بقى دي الأصول تسيبنا واقفين كده على الباب؟ وسعي يا حاجة!

اغتاظت من حديثه عن الأعراف والتقاليد وعائلته أول من نبذها وقاموا بطرد حفيدتها بمهانة على مرأى ومسمع الجميع، صاحت فيه بانفعال:

-وهي الأصول تخليكوا تطردوا البت وتبهدلوها قصاد الغُرب؟!

ارتبك «آمن» من جدالهما الحاد وخشي من وصول نقاشهما إلى طريق مسدود، دفع الحاج «إبراهيم» الباب بكفه المجعد ليقتحم المنزل عنوة وهو يقول ببرود:

-كانت ساعة شيطان

تبعته متسائلة بغضبٍ:

-ليه هي بتنا معندهاش كرامة؟

استدار الحاج «إبراهيم» نحوها ليرد بجدية:

-شوفي يا حاجة أني جاي النهاردة عشان أصلح الغلط، قومي خلي حفيدتك تجهز عشان تيجي معانا

اتسعت مقلتاها في ذهول من جملته الأخيرة ثم سألته ببلاهة:

-تيجي معاكو فين؟

أجابها بهدوءٍ:

-على بيتها!

صرخت فيه «هانم» تلك المرة بعصبية وقد اشتعل وجهها ككتلة من اللهب:

-«دينا» مش هتتعتع من هنا!

أشار لها الحاج «إبراهيم» بسبابته قائلاً:

-الكلام مايخصكيش

تقدمت نحوه لترد بشجاعةٍ:

-زمان أني خوفت وضيعت حق بت أخويا، المرادي أني أفديها برقبتي!

نظر لها شزرًا وكأن ما تفوهت به لا يليق للرد عليه، التفت برأسه للجانب آمرًا حفيده بصوته المتصلب:

-خش يا «آمن» هات البت من جوا، مستني إيه!

ابتلع الأخير ريقه في حلقه الجاف وهو يحاول أن يتصرف بهدوء كي يسيطر

على تأزم الوضع، تحرك خطوة للأمام فاعترضت «هانم» طريقه وهي تهدده:

-محدش فيكو هايقرب منها

أدار «آمن» رأسه للجانب ليتأمل وجه جده المحتقن ونظراته التي لا تبشر بأي خير، عاود التحديق بـ «هانم» قائلاً بهدوء:

-حاسبي يا خالة بعد إذنك

في حين حذرها الحاج «إبراهيم» قائلاً:

-لمي بتك يا «نعمت»

صرخت فيه «هانم» بجنون:

-إنتو مالكوش حاجة عندنا!

ثم بدأت في دفع «آمن» بقبضتيها من صدره محاولة إبعاده، تمكن الأخير من منعها من التطاول عليه باليد قائلاً بوجه ممتعض وهو يضغط على شفتيه:

-أنا أسف يا خالة

قاومت إمساكه بذراعها وهي ترد:

-مش هاسيبك تاخدها

لم يجد صعوبة في إزاحتها عن طريقه، اضطر أسفًا أن يدفعها للجانب ثم اندفع متجهًا نحو غرفة «دينا» التي هبت واقفة من على أريكتها الخشبية حينما رأته يقتحم غرفتها دون سابق إنذار، تحولت ملامحها الواجمة لاحتقان غاضب وهي تسأله بتشنجٍ:

-جاي ليه؟ عاوزين مني إيه تاني؟!

رفع «آمن» كفه أمامها ليشير لها وهو يرد بحذرٍ:

-اهدي يا «دينا»

لوحت بذراعيها مكملة صراخها المنفعل فيه:

-اطلعوا برا، أنا بأكرهكم كلكم

اقترب منها بخطوات متمهلة وهو يرجوها:

-اسمعيني بس

تلفتت «دينا» حولها باحثة عما تقذفه به، ألقت في وجهه زجاجة عطرها وأمشاطها، وبعض العبوات الدوائية مستأنفة صياحها الهادر:

-سيبوني في حالي، اخرجوا من حياتي!

تفادى قدر المستطاع ما تقذفه نحوه مردداً بإصرار:

-إنتي لازم تيجي معايا

استغل لحظة التهائها بالبحث عما تلقيه في اتجاهه ليهجم عليها قاصدًا تقييدها، نجح في الإحاطة بها والإمساك برسغيها، ثم أدارها بمهارة ليلتصق ظهرها بصدره، انتفضت بجسدها محاولة الخلاص منه وهي تصرخ بجنون:

-ابعد عني

أحكم لف ذراعيه حول معصميها ليضمن عدم إفلاتها منه، مال عليها برأسه ليهمس لها بنبرة ذات مغزى:

-أنا أسف، بس ده لمصلحتك

ارتجفت مما هي مقبلة عليه، وزادت مقاومتها له صارخة باستغاثة:

-الحقوني

لم يجد بدًا من حملها ليضمن السيطرة عليها، فمع تشنجاتها الزائدة والمنفعلة كانت على وشك الإفلات منه، انحنى «آمن» للأمام قليلاً ليتمكن من رفعها على كتفه، ثم اعتدل في وقفته ليسير بها إلى خارج الغرفة، ركلت «دينا» بساقيها الهواء وحاولت الإمساك بأي شيء قد يعوقه عن المضي بها قدمًا، ولكن باءت محاولاتها اليائسة بالفشل، اعترضت عمتها طريقه من جديد محاولة إنزالها عن كتفه وهي تهدر متعصبة:

-سيبها

أشهر الحاج «إبراهيم» سلاحه الناري كوسيلة لتهديدها هاتفًا بصرامةٍ:

-ابعدي أحسنلك

استنكرت «نعمت» تطاوله فعنفته قائلة:

-بترفع علينا السلاح يا حاج؟

رد بجمود:

-ما إنتو مش جايبنها لبر، وهي مش رايحة لمكان غريب، وبعدين «آمن» هايتجوزها لما عدتها تخلص!

حدق حفيده فيه بصدمة جلية، فالأمور قد بلغت ذروتها في ثوانٍ معدودة وخرجت عن الترتيب المألوف في رأسه، انتبه لصياحه الآمر:

-خدها على العربية وكفيانا فضايح

أومأ برأسه ممتثلاً بانصياع له وأكمل سيره محكمًا ذراعيه عليها، خرج صوتها مبحوحًا وهي تصرخ بما تبقى لها من قوة:

-الحقيني يا عمتي!

احتضنت «هانم» والدتها المذعورة تحت تهديد السلاح، تسمرت كلتاهما بعجز مُجبر أثناء متابعتهما لـ «دينا» وهي تخطف من منزلهما قسرًا ليتخليا عنها من جديد، ولكن تلك المرة رغمًا عنهما.

***

قادها كالمغيبة نحو ذلك المنزل القابض لروحها المعذبة، استنزفت «دينا» مقاومتها كليًا ولم تعد قادرة على الصمود، أشفق «آمن» على حالها المقهور، لم يكن راغبًا في رؤيتها هكذا، مجرد التطلع إلى وجهها الحزين الشاحب يؤلمه، بل إنه يعتصر قلبه ويطعنه حيًّا، برر انصياعه لتنفيذ خطة عمته اللئيمة بأنها السبيل الوحيد لحمايتها، فإن غدت زوجته لن يتجرأ أحد على المساس بها، ربما هي لا تعلم حقيقة نواياه الجادة نحوها، لكنه قطع وعدًا على نفسه ألا يتركها تعاني من جديد، تثاقلت خطواتها مع دخولها للمنزل، شحنت قواها المستنفدة لتقول بفزع:

-لأ بلاش، أنا مش عاوزة أعيش هنا!

لف «آمن» ذراعه حول كتفيها ليضمن إحاطته لها، رد عليه بصوت خفيض:

-متخافيش، أنا معاكي!

لم تصغِ إلى ما يقوله، كان تفكيرها منصبًا على تلك المرأة القاسية التي برعت في إذلالها، نظراتها الشريرة نحوها ذكرتها بكل لحظة ألم مرت بها، تلألأت حدقتاها الزرقاوتان بعبراتها الكثيفة، التفتت نحوه ليحدق مباشرة في عينيها، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتأملها فيها عن ذلك القرب المحفز لحواسه، اخترقته نظراتها الدامعة وأحدثت تأثيرًا جليًا في مشاعره المضطربة، أحس بدقات قلبه تتسابق في صدره وهي تسترقه ببكائها الذي نغصه:

-سيبني أمشي!

استصعب رفض طلبها، ضغط على شفتيه ليقول بأسفٍ:

-مش هاينفع

انفجرت باكية بيأس أكبر، لم تشفع لها توسلاتها الراجية، سحبها في صمت إلى إحدى الغرف، لم تنتبه إلى أين يوجهها، لكنها لم تكن غرفة «شاهين»، فضل «آمن» أن تمكث «دينا» في غرفته لتكون بمأمن من أي محاولات للعبث معها من قبل عمته أو من بالمنزل لإزعاجها أو الإساءة إليها خاصة في غيابه، كذلك وجودها بغرفة أخيه لن تكون فكرة سديدة لكونها ستجبرها على معايشة ذكرياتها السيئة معه، أجلسها على طرف فراشه قائلاً لها بحنوٍ:

-صدقيني، كل اللي أنا بأعمله ده لمصلحتك، أنا خايف عليكي و...

توقف عن الحديث عاجزًا عن إتمام جملته، فقد أوشك على البوح بما يكنه لها، تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة ونظر لها بصمتٍ، حدقت فيه من بين عبراتها لتلومه بنحيبٍ:

-إنتو مش هترتاحوا إلا لما تموتوني!

جثا على ركبته أمامها ليصحح اعتقاداتها مردداً بجدية:

-«دينا» متقوليش كده، أنا غيرهم

هزت رأسها بالنفي وهي تقول:

-كلكم زي بعض، أنا بأكرهكم، يا ريتني مت من زمان!

التقط يدها بين راحتيه، ضغط برفق على كفها وهو يرجوها:

-بعد الشر عنك، كفاية عشان خاطري!

انتحبت بأنين موجع فلم يتحمل ذلك، كانت دمعاتها تحرق روحه وتثير أعصابه، تمنى لو أفصح لها عما يدبره لاستعادة حقها المسلوب وإعادة كرامتها المهدورة لها، لكن إن فعل هذا سيفسد كل شيء، تريث قبل أن يزل لسانه، أسرته تلك العبرات الدافئة التي بللت وجنتيها، تعامل معها بما يحثه عليه قلبه، مــد يده تلقائيًا ليمسح عنها دمعاتها بأنامله في سابقة لم تحدث لها من قبل، تخشبت مع لمسته الحنون على بشرتها ونظرت له مصدومة، تحرج كثيرًا من تهوره واندفاعه الأحمق، أبعد يده في توترٍ، ربما أخطأ في تصرفه لكنها أراد أن يشعرها بأنه لين الطباع، رقيق القلب، والأهم من ذلك يُحبها في صمت، ما جعله ينتفض في جلسته غير المسترخية صوت عمته المتسائل بجفاءٍ:

-هتفضل عندك كتير؟

استدار برأسه نحوها لينظر لها مدهوشًا وهو يرد:

-عمتي!

وضعت «شريفة» يدها على منتصف خصرها، تغنجت في مشيتها وهي تحدق في وجه «دينا» لتتابع بتهكم ساخط:

-شرفتي يا وش البومة، هاتجيبي أجل مين تاني؟!

وقف «آمن» على قدميه ليمنعها من تسميم بدنها بكلماتها المزعجة، اعترض طريقها قائلاً بجدية وقد قست ملامحه:

-تعالي نتكلم برا يا عمتي

آمالت رأسها للجانب لتظل أنظارها مركزة على «دينا»، مصمصت شفتيها مضيفة بازدراء:

-مش لازم أرحب بالمحروسة

ارتعدت «دينا» من نظراتها الخبيثة نحوها، انزوت في جانب الفراش وقد تضاعفت رجفتها منها، التفت «آمن» برأسه للخلف ليجدها على تلك الحالة المذعورة، عاود التحديق في عمته ليقول لها بخشونة غليظة:

-من فضلك اطلعي برا

وليبدو جادًا في حديثه أخفض صوته متابعًا بتهديد:

-وإلا قسمًا بالله هالغي اتفاقنا!

كزت على أسنانها قائلة بغيظٍ:

-بتطردني عشانها؟ ماشي يا «آمن»!

اضطرت أن تخرج من الغرفة وهي تتمتم بتبرم مزعوج، تنفس «آمن» الصعداء لكونه قد نجح في إبعادها عنها، اقترب من «دينا» مجددًا لكنها رمقته بنظراتها الخائفة وهي تكتم صرخة تكافح للخروج من جوفها، أشار لها بكفه دون أن يدنو أكثر:

-محدش هيأذيكي طول ما أنا موجود هنا، حتى لو كان مين!

بدت كلماته جادة ونظراته صادقة، ومع ذلك لم تشعر بالأمان، ظلت على وضيعتها المرعوبة، تراجع للخلف مضيفًا بهدوء:

-أنا هاسيبك ترتاحي ومحدش هيضايقك تاني!

أولاها ظهره ليتحرك نحو الباب، توقف عند عتبته ليلتفت نحوها قائلاً وهو يشير بيده:

-المفتاح موجود، اقفلي عليكي لما أخرج!

تفاجأت من جملته الأخيرة وحدقت فيه باستغراب، رمقها بنظرة أخيرة حانية وهو يبتسم لها بصفاء، لم يدع لها الفرصة لتشكك في حديثه، خرج من غرفته مغلقًا الباب خلفه، هبت سريعًا من على الفراش لتركض نحو الباب موصدة إياه عليها، تراجعت بحذر للوراء بخطواتٍ متعثرة دون أن تحيد بعينيها بعيدًا عنه، ضمت ساعديها إلى صدرها محاولة بث الأمان إلى روحها، ارتطمت بجانب الفراش فشهقت بخوفٍ، أحست بقرب هلاك أعصابها المرهقة، فلم تكن قد استفاقت بعد من كارثة زواجها من «شاهين» لتبتلى بزوج جديد، نهج صدرها علوًا وهبوطًا من شدة الانفعال المتوتر، عجزت عن التفكير بذهنٍ صافٍ، لم تعد قدماها قادرة على حملها، شعرت بأن جسدها على شفا حفرةٍ من الانهيار، استندت بيدها على طرف الفراش قبل أن تفقد وعيها، جلست عليه وهي تتنفس بعمق لتسيطر على توتراتها، وزعت أنظارها الزائغة في كل ركن بالغرفة باحثة عما يطمئنها، وجدت صورة «آمن» معلقة على أحد الجدران، تأملت نظراته الدافئة التي صحبتها قديمًا حينما كانت تمر بأي أزمة، شعرت بشيء من الراحة يتسلل إليها ليسحبها نحو سكينة مريبة، ظلت عيناها معلقة بصورته وهي تضم ركبتيها إلى صدرها، تسرب خدر طفيف إلى عقلها المتعب، استسلمت له بعد لحظات، فقواها قد نفذت بالكامل.

***

الفصل الخامس عشر

لم تكن لتضيع حفيدتها دون أن تبذل ما في وسعها لإنقاذها من براثن عائلة «إبراهيم»، لن تدعها لهم، هرولت مع ابنتها إلى دار الحاج «رجب» لتلجأ إليه في تلك المحنة، استقبلها الأخير في مضيفته مرحبًا بها بهدوء مريب يتناقض مع تلهفها الفزع، تجهمت قسمات وجه «نعمت» وهي تسرد له بإيجاز ما حدث من اقتحام سافر لمنزلها وخطف حفيدتها بوقاحةٍ، نظر لها مليًا بوجه غير مقروء التعبيرات حتى انتهت مما في جعبتها، اعتدل في جلسته ليرد ببرودٍ:

-الحاج «إبراهيم» مش غلطان!

صاحت فيه «نعمت» منفعلة:

-ده خطف البت من قصاد عينينا

نظر لها رافعًا حاجبه للأعلى وهو يقول:

-هو شار عليا قبل ما يعمل الموضوع ده

تفاجأت بتصريحه الأخير فرددت مصدومة:

-بتقول إيه؟

تابع موضحًا بتريثٍ:

-المفروض الأرملة تقضي عدتها في بيت جوزها، وما تخرجكش منه قبل ما تكمل أربع شهور و10 أيام، وحفيدتك خالفت شرع ربنا!

رمقته بنظرة نارية مغتاظة لكونه يبرر أفعالهم مستخدمًا الدين في ذلك،

لوحت بذراعها صارخة فيه باستهجان:

-بتكلم عن شرع ربنا دلوقتي؟ كنتوا فين وهو بيضربها وممرمطها ومطلع عينها.

كان الحاج «رجب» هادئًا لأقصى الحدود، هز رأسه متابعًا:

-هي ماشتكتش، وبعدين مش جايز تكون حبلى ومش قايلة ده!

صرخت فيه «هانم» تلك المرة وقد فقدت أعصابها:

-حرام عليك، اتقي الله يا شيخنا، إنتو بتطبقوا الشرع بمزاجكم، هاتكون حبلى إزاي وهي بينزل عليها الدورة

أشاح بوجهه للجانب قائلاً بنفس النبرة الجافة:

-أنا ماليش غير في شرع ربنا، ده غير إن الحاج «إبراهيم» عاوزها لـ «آمن»، والجواز سُترة ليها!

واصلت صياحها المستنكر:

-دول طردوها قصاد أهل البلد أقوم أنا أجوزها تاني لواحد منهم؟!

برر موقفهم العدائي تجاهها قائلاً:

-كانت ساعة شيطان، وربنا هداهم.

غلت الدماء في عروقها من دفاعه الجلي عن تصرفاتهم المتجاوزة والفظة لتهدر فيه بعصبية:

-ومافتكروهاش إلا بعد شهرين وزيادة؟ كانوا فين المدة دي كلها، ده ماحد عبرها بلقمة عيش حاف.

تنهد مضيفًا:

-عفا الله عما سلف

ردت عليه «نعمت» محذرة:

-إنت بتجي على الغلبان، وده مايرضيش ربنا

بينما أضافت ابنتها مهددة بحدةٍ وقد احتقنت عيناها بشدة:

-البت مش هاسيبهالهم ولو فيها قطع رقاب، يالا يامه

انصرفت الاثنتان من مضيفته وهما تجران أذيال الخيبة، فلم يكن ليساعدهما وهو من كبار مدعمي الحاج «إبراهيم»، ندمت «نعمت» في قرارة نفسها على موافقتها منذ البداية على ذلك الاتفاق المشؤوم الذي أضاع حفيدتها وعرضها لتلك المآسي الموجعة، استوقفهما صوتًا مألوفًا أتى من على بعد مرددًا:

-يا خـــالة!

التفتت «هانم» إلى الجانب لتحدق بعينين مشتعلتين في وجه «آمن» الذي ظهر لها من الظلام، اندفعت نحوه قاصدة الاشتباك معه وهي تصرخ فيه:

-فين «دينا»؟ أنا مش هاسيبك إلا لما تجيبها

حاول تهدئتها قائلاً بنبرة عقلانية ليسيطر على نوبة غضبها:

-اطمني هي كويسة وفي حمايتي

ردت عليه «نعمت» بعتابٍ غليظ:

-بقى ده يطلع منك إنت يا «آمن»؟

استدار برأسه نحوها ليقول مدافعًا عن نفسه:

-والله العظيم أنا عمري ما أفكر أذيها

وضعت «هانم» يدها على فكه لتدير وجهه في اتجاهها وهي تسأله:

-عملت كده ليه؟ ملاقتش إلا هي!

لم يزح يدها وأجابها بجدية وقد تجمدت أنظاره عليها:

-عشان أحميها منهم

حدقت فيه غير مصدقة حديثه، تبادلت نظرات حائرة مع والدتها التي كانت واجمة هي الأخرى، تابع «آمن» مؤكدًا:

-تعالوا معايا وأنا هافهمكم كل حاجة

لم تتردد إحداهما في السير معه، فكلتاهما بحاجة لمعرفة الحقيقة كاملة وما تخطط له عائلته.

***

استشعر قلبها وجود شيء مختلف به، لم يكن «آمن» مثل بقية أفراد أسرته، كان على النقيض معهم، لين القلب، حسن المعشر، حتى مشاعره الحنونة تكاد تفضحه، لم تتخيل «دينا» أنها ستمكث في غرفته التي لم تدخلها إلا نادرًا أثناء غيابه، بات فراشه يخصها، وكل ما فيها تحت تصرفها، زكمت رائحة ثيابه أنفها، ونشطت ذاكرتها بما أحست به قديمًا ليلة زفافها على أخيه، لامت نفسها على تفكيرها فيه، ورغم مرور وقت كبير على تناولها الطعام إلا أنها كانت فاقدة للشهية، جفلت بخوفٍ حينما سمعت «شريفة» تهدر عاليًا وهي تدق الباب بقوة:

-افتحي عشان تطفحي يا وش البومة، أني مش خدامتك هافضل وقفالك بالصينية مستنية تحني عليا

تركزت أنظارها المرتاعة على باب الغرفة، توهمت أنها ستحطمه وتنقض عليها لتفتك بها، ما طمأنها قليلاً هو صوت «آمن» المردد:

-مش هاتفتحلك لأني قافل عليها، روحي إنتي يا عمتي وأنا هتعامل معها بطريقتي!

ردت عليه بتهكمٍ:

-يا خوفي تجيبك على جدور رقبتك.

بدت نبرته جادة للغاية وهو يقول لها:

-متقلقيش، أنا عارف كويس أنا بأعمل إيه!

سمعت «دينا» صوتها المتبرم وهي تبتعد عن الباب، تنفست الصعداء لكونها قد نجت من شرها اللا محدود، ارتجفت قليلاً مع دقات «آمن» الخفيفة على الباب وهو يستأذنها:

-»دينا» ممكن تفتحيلي

ترددت في تلبية طلبه، خشيت أن تكون خدعة منه يدبرها بالاتفاق مع عمته لإيذائها، أراد إنشاء جسرًا من الثقة بينهما فتابع بنبرته الدافئة:

-أنا هادخلك الأكل وأطلع على طول، بس عشان خاطري افتحي، مش معقول تفضلي كده من غير أكل، ده غير إني هاطلع كداب قصاد عمتي وساعتها ماضمنش إيه اللي ممكن يحصل

كان محقًا في تحذيره الجاد، فإن رفضت الإنصات له للجأت عمته لاستخدام العنف وتحطيم الباب، وحينها لن تنجو من غضبتها المهلكة، أنزلت ساقيها عن الفراش وسارت بتمهلٍ نحوه، استمع «آمن» إلى صوت تحريك المفتاح في القفل، فابتسم برضا لكونها وثقت فيه، بقيت ابتسامته مرسومة على

وجهه البشوش وهو يتأمل وجهها الذي بات معشوقه، تدارك نفسه ليقول بامتنان:

-شكرًا يا «دينا»

اضطربت دقات قلبها مع طريقة تلفظه باسمها، تعلقت عيناها بعينيه المليئتين بلمعانٍ مُحير، طالعها «آمن» بنظرات أكثر شغفًا، قاوم بصعوبة ما انتابه من أحاسيس تخصها، أخفض نظراته ليشير إلى صينية الطعام التي يحملها متابعًا:

-تسمحيلي أدخل

لأول مرة تشعر بالاحترام في ذلك المنزل، فقد اعتادت على المهانة والمذلة من قاطنيه، نظرت له فارغة شفتيها فسألها باستغراب:

-لو مش هاينفع ممكن آ ...؟

أفاقت من ارتباكها الحرج لتقاطعه بعبوسٍ:

-دي أوضتك وأنا محبوسة فيها

تحولت ملامحه للضيق وهو يرد:

-أنا أسف إن ده حصل، بس بكرة تعرفي إني عملت كده عشان أحميكي وأحافظ على حقك

ردت باستنكار:

-وأنا من امتى ليا لي حق في البيت ده؟!

ركز أنظاره معها ليبدو جادًا وهو يؤكد لها:

-أنا هاعوضك عن اللي فات، بس اللي عملته معاكي لمصلحتك وقريب

هتتأكدي من ده.

شردت في نظراته الناعمة التي احتوت خوفها في ثوانٍ، اعتلى شفتاه بسمة صغيرة وهو يسألها:

-ها ممكن أدخل؟

تنحت للجانب ليمر إلى داخل غرفته، تبعته ببطء نحو الفراش لتجلس على طرفه، أسند الطعام بجوارها ثم سحب مقعد مكتبه ليجلس على مقربة منها، كتف ساعديه ليراقبها في صمت، تأمل كل تفصيلة فيها بإعجاب ظاهر في نظراته نحوها، فقد كان وجهها مادة مثيره لاهتمامه، حتى حجابها غير المهندم أضفى عليها رقة ونعومة، خشي من انخراطها في دوامة أحزانها، فهي أضعف من مواجهة المصاعب، ظلت بلا حراكٍ ترمقه بنظراتها المتوترة، تحرجت من طريقة تحديقه بها وعمدت إلى العبوس أمامه، استغرب من عزوفها عن تناول الطعام فأشار لها بيده متسائلاً:

-مش هتاكلي؟

أومأت برأسها نافية، نظر لها بيأس ثم تنهد بعمق قبل أن ينحني نحوها لتنتفض من حركته المفاجئة، استغرب من ردة فعلها مؤكدًا بهدوءٍ وقد تركز بصره على عينيها القلقتين:

-أنا مش هاجي جمبك، إنتي غالية عندي وأنا مقدرش أذيكي!

واظب على ترديد تلك الكلمات على مسامعها في كل فرصة تسنح له لتتأكد من أنه سيوفر لها الحماية، وجوده معها يعني سلامتها، رأته «دينا» وهو يمد يده نحو الصينية ليلتقط الملعقة، دسها في الصحن المليء بالحساء الساخن ثم رفعه إلى فمها يستعطفها:

-ولو قولتلك عشان خاطري

نظرت له بترددٍ، فتابع بعبوس مصطنع:

-كُلي دول بس

توترت من أسلوبه الرقيق في معاملتها كأنها فتاته المدللة، حرك الملعقة وهو يرجوها:

-هاتكسفيني؟

استسلمت أمام صوته العذب الذي يُحدث فيها شيء ما، مالت برأسها قليلاً لتتمكن من دس الطعام في جوفها، ابتسم «آمن» لتجاوبها معه، تحرج من تكرار نفس الفعلة معها فتخجل منه، ناولها الملعقة متسائلاً:

-تحبي أأكلك ولا هتاكلي لوحدك؟

اعترضت بخجل وهي تخطفها منه:

-لأ، أنا هاكل لوحدي

رد مبتسمًا:

-تمام

راقبها باستمتاع وهي تضع لقيمات الطعام في جوفها، أحزنه إهمالها لصحتها وذبولها المخيف، للحظة فكر في إسعادها فاشترى لها قطعة حلوى آملاً أن تُحسن من مزاجها، وضع يده في جيبه ليخرجها منه، لم تنتبه له «دينا»، وانشغلت بالتحديق في صحنها، حينما رفعت يدها إلى فمها تفاجأت به يمسك برسغها، شعرت بدقات قلبها تخترق آذانها، نظرت له بهلع، وقبل أن تنتابها هواجسًا مخيفة حول ما يمكن أن يفعله معها رأته يدس الحلوى في

راحتها مثلما فعل قبل سنوات وهي طفلة صغيرة، انفرجت شفتاها بتعجب مصدوم، طالعته بنظراتٍ متسعة مليئة بالاندهاش، عمد إلى رسم ملامح الجدية على وجهه وهو يأمرها هامسًا:

-كُليها!

أطبق بأصابعه على أناملها المرتعشة لتحتفظ بالحلوى، ظلت حالة الذهول مسيطرة عليها، نهض واقفًا ليتركها على حريتها وهو يضيف مبتسمًا:

-اقفلي الباب بالمفتاح بعد ما أخرج!

لم تنبس بكلمة وتسمرت عيناها عليه، أولاها «آمن» ظهره متجهًا نحو الخارج ومغلقًا الباب خلفه، تجمدت في مكانها مدهوشة لبعض الوقت مقاومة التفسير المنطقي الذي يفرضه عقلها عليها ليبرر معاملته الحنون معها.

***

مـــر ما يقرب من شهر على تواجد ابنة أخيها بمنزل عائلة الحاج «إبراهيم»، كانت «هانم» تطمئن عليها يوميًا من «آمن» الذي واظب على نقل أخبارها إليها ليثلج صدرها القلق، أشعرها وجوده معها بالقليل من الارتياح، خاصة أنها بمفردها وسط حفنة من قساة القلوب، كانت متيقنة في قرارة نفسها أنها لن تسلم من مناوشات «شريفة» ولا من تلميحاتها المسيئة لتكديرها، فضلت ألا تفكر في ذلك كي لا تحزن، انتهت من شراء ما تحتاجه من الخبز الطازج من مخبز القرية القديم لتعود إلى منزلها، شهقت بتوتر حينما اعترض «جاد» طريقها، اعتذر عن ظهوره هكذا فجأة قائلاً بحرجٍ:

-لا مؤاخذة يا ست البنات، أني مقصدش

ردت بجمود:

-حصل خير

استعدت للسير من جديد لكنه استوقفها متسائلاً بقلقٍ:

-هو أني زعلتك في حاجة يا ست الكل؟

نظرت له بطرف عينها قبل أن تبعد نظراتها الحزينة عنه، فلا داعي لتمني ما لن يحدث، أجابته بعبوس زائف مقاومة تيار مشاعرها الجارف:

-لأ مافيش، بس أني اتأخرت ووورايا حاجات أد كده

عمد «جاد» إلى المماطلة معها في أحاديث جانبية ليضمن بقائها معه لأطول فترة ممكنة، فتلك هي فرصته الوحيدة للحصول على إجابات قاطعة لما يريد معرفته، سألها مهتمًا وهو يشير بيده:

-ناقصك عيش أجيبه؟

باتت قاب قوسين أو أدنى من كشف أمرها، قاومت بشراسة عبراتها المنكسرة التي بدأت في التجمع عند طرفيها، حاولت الزود بنفسها من تأثير حضوره عليها، تجنبت التطلع إلى وجهه وهي ترد بنبرة جافة:

-تسلم، أني خدت اللي عاوزاه من الطابونة، معطلكش

انزعج من جفائها غير المفهوم معه فسألها بضيق:

-طب ليه المعاملة دي؟ هو أني غلطت لا سمح الله؟

سحبت نفسًا عميقًا لتضبط به نبرة صوتها المختنق وهي ترد على تساؤله:

-إنت عاوز إيه يا ريس «جاد»؟

أجابها بجدية تامة وهو ينظر لها:

-عاوزك بالحلال

رمشت بعينيها بتوتر قبل أن ترد بارتباكٍ حرج:

-أني مانفعكش.

تعقدت تعابيره مستفهمًا:

-ليه؟ أني قصرت معاكي في حاجة؟ ولا .....

قاطعته بيأسٍ:

-يا ريس «جاد» دور على واحدة غيري تسعدك، أني خلاص صرفت نظر عن الجواز

صدمته بكلماتها المحبطة فزادت تعابيره تعقيدًا، ردد بحزنٍ كبير:

-طب ليه كده بس؟ ده أني مستني اليوم اللي يتقفل فيه علينا باب واحد، تقومي تقوليلي الكلام ده؟

بررت عزوفها عن تلك الزيجة قائلة بانكسار:

-أني مَرَة فاتني قطر الجواز و....

قاطعها بخشونة لم تعهدها منه:

--متقوليش كده، أني محبش أسمع ده منك

نظرت له بعينين متسعتين، فتابع موضحًا بنبرة أقل حدية:

-إنتي ست البنات، ومداسك على راسي من فوق، وبعدين أني أخرت جوازنا عشان الظروف اللي حصلت، لكن لو بإيدي كنا اتجوزنا أديلنا زمن، ودوقتك الهنا والسعد كله معايا

تفاجأت بتمسكه الشديد بها، وقفز قلبها في قدميها من تلك الدفعة الحماسية التي بثها في روحها المتعبة، تلألأت العبرات بقوة في حدقتيها وهي ترد بتلعثمٍ:

-إنت ....

أشار لها بكفه مقاطعًا بابتسامة سعيدة:

-شوري على الحاجة الكبيرة وحددوا ميعاد نجيب فيه الشبكة، وكل طلباتك مُجابة عندي، وليكي الكلام لو أني قصرت!

شعرت بجفاف يجتاح حلقها من فرط التوتر المتحمس، رفض التخلي عنها مثلها، تأكدت من صدق مشاعره نحوها، عاد الوهج الدافئ إلى عينيها ليضفي إشراقة بسيطة على ملامحها، ابتسم لها مضيفًا وهو يحك مؤخرة عنقه:

-مستني ردك يا ست الكل، سلامو عليكم

ردت عليه بنبرة أقرب للهمس:

-وعليكم السلام

رغمًا عنها بكت وامتزجت عبراتها الفرحة بضحكة سعيدة، فالحياة قد ابتسمت لها الآن بعد أن خاصمتها لفترة من الزمن.

***

بعد مرور ما يزيد عن شهرين، تحولت نافذة غرفته إلى وسيلتها الوحيدة لمراقبته خلسة وبأريحية تامة دون وجود رقيب مسلط عليها خلال تلك الفترة التي قضتها حبيسة منزل عائلته حيث أصبحت حريتها فيه مقيدة، ورغم ذلك استحوذ «آمن» على تفكير «دينا» تدريجيًا وبات محور اهتمامها رويدًا رويدًا، بحثت عنه بقلبها قبل عينيها، فقد استطاع ببساطته واهتمامه

بها وأسلوبه اللبق معها أن يمحي جزءًا من ذكرياتها السيئة المحفورة في جدران ذلك المنزل، احتل مكانة خاصة في قلبها، خشيت من الانسياق وراء مشاعر جديدة لا تعرف نهايتها، هي اختبرت الأسوأ من قبل، وليست على استعداد لخوض تجربة قاسية كتلك التي عايشتها، ارتبكت بخجلٍ وتورد وجهها بحمرة ملتهبة حينما رأته يحدق للأعلى ممسكًا بعينيها المتطلعتين إليه، ظنت أنه رأها من خلف النافذة فتراجعت مسرعة للوراء وهي تتحسس صدرها المضطرب، توترت أنفاسها وانتابتها حالة من التخبط الحائر، فركت أصابع كفيها معًا وهي تحدث نفسها:

-هايقول عني إيه دلوقتي؟

أجفلت بتوترٍ أكبر حينما سمعت دقاته على باب الغرفة، فقدت تركيزها ووجدت صعوبة في السيطرة على الارتباك البادي عليها، همس لها بصوته العذب:

-افتحي يا «دينا» بعد إذنك

تلبدت وتجمدت في مكانها، كتمت أنفاسها بيدها لتمنع خروج أي شهقة مباغتة من جوفها، تابع «آمن» قائلاً بهدوءٍ:

-أنا عارف إنك صاحية

لم تجد بدًا من الاختباء أو الهرب من مواجهته، تشجعت لتفتح الباب وانزوت ورائه، سلط نظراته المتلهفة على وجهها الخجل هامسًا لها:

-محتاج أتكلم معاكي في حاجة مهمة

أشارت بكفها سامحة له بالدخول إلى الغرفة، سحب «آمن» المقعد ليجلس في مكانه المعتاد وانتظر استقرارها على طرف الفراش، اقتربت منه بخطوات

متريثة متحاشية النظر إلى وجهه، جلست على الجانب وهي تعبث بأصابعها كوسيلة للتغلب على ارتباكها، أمعن النظر في توترها الملحوظ باهتمام، أخرج زفيرًا طويلاً من صدره قبل أن يقول:

-عارفة إن آخر الأسبوع نهاية عدتك؟

ردت بتنهيدة محبطة:

-هتفرق كتير يعني، ما أنا هافضل محبوسة هنا

همس لها آمرًا:

-بصيلي هنا يا «دينا»

رفعت وجهها لتحدق في عينيه فتابع مؤكدًا:

-محدش هايمنعك تخرجي أو تروحي أي مكان إنتي عاوزاه طالما أنا معاكي!

تقوس فمه بابتسامة صغيرة وهو يكمل:

-وخصوصًا لما نتجوز

ارتعش جسدها مع جملته الأخيرة، وتوردت بشرتها بدموية محببة، اتسعت ابتسامته لخجلها اللطيف ثم أضاف قائلاً بنبرته الهادئة:

-أنا تقريبًا جهزت كل حاجة عشانا احنا الاتنين، يمكن الحاجة الوحيدة اللي مش هاقدر أعملها هي الفرح، وده بسبب الظروف اللي إنتي فهماها

كانت صامتة أغلب الوقت، فاقدة للرغبة في التدقيق في أبسط حقوقها، لم تبدِ رأيها في شيء، توجس خيفة من احتمالية رفضها للارتباط به، فهي منذ البداية مجبرة عليه، لكنه لم يكن ليتزوجها دون إرادتها، نهض من مكانه ليجثو على ركبته أمامها، تفاجأت به قريبًا منها لتلك الدرجة المُحيرة، تحلى

بالشجاعة ومد يده ليمسك بيدها المرتعشة محتضنًا إياها بين راحتيه، أسبل عينيه نحوها وهو يقول بصوته العذب:

-»دينا» أنا عمري ما كنت هافكر أتجوزك غصب عنك، بس أنا فعلاً بحـ...

تجمدت الكلمات على طرف لسانه، فالوقت ليس مناسبًا للبوح بمشاعره السرية نحوها، رسم ابتسامة هادئة على وجهه قائلاً لها:

-بعدين هاتعرفي كل حاجة، بس اللي عاوز أكدهولك إنك أغلى حاجة في حياتي

داعبت كلماته اللطيفة أوتار قلبها وأوقظت فيها مشاعرًا جميلة ظنت أنها تناستها من قسوة ما عاشته، ابتسم وهو يكمل بجدية:

-وماتشليش هم موضوع دراستك، أنا هاتصرف فيه

أعاد بجملته الأخيرة الأمل إليها، بادلته نظرات امتنان وقد عرفت البسمة طريقها إلى شفتيها، استرقت «شريفة» السمع لحديثهما الخاص، ودَّت لو استطاعت إفساد تلك اللحظة الحميمية بينهما، لكنها تماسكت حتى لا تفسد خطتها في لحظة تهور طائشة، رددت مع نفسها بوعيد خبيث:

-بكرة تشوفي يا بت الخواجاية لما يرميكي في الشارع!

تسللت بحذرٍ على أصابع قدميها منسحبة في هدوء تام قبل أن يكشف أحدهم أمرهاً معتقدة أن خطتها الماكرة تسير في دربها الصحيح.

***

حز في قلبها ألا تمنح رجلاً مثله ما يتمناه من زوجة جميلة تمتلك مفاتن أنثوية مغرية تلهب حواسه وتحفز مشاعره، جلست «هانم» على طرف الفراش منتظرة دخول «جاد» إلى غرفة النوم، أخفت جسدها المشوه بردائها

الطويل، هي وافقت على الزواج منه بعد أن وجدت فيه إصرارًا عجيبًا على الارتباط بها، ومع ذلك خافت من رؤية نظرات الاشمئزاز جلية في عينيه في ليلتهما المنتظرة، انحبست الدمعات المقهورة في طرفيها حينما حانت لحظة اللقاء التي تأجلت، ظلت تمسح ما يتسلل من عبراتها بأناملها، دق زوجها الباب مستأذنًا بالدخول، ألقى نظرة خاطفة على عروسه المرتبكة، فرك رأسه الحليق عدة مرات وهو يهلل متحمسًا:

-يا خرابي على الجمال، أني مش مصدق نفسي، أخيرًا رضيتي عني يا ست الكل واتجوزنا

ظنت أنه يسخر منها، أشاحت بوجهها بعيدًا عنه لتخفي حزنها، ردت مجاملة:

-تسلم، لو جعان الأكل ....

قاطعها وهو يجلس بجوارها متلمسًا كتفها برفقٍ:

-أكل إيه دلوقتي

انتفضت مع لمسته وهبت واقفة من مكانها لتبتعد عنه، تلبكت في مشيتها وهي ترد:

-بس أني جعانة

سألها باستغراب:

-بتبعدني عني ليه طيب؟

وضع يده على ذراعها ليديرها نحوه، أطرقت رأسها في انكسار حرج، مد يده نحو ذقنها ليرفع وجهها إليه، رأى عبراتها المنسابة على وجنتيها فسألها مصدومًا:

-أني ضايقتك في حاجة؟ خلاص ناكل سوا، أني كنت عاوز نقعد مع بعضنا شوية، بس شوفي اللي يريحك وأني موافق

ضغطت «هانم» على أصابع يدها المتكورة وهي تجيبه:

-أني خايفة تندم لما .....

أجهشت بالبكاء أمامه فانقبض قلبه بضيق، امتدت يده لتستقر أعلى صدرها وهو يقول لها:

-أني حبيتك زي ما إنتي

جفلت كليًا من ملمس كفه على تلك البقعة المشوهة من جسدها، وضعت يدها على كفه لتزيحه عنها لكنه رفض قائلاً:

-لأ يا ست البنات

أحنى رأسه عليها ليقبل تشوهاتها تحديدًا، نهج صدرها علوًا وهبوطًا من فرط التوتر المتحمس، أحست بنبضات قلبها تخترق ضلوعها لتصل إلى أذنيه، خرجت شهقة خافتة حينما ضمها إليه ليلصقها به وهو يقول لها بصوته الأجش:

-ربنا ما يحرمني منك

أحاطته بذراعيها وهي تبكي تلك المرة فرحًا، ردت بخفوتٍ مستسلمة لمشاعرها:

-ويخليك ليا يا ريس «جاد»

***

تحولت مضيفة الحاج «رجب» إلى مجلس عائلي -شبه عرفي- لعقد قران

حفيد عائلة «إبراهيم» على أرملة أخيه بحضور العمدة وكبار رجال القرية فور انتهاء عدتها الشرعية ومرور بضعة أيام على الترتيب لتلك الزيجة، رفض «آمن» أن تتم المراسم في منزل عائلته وأصر على أن تكون بأرض محايدة لتتمكن عائلة «دينا» من الحضور دون الشعور بالحرج أو التعرض للمهانة من قِبل عمته –سليطة اللسان- وكي ينفذ الجزء المتبقي من خطته على رؤوس الأشهاد، أنهى المأذون خطبته القصيرة كتمهيدي أولي قبل الشروع في تزويج العروسين ليوقع بعدها «آمن» على وثيقة الزواج، مد يده بالقلم الحبري لـ «دينا» قائلاً لها بابتسامته المطمئنة:

-اتفضلي يا عروسة

ترددت وهي تمسك به، جابت بعينيها اللامعتين أوجه المتطلعين إليها، ثم أخفضت يدها لتوقع هي الأخرى على الوثيقة، وما إن انتهت حتى أطلقت عمتها زغرودة فرحة بها، أرادت بذلك أن تغيظ «شريفة» التي كانت تحترق في مكانها، كررت الأمر عدة مرات بعد تأكدها من نجاحها في استفزازها، فلولا ثقتها العمياء بـ «آمن» لما وافقت أبدًا على تزويجها له، هب الأخير واقفًا من مكانه ليتلقى تهنئة مجاملة من جده ووالده، منحته «هنية» حضنًا أموميًا مصحوبًا بالمباركة رغم عدم قبولها بتلك الزيجة، وهل كان اعتراضها سيشكل فارقًا مع زوجها أو والده؟ بالطبع لا فرفضها والعدم سواء، لكنها والدته وهو أصبح وحيدها، وباتت راحتها في سعادته، في حين كانت «دينا» مكفهرة الوجه، باهتة الملامح رغم مساحيق التجميل البسيطة التي وضعتها على بشرتها، ربتت جدتها على كتفها لتنتشلها من حالة الوجوم الواضحة عليها قائلة لها:

-مبروك يا بتي، ربنا يسعدك ويكفيكي شر المستخبي

نظرت لها بحدقتيها الحزينتين وهي ترد:

-ادعيلي يا ستي!

نكست «نعمت» رأسها قائلة بندمٍ:

-ربنا اللي عالم أني بأدعيلك أد إيه، وهو وحده اللي قادر يسامحني على اللي جنيته في حقك!

ثم ربتت من جديد على كتفها قبل أن تعاود الجلوس في مكانها، خبت الأصوات إلا من بعض الهمهمات الجانبية، التفتت «دينا» برأسها نحو «آمن» فوجدته يطالعها بنظراتٍ رومانسية مليئة بالأماني والأحلام، نظراتٍ اختلفت عن تلك التي رأتها ليلة عرسها من انكسار وقهر، نظراتٍ احتوت على بريق من الأمل والسعادة، تأملته غير مدركة كم مضى عليها من الوقت وهي تطالعه بجرأة، خجلت من نفسها وأخفضت عينيها في حرج واضح، سمعت صوته يقول بجدية:

-أنا عاوز أقول حاجة قصاد الناس دي كلها

التفت الجالسون نحوه محدقين فيه بنظرات فضولية، سأله الحاج «رجب» باهتمام:

-خير يا «آمن»؟

سلط أنظاره على وجه زوجته الحزين قائلاً:

-حقك علينا يا «دينا» إن كنا ظلمناكي في يوم

رمقته الأخيرة بنظرة متسعة مذهولة، حقًا هو يعتذر لها أمام الحضور معيدًا لها كبريائها المسلوب، في حين استشاطت عمته «شريفة» على الأخير، تمتمت مع نفسها بحنقٍ:

-الواد باينه اتجنن.

تابع «آمن» مضيفًا بجدية وقد انتصب بشموخ في وقفته:

-أنا عمري ما هاجي على حق المظلوم أبدًا، زمان سكت ومقدرتش أعمل حاجة، ودلوقتي جه الوقت اللي أرجع لكل واحد حقه، حتى لو كانت مراتي!

أبعد نظراته عنها ليواجه الحضور مستأنفًا:

-والكل هيشهد على ده زي ما شهدتوا على جوازي من بنت «أحمد صبري»

صدرت عدة همهمات حائرة بين الضيوف المتابعين للموقف، خطا «آمن» بخطوات ثابتة نحو زوجته وهو يقول بنفس الهدوء الواثق:

-الغلبانة دي ليها حق عندنا، بس الشيطان وزنا في ساعة غضب ناكله ونبرر ده، وأنا النهاردة هارجعه ليها وهي حرة فيه.

لم يفهم أغلبهم ما الذي يقصده بعباراته الغامضة، على عكسهم استشف جده مقصده، هب واقفًا من جلسته ليضرب بعكازه الأرضية صائحًا فيه:

-الكلام ده مش هنا يا «آمن»

تجاهله عن عمد ليضيف بقوة وهو يمد يده نحوها بورقة مطوية أخرجها من جيب سترته:

-ده ورثك الشرعي من أخويا الله يرحمه، أنا خلصتلك الإجراءات كلها

رد عليه الحاج «رجب» بنبرته المتحشرجة:

-ربنا يباركلك، من يومك وإنت حقاني يا ابن «أمين»

ثم رفع من نبرته الخشنة ليمدحه قائلاً:

-شايفين ولاد الأصول مابيكلوش حق الغلابة إزاي

مال «أمين» على والده يهمس له:

-شكله غفلنا يابا لما قال نعمل إعلان وراثة ويمسك هو كل حاجة، كان قصده يديها نصيبها في الورث

احتقنت عيني الحاج «إبراهيم» وهو يوزع نظراته على وجوه الناظرين إليه، كتم غيظه في نفسه كي لا يثير جلبة بالمكان وتنقلب الطاولة على رأس عائلته، لم تتمالك «شريفة» أعصابها فهدرت بغضب جم:

-بقى إنت جايبنا هنا عشان تجرسنا، كنت تقول ده من الأول يا ابن «هنية»

حدقت «دينا» في وجه «آمن» متوقعة نهاية مأساوية، رأت نظراته مشتعلة من إهانتها الصريحة له لتناديه علنًا باسم والدته، أدرك الأخير أنها تحاول استفزازه لتخرجه عن شعوره، لن يمنحها الفرصة لذلك، ترقبت «شريفة» ردة فعله بعينين كجمرتين من الجحيم، حافظ على جمود أعصابه مردِدًا بحذر:

-لأ يا عمتي، ده عشان أرد للمظلومة دي حقها

صرخت فيه منفعلة:

-إنت ضحكت عليا وفهمتني إنك هتنفذ كل اللي هاطلبه منك زي أخوك، وكنت ....

قاطعها مشيرًا بيده:

-أسف يا عمتي، بس أنا غير «شاهين» الله يرحمه

نزلت جملته كالصاعقة عليها فأصابتها في مقتل، وضعت «دينا» يدها على فمها لتمنع شهقاتها القلقة من الخروج، ظلت تدعو الله في نفسها أن يمرر الأمر على خير، استغربت من حالة الخوف التي تمكنت منها لمجرد رؤية «آمن» يتجادل مع عائلته، خشيت من الاعتراف لنفسها بما تحاول تجاهله،

تعلقت عيناها به وهو يقترب من جده ليقف قبالته في تحدٍ واثق، استطرد قائلاً بجدية:

-سامحني يا جدي، أنا عارف دي أول مرة أخالفك فيها، بس أنا مش راجع معاكو

رفع الحاج «إبراهيم» حاجبه للأعلى متسائلاً بوجوم:

-قصدك إيه؟

أجابه بتريث دون أن يرف له جفن:

-أنا هاخد مراتي ونعيش في البر الشرقي، أجرتلنا بيت هناك!

تفاجأت «دينا» بما أقدم على فعله وارتفع حاجباها للأعلى في ذهول، فبالرغم من حديثهما الانفرادي لعشرات المرات إلا أنه لم يذكر لها ولو لمرة واحدة عن نيته للاستقرار بعيدًا عن عائلته والانفصال عنهم، سأله «أمين» مصدومًا:

-إيه، هتسيب حالك ومالك وتروح تسكن برا ملكك؟

التفت ليجيب والده:

-ده أحسن لينا كلنا

استاءت «شريفة» من فشل خطتها فصرخت بتشنجٍ وهي تشيح بيدها:

-بقى هتبيع عيلتك وعزوتك عشان بت الخواجاية البومة دي؟!

رد عليها الحاج «رجب» مستنكرًا هجومها غير المبرر عليها:

-صلي على النبي في قلبك يا ست «شريفة»، مايصحش الكلام ده

بينما أضاف العمدة مجاملاً:

-دي العيبة ماتطلعش منك يا ست «شريفة»

ردت بصراخٍ:

-خلاص بقيت أني الغلطانة؟!

تدخل «آمن» قبل أن يتطور الوضع قائلاً بحزمٍ:

-عمتي ماسمحلكيش تكلمي على مراتي بالشكل ده

زجرته بانفعال وهي تنظر له شزرًا:

-بتعمل اعتبار لدي؟ هي عصتك علينا ولا إيه؟

رد بنزقٍ:

-أنا بأعمل كرامة لمراتي، ده فيه غلط؟

دعمه الحاج «رجب» في موقفه قائلاً:

-عداك العيب يا ابن الحاج «أمين»

فغرت «دينا» شفتيها مذهولة من دفاعه عنها بشجاعة وقوة، لم تتخيل ذلك مطلقًا، تذوقت معه معنى العزة والكبرياء بعد أن كانت ذليلة وحيدة مستضعفة في منزلهم، تحسست صدرها لتشعر بقلبها الثائر بدقاته، تجمدت نظرات «آمن» على عمته مكملاً ببرود:

-واللي مش عاجبه يشرب من المالح!

التهبت نظرات الأخيرة من وقاحته المستفزة معها وقبل أن تنبس بكلمة أخرى قد تزيد الطين بلة صـاح بها الحاج «إبراهيم» آمرًا بصوته الجهوري:

-»شريـــفة»، ولا كلمة، هو اتجوز واللي عاوزه يعمله مع مراته، مالناش

صالح!

رد عليه العمدة بإعجابٍ:

-مظبوط يا حاج!

رمقته «شريفة» بنظراتٍ مغلولة كاتمة غضبها مؤقتًا في نفسها، فنظرات والدها الصارمة كانت كفيلة بإخراسها، وأي إضافة زائدة منها تعني إشعال الوضع وانقلاب الطاولة على رأسها، تلك المرة لم تكن كفة الميزان راجحة لصفها أو الظروف في صالحها، الكل تكالب ضدها وفي لحظة تحولت للجاحدة القاسية، اقترب منها «آمن» ليقبل رأسها قائلاً بلباقة ومُنهيًا توتر الموقف:

-أشوف وشك بخير يا عمتي، خلي بالك من نفسك!

ردت عليه بهمسٍ:

-عملتها يا «آمن» وضحكت عليا.

اكتفى بالابتسام لها، فهي لن تقتنع بأي مبررات سيوضحها لها، بل لن تصغي إليه مطلقًا طالما رغبتها الانتقامية مسيطرة عليها، ثم توجه إلى والدته ليودعها قائلاً:

-أنا هاجيلك يامه ومش هاغيب عنك، ادعيلي بس!

اغرورقت عيناها بعبراتها الحنون وهي ترد:

-روح يا ابني ربنا يراضيك ويبعد عنك أي شر!

أحنى رأسه على كفها ليطبع قبلة مطولة عليه، ثم اعتدل في وقفته فاحتضنته بقوة، صافح «آمن» جده وقبله من كتفه قبل أن يحتضن أبيه، تبقى له فقط

توديع عائلة «دينا»، وقف أمام جدتها التي نظرت له بامتنان وقد أدمعت عيناها:

-ربنا يكرمك يا ابن الأصول

رد مبتسمًا:

-يا رب، دعواتك لينا يا حاجة

أضافت «هانم» قائلة:

-تسلم على كل حاجة، إنت فعلاً راجل وأد كلمتك

التفت برأسه للجانب ليقول لها:

-أنا عند وعدي يا خالة

تبادلت معه حديثًا خافتًا أوصته فيه على ابنة أخيها ومعاملتها بالود والرحمة ليكتسب قلبها وروحها، ودعها من جديد ليستدير نحو عروسه، تتوق شوقًا للانفراد بها وبث أشواقه لها، رمقها بابتسامة عذبة احتوت رهبتها، اقترب منها فاردًا ذراعه وهو يقول بصوته الخفيض:

-يالا بينا

لم تتردد «دينا» تلك المرة ومدت يدها فأمسك بها وجذبها برفق نحوه، التقت عيناها بعينيه الشغوفتين، أسرتها نظراته الدافئة، وسلبت عقله نظراتها الحانية، انفصل الاثنان عمن حولهما لثوانٍ معدودة، باتا في عالم خاص بهما، أفاق «آمن» من شروده الممتع مبتسمًا للجميع، تأبطت في ذراعه وسار بها بكل فخر نحو سيارته المصفوفة عند مقدمة المنزل ليبدأ سويًا مرحلة جديدة في حياتهما.

***

تفاجأت بعش الزوجية الذي أعده لها في البر الشرقي، كانت متوقعة أن تمكث في منزل عائلته مثلما حدث بعد زواجها من أخيه، خاصة أنها لم تشترِ أي مفروشات جديدة ولم ترَ أي أثاث يُبدل، خابت ظنون «دينا» وانتقلت للعيش في منزل خاص بها بعيدًا عن جو المشاحنات الذي أنهكها، دس «آمن» المفتاح في قفل الباب ليفتحه، تحرك للجانب قائلاً لها بابتسامته العذبة:

-اتفضلي

ارتبكت وهي تخطو بتمهلٍ نحو الداخل، تأملت بإمعان تفاصيل الصالة كنوعٍ من إلهاء عقلها عن التفكير فيما هي مقبلة عليه معه، فالأجواء من حولها موترة للأعصاب، أوصد «آمن» الباب بهدوء وتركها تعتاد على المكان أولاً قبل أن يقترب منها ليقطع تحديقها الصامت متسائلاً:

-البيت عجبك؟

توترت من قربه الخطير وابتعدت عنه وهي ترد بتلعثمٍ:

-أيوه، بس.. إنت مقولتيش على ده

فرك طرف ذقنه موضحًا:

-مكانش ينفع أعرفك أي حاجة، ده غير إني كنت عاوز أفاجئك!

أومأت برأسها بخجل، فابتسم لها ابتسامة ناعمة انقصت من رهبتها الظاهرة عليها، دنا منها مقلصًا المسافات بينهما، مد كفيه ليلتقط يديها مداعبًا بإبهاميه ظهر كفيها، ارتجفت من لمسته الحنون عليها، رفعت وجهها لتحدق في عينيه المليئة بنظرات العاشقين، همس لها بتنهيدة مطولة:

-«دينا» أنا .... بأحبك!

فغرت شفتيها بدهشة رغم إحساسها المسبق بمشاعره نحوها، شعرت بدقاتها تتسابق بداخلها، أحست بأنفاسها تضطرب مع نغمات صوته، تابع «آمن» همسه المتيم:

-أيوه، أنا حبيتك من زمان وقلبي دق من أول لحظة شافك فيها

استمعت للمرة الأولى لكلمات الغزل الساحرة التي تُغيب العقول وتداعب الحواس، كما شعرت بتأثيرها الحسي على جسدها، أضاف بعذوبة أكبر:

-مع الوقت حبك كبر جوايا وأنا فضلت أقاومه لأني كنت عارف إنك استحالة تكوني ليا وإنك من حق أخويا الله يرحمه

ازدردت ريقها بتوترٍ، فقد صدق في قوله، لم يكن ليكتب لحبه النور إن كان أخاه على قيد الحياة، قرب يديها منه وألصقهما بصدره، ثم ركز عينيه في حدقتيها وهو يكمل:

-لو حطيتي إيديكي على قلبي هتسمعيه بيدق عشانك

تهدجت أنفاسها أكثر كما زادت سخونية وجنتيها مع إحساسها بنبضاته الثائرة، ترك كفيها ليضع يديه على خصرها فانتفضت مع لمسته الجريئة، قربها إليه ببطءٍ لتشعر بأنفاسه المشتعلة بحبها وهو يقول لها:

-دلوقتي أنا من حقي أقولك على إحساسي بيكي، ومش مستني حاجة منك، بس كفاية إنك معايا سمعاني وموجودة في حضني!

توقف العالم من حولها لتصبح كلماته العاشقة مصابيحًا مضيئة تنير عتمة مشاعرها التي انطفأت بقساوة الحياة، راودته رغبة جامحة في تقبيل شفتيها حينما أخفض عينيه ليتأمل تلك الرجفة الخفيفة بهما، قرر أن يتخلى عن حذره ويتذوق طعم الحب من عليهما، إذ ربما استشعرت بصدق ما يخبئه

في فؤاده لها، مال عليها بتريث ليلتقط شفتيها بشفتيه مانحًا إياها قبلة حسية ناعمة لم تختبر رقتها من قبل، اندفعت الدماء المتحمسة في عروقها مع تيار المشاعر الهادئ الذي منحه لها، أعطاها الفرصة لتتجاوب معه ولم يتسرع بطلب المزيد، تراجع عنها ليأخذ شهيقًا عميقًا قبل أن يحرره هامسًا:

-بأحبك!

أرخى يديه عن خصرها فأنسلت هاربة من حصاره الملبك، أوقفها بإمساك كفها قائلاً:

-في حاجة كمان لازم تبقي واثقة منها

التفتت بوجهها المتورد بحمرته الخجلة لترد بحياءٍ:

-إيه هي؟

أجابها بهدوءٍ:

-ورثك من جدتك هاتخديه بالكامل

قطبت جبينها في استغرابٍ ثم ردت متعجبة:

-ورثي، أنا ستي مش كتبالي حاجة!

أوضح لها مقصده:

-أنا بأتكلم عن جدتك «كاثرين»

شردت للحظة في ذكرى بعيدة في حياتها الطفولية حيث كانت مقيمة ببلدتها اليونانية مع والديها الراحلين، تقوس فمها ببسمة باهتة:

-ياه، جدتي لسه عايشة، ده أنا نسيتها خالص

ضغط على شفتيه موضحًا أكثر:

-هو الموضوع مش كده بالظبط، للأسف هي ماتت من قُريب وكتبتلك كل أملاكها

عبست ملامحها بعد تلقيها لذلك الخبر الصادم، وتهدل كتفاها بحزن ظاهر عليها، سألته بخفوتٍ متأثرة برحيلها:

-ماتت! وإنت عرفت ده منين؟

أحزنه رؤيتها عابسة الوجه تحت أي ظرف، تحرك خطوة نحوها ليقترب أكثر منها ثم مد يده ليمسح على بشرتها قائلاً:

-مش هايفرق عرفت إزاي أو منين، اللي يهمني إن ليكي حق وهتاخديه

حدجته بنظرات حائرة وهي تسأله:

-مش فاهماك؟ إنت قصدك إيه؟

احتضن وجهها بكفيه لتشعر بدفء لمساته عليها، أغمضت «دينا» جفنيها لتهيم في ذلك الإحساس المغري، رعشة قوية عصفت بكيانها مع طريقته البسيطة في نقلها لعالم المشاعر الموازي، تأمل استجابتها المحفزة له هامسًا بتنهيدة عميقة:

-أنا لو مكونتش اتجوزتك كان ممكن حاجات كتير وحشة تحصلك من عمتي

ردت بانكسار وقد أفاقت من حلمها الصغير:

-أل يعني كانت سيباني في حالي

تألم من نبرة القهر البائنة في صوتها، حرك إبهاميه برفق مدلكًا أسفل جفنيها وهو يرجوها:

-انسي اللي فات وابدأي معايا من جديد

نظرت في عينيه متأملة انعكاس صورتها في بريقهما، استشعرت عنف دقات قلبها، لقد أعطى أسلوبه الرقيق معنى لكينونتها، ارتجفت أطرافها وهي تقاوم ما يعتريها من أحاسيس رومانسية، ردت بخفوتٍ:

-صعب!

برقت حدقتاه بوميض متفائلٍ وهو يرد مؤكدًا بنبرة تذيب الجليد:

-بس مش مستحيل

تشجع مجددًا لتقبيلها محتضنًا وجهها بأنامله، تجاوبت معه وبادلته قبلة رقيقة ضاعفت من شوقه لها، أيقنت في تلك اللحظة أنها تحبه أيضًا، أن قلبها دق لأجله، ارتخت يداه عن وجهها لتنخفض نحو جسدها فمرت على تفاصيلها بحنو أربكها أكثر، تراجع عنها لتلتقط أنفاسها اللاهثة، تأملها بنظرات والهة تخبئ الكثير والكثير من المشاعر الصادقة، همس لها من جديد:

-بأحبك

ابتسمت له ببشاشة ثم ردت بتلعثم وقد انهارت كل حصونها:

-وأنا .. كمان

تهللت أساريره غير مصدق ما سمعته توًا، سألها بتلهف:

-إنتي إيه؟

ردت مطرقة رأسها للأسفل في ارتباك جلي وقد تحول وجهها لكتلة ملتهبة من حمرة خجلة:

-بـ .... بحبك!

رقص قلبه طربًا لاعترافها غير المتوقع، انحنى ليحملها بين ذراعيه فطوقت عنقه بذراعيها، سار بها إلى غرفة نومهما وهو يقبلها بعمقٍ مستمتعًا بمذاق العشق من على شفتيها، أنزلها بحذرٍ لتقف على قدميها دون أن يحرر خصرها، لم تعبأ بالتطلع إلى معالم الغرفة التي ستجمعهما سويًا، فقد باتت تحت تأثير خِدر الحب، تحكم «آمن» بصعوبة في رغباته الذكورية وتريث في تعامله معها لتنخرط «دينا» باستسلام محببٍ لها مع شعائر حبه الخاصة والمميزة، تحمس بشجاعة لتعميق مشاعره متخليًا عن احترازه ليمحو بحنكة ما خلفه الماضي من ذكريات اجترتها مع أخيه، غاص الاثنان في بحور الهيام ملقيان خلف ظهريهما ما قد يعكر صفو سعادتهما الحميمية.

في الأخير تمكن «آمن» بإتقان من خلق ذكريات أخرى أشد عذوبة وأكثر رومانسية مخلدا حبًا عذريًا نال فرصته في نهاية المطاف.

تمت

للترجمة والتدريب والنشر والتوزيع

info@ibda3-tp.com

dreidibrahim@gmail.com

ibda3bookstore@gmail.com